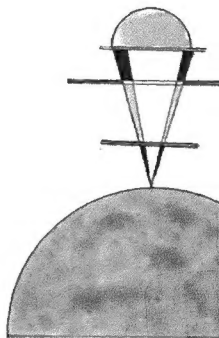
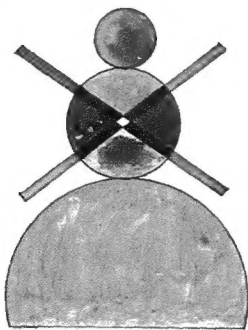


سلسلة
ذاكرة
الكتابة

70



ألوان من أدب الغرب على أدهم



المسلة العامة لقسم الثقافة

إهداء ٢٠٠٦
الدكتور / خالد عزي

ألوان من أدب الغرب

على أدهم

خاتمة الكتاب (٧٠)

رئيس التحرير
رجاء النقاش

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد نوار

مدير التحرير
مسعود شومان

أمين عام النشر
د. أحمد مجاهد

سكرتير التحرير
حامد أنور

الإشراف العام
محمد أبو المجد

المراسلات : باسم مدير التحرير
على العنوان التالي ١٦ أ ش أمين سامي - القصر العيني
رقم بريد : ١١٥٦١

- الكتاب: ألوان من أدب الغرب
- المؤلف: علي أدهم
- الطبعة الأولى: دار الهلال
- الطبعة الثانية: الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦م
- رقم الإيداع: ٢٠٠٦ / ٤٢٢٤

مقدمه

من الملحوظ فى تاريخ النهضة الأدبية أنها كانت فى الأعم الأغلب نتيجة تلاقى ثقافتين متباينتين، والظاهر أنه لا مندوحة عن احتكاك ثقافتين مختلفتين لإيجاد البدائع الخالدة وخلق الآيات الفنية الرائعة، فالأدب اليونانى القديم لم ينهض إلا بعد احتكاكه بثقافة قدماء المصريين، والأدب الرومانى لم يستكمل نضجه إلا بعد احتكاكه بالأدب اليونانى، والأدب العربى نهض نهضته المعروفة وتعددت مناحيه واتسعت آفاقه بعد احتكاكه بالأدب الفارسى والثقافة اليونانية الرومانية، والأدب المصرى الحديث يسير الآن فى طريق النهوض والتسامى باحتكاكه بالثقافة الغربية خاصة وسائر الثقافات العالمية عامة.

ولكن هذا الامتزاج لا يتم إلا بشئ من التنازل عن الشخصية الأدبية القديمة، والتفريط فى جانب م التراث الفكرى العتيق، والتضحية بطائفة من الاعتقادات السالفة التى تميز خصائصنا الفكرية، وإذا رغب الأدب عن هذا التنازل وأبى إلا الاستمسك بشخصيته القديمة وتنكر لكل روح مخالفة لروحه أمكنه الاحتفاظ بنقاوته وصفائه، ولكنه سيظل محصور الفكر، ضيق الأفق، بعيداً عن أنموذج الكمال الإنسانى، عاجزاً فى التعبير عن شتى العواطف البشرية.

وتكوين ثقافة قوية حافلة بالحياة مسيطرة لحركة التقدم العالمى يقوم على إنماء جذور الماضى وتطعيمها بالأفكار الحديثة، والاتجاهات المعاصرة، لا على اقتلاع تلك الجذور، وإزالة معالمها، ومحو آثارها، وهذا ما يحاوله الآن أعلام الأدب المعاصر فى مصر خاصة والشرق عامة، فهم يحاولون تجديد الماضى وإزالة الغبار عن آثاره من ناحية. ومن ناحية أخرى، يحاولون أن يفتقدوا من خير ما فى عناصر الأدب الغربى خاصة والأدب العالمى بوجه عام، وسبيل ذلك هو التعريف بكبار كتاب الغرب وقادة مفكرية، ونقل آثارهم، وبيان مذاهبهم ووجهات نظرهم. وتحليل أفكارهم، وتشريح عقائدهم. على أن الأفكار والنظريات والمذاهب المستوردة من الخارج لا يكون لها تأثير بليغ فى توجيه أفكارنا وبناء ثقافتنا إذا لم تصهر فى مراحل حياتنا الجائشة المضطربة، وتطبع بطابعنا الخاص.

وهذه الفصول عن طائفة من كبار كتاب الغرب وأعلام مفكرية والمختارات من آثارهم

مشاركة جد متواضعة في تغذية هذه الحركة التي بدأت تثمر ثمرتها، وتؤتي أكلها، وليس للأمم قيمة في معيار الحضارة، إلا بما تقدمه في عوالم الفكر والفن وبما تضيفه إلى رصيد الثقافة الإنسانية العامة.

على أنهم

سخرية سالتيكوف

الكاتب الروائي ميخائيل سالتيكوف الذى ولد عام ١٨٢٦ وتوفى عام ١٨٨٩ هو كبير الساخرين وشيخ الهجائين فى الأدب الروسى، وتشبه مكانته فى ذلك الأدب من وجوه كثير مكانة الكاتب العظيم سويغت فى الأدب البريطانى، وهو يشارك سويغت فى نزعة تفكيره، ولون ألبه، وميله الدائم إلى التنقص والأزدراء. وكان لا يرى خيراً فى المجتمع الروسى الذى عاش بين ظهرانیه. وكلما أدار الطرف فيما حوله وأرسل خاطره النفاذ، كان لا يبصر سوى الفساد المتغلغل، والجهالة المتفشية، والضعة والمهانة، والبهيمية المتوقحة، والقسوة البالغة، وفراغ العقول، وتقافة النفوس، وجمود الظل، وكثافة الطبع، وكثرة الرياء والمداهنة والتصنع، فأخذ يسخر من ذلك كله، ويصب عليه هجاءه، ويرسل حمم غضبه، وكان هجاؤه هجاء رجل يائس لا يرجو خيراً، ولا أمل له فى صلاح الأحوال، وعلاج الفساد، ومرة الظل، قال مرة عن لسان أحد شخصوه: «لقد عرفت انساناً كان ينعم بالسعادة وهو جاهل لا يدري شيئاً، فلما تولى جهله وبدأ يعرف، عمد إلى الانتحار».

وقد دفع سالتيكوف ثمناً غالياً «لكلبيته» وميله الدائم إلى التهايف والسخرية، فلم يرتفع إلى مكانة جيابرة الأدب الروسى، وقصر عن باع مشاهير القصصيين، وقراؤه فى العصر الحاضر قليلون، لأن أكثر العيوب التى كان يجيد وصفها ويفرغ لنقدها كانت متصلة بنظم سياسية قد تغيرت أوضاعها وعفا أثرها، وكان مضطراً إلى إلزام القموض والإغراب فى كتابته، وذلك دفعا للشبهة واصطناعاً للتقية، ولم يكن له بد من الالتجاء إلى ذلك فى عهد روسيا القيصرية خواطره الهامة الزارية، وقد بذل جهداً كبيراً فى الاحتيال على تلك الرقابة والتفلت من شباكها النصوية، وكانت تشغله على الدوام مشكلة كيف يخفى غرضه ويبعد مرماء، واضطره ذلك إلى أن يعالج التعبير عن أفكاره بأسلوب غير مباشر معتمداً على الاشارات الغامضة والتلويحات البعيدة، وقد أطلق على هذا الأسلوب اسم الأسلوب «الإيسوي» نسبة إلى إيسوب كاتب الخرافات المعروف، وكان يتحرى فى بعض كتاباته الاطالة والإسهاب ويتكلفه تكلفاً لعلمه أن يد الرقيب ستتناول بالحذف والبتير الكثير مما يكتب، واستطاع بذلك أن يؤدى رسالته الأدبية ويرسل نقده اللاذع وتهكمه المر، ولو كان هذا

الفنان القدير والساحر البارع أكثر إيماناً بالطبيعة الانسانية وأقل ميلاً إلى السخرية لطلت مؤلفاته تقرأ إلى اليوم مع مؤلفات اضرا به من فحول الأدب الروسى.

ولم تكن حياته هادئة غاية فى اللين والسلاسة، ولا عاصفة حافة بالعاصير والأنواء، وقد ولد من أسرة شريفه المحتد، وتلقى دروسه فى مدرسة بتروغراد الامبراطورية ثم التحق بخدمة الحكومة، ومال إلى الأحزاب الحرة، وأخذ يقرض الشعر، وفى عام ١٨٤٧ كتب قصة اسمها «متناقضات» لم يظهر فيها ميله إلى السخرية، وانما ظهر تأثره بالكاتبة الفرنسية جورج ساند، واتبعها بقصة أخرى عام ١٨٤٨ لفتت إليه أنظار الحكومة، فنفته عن العاصمة، ونقلته إلى إقليم فياتكا فى شمال شرقى روسيا، وظل هناك سبع سنوات، وسمح له بالعودة عام ١٨٥٦، وعين مساعداً لحاكم إقليم إيران واشترك فى تحرير جريدة «المعاصر» التى كان يصدرها صديقه نكراسوف، وأخذ ينشر بها صوراً عن الحياة فى الريف بإمضاء مستعار، وعطلت الجريدة عام ١٨٦٦، وبعد ذلك بعامين استقال من وظيفته واشترك مع نكراسوف فى إصدار جريدة «مذكرات عن الوطن» وظلا يحررانها مع لحن وفاة نكراسوف فى عام ١٨٧٧. وانفرد سالتيكوف بعد ذلك بإصدارها، وكانت تعتبر لسان حال الاحرار المتطرفين. وفى عام ١٨٨٤، طغت على روسيا موجة شديدة من الرجعية عقب مصرع القيصر الإسكندر الثانى، فعملت جريدته، وكان تعطيلها ضربة مؤلة وطعنة مصمية لسالتيكوف، لأنه وقف عليها جيمع قواه، ومنحها من سويداء قلبه، وقد ظهر أثر تلك المرارة والحسرة فيما كمتبه فى أعوامه الأخيرة قبل وفاته فى عام ١٨٨٩.

وأكثر الهجائين والساحرين لا يستطيعون الخلاص من أوهاق عصرهم والارتفاع فوق مشكلاته، ولكن الساحر الموهوب قد يستطيع أن يلمع المعنى الأبدى الخالد خلال ضجة العصر وفى معمعان أحداثه، وقد استطاع سالتيكوف أن يرتفع إلى هذا المستوى فى بعض كتاباته بفضل ما أوتيته من مواهب فنية وعبقريّة صادقة، وقد تجلت قدرته فى أبداع مجالها فى «الخرافات» التى كتبها بين عام ١٨٨١ وعام ١٨٨٦، والكثير منها يعد من طرف الفن وبدائع القصص، وهو لا يسهب فيها ولا يسرف فى الغموض، ولا يلجأ إلى الأساليب الملتوية، والفكرة المبثوثة فى نواحيها ملائمة للأسلوب، ويتفجر خلال ما بها من سخرية لازعة يناعيع من العطف والركة والحنان، فهى تتفق مع تقاليد الأدب الروسى وتسايير نزعاته الصميمية، وتمثل إنسانيته المعهودة.

فى أقصوصة «الحصان العجوز»، يحدثنا عن ذلك الحيوان المظلوم المضطهد المعلق بين الحياة والموت، والذي لا يعرف من الحياة وتجاربها سوى العمل الناصب والكد المرهق، وهو

يقصد به الفلاح الروسى أو الفلاح فى مختلف العصور والمواطن، ويصف استهدافه لوقدات الحر ونفحات القر، وأمن الطبيعة تظلل الجميع بجناح رحمتها، ولكنه لا تحنو على هذا الحيوان الشقى، ولا تنفك ترمضه بلوافح الحر أو تقنفه بحواصب الثلج، وكل مظهر من مظاهر حياتها يتطلب منه تضحية، وكل ازدهار فى نواحيها ينقص عليه عيشه ويسم حياته، وهو يقضى حياته دون أن يعرف انسجام الأنعام ولا جمال الألوان، ولا يدرك من المشاعر والاحاسيس سوى مشاعر الألم وأحاسيس العذاب ولارهاق، وفى الصباح تملأ الشمس المشرقة الأرض حياة وبهجة وسروراً، ولكنها تزيد «الحصان العجوز» ألماً على ألم، ومادام هو قائماً بعمله ناهضاً بحمله لا يعنى انسان بما يلهب ظهره من وقع السياط ولا بما يصيبه من الجراح، وليس المهم أسعاده، وإنما المهم المحافظة على حياته ليظل فى كسحه المتواصل يروى الحقل بدمائه، وتمضى به الليالى وهو لا يدرك عدتها لانه لا يعرف سوى «الأبدية».

وفى أسطورة «الغراب الضارع» يروى أن جماعة الغريان تقنى من جراء ما نالها من أذى الإنسان من ناحية، ويسبب ازالة الغابات وتجفيف المستنقعات من ناحية أخرى، وضاعت بها سبل الرزق وأجذب عيشها، واضطرت إلى غشيان الحدائق والبساتين والمزارع، وكان ذلك يزيدنها تعرضاً للهلاك والفناء، وكان من بينها غراب مسن قد وهو العظم منه وبلغ من العمر عتياً، وكان يسمع شكوى جماعته ويفكر فى أحوالها تفكيراً متصلاً عميقاً، ثم زيدت عليهم الضرائب فازدادت حالتهم سوءاً وكان أولو الأمر منهم هم الصقر والبازى والنسر والبرقش، ولم تجد شكواهم من ارتفاع الضرائب، وكان الصقر يرسل إليهم البرقش ليتولى تحصيل الضرائب ويسكت المتذمرين الناقمين، ويعاقب المحرضين دعاء الفتنة الراغبين فى الشغب، وكان يخرب الكثير من الأعشاش ويأسر العدد العديد من الغريان، ويلقى بهم إلى الذؤيان لتعرق عظامهم وتنهش لحمهم، ولما رأى الغراب المسن هذه النكبات المترادفة التى لحقت قومه أجمع على أن يذهب إلى الصقر ويقدم إليه التماساً، ويبسط له الحالة ويصف له ما يعانىة الغريان من الفاقة والاضطهاد، فإن لم ينصفه الصقر قصد البازى، فإذا أهمل البازى أمره ذهب توا إلى النسر، وكان بمثابة حاكم الأقاليم، واستيقظ الغراب من نومه مبكراً، وسعى إلى لقاء الصقر، وسرعان ما لحظه على مرقب عال، وأدرك من حركاته وملامح محياه، فرد تحيته وسأله عن شأنه، فقال: «إنى أت لأعلن الحق» وذكر أن جماعة الغريان موشكة على الفناء، لأن الإنسان يضطهدها والضرائب تثقل كاهلها، والبرقش يقسو عليها ويعنف بها، وهى تكاد تقضى نحبها، من المسغبة والجهد.

فقال الصقر: «أليس سبب ذلك كسلها وخمولها؟» فأجابه الغراب: «ولكن عهدك بنا أننا

لسنا من الكسالى الخاملين: بل نحن قدوة فى النشاط وبعد الهمة، ونحن نعيش من الكد وعرق الجبين ونعمل بأمانة واخلاص، ولو أن العمل الأمين التزيه أصبح فى هذا الزمن قليل الثمرة زهيد القيمة».

ففكر الصقر ملياً، ثم قال: «استعملوا ذكاعكم». فقال الغراب: «أنت تعرف التزامنا حدود الأمانة، وترفعنا عن الأساليب السائدة فى هذه الأيام، ولقد جعلت علينا رئيساً لتحميننا وتدفع عنا الفوائد، وأنت على التقيض تضطهنا وتلحق بنا ضروب الأذى والتتكيل».

فأجابه الصقر: «أهذا كل ما عندك؟ وهل أفرغت جعبتك؟ أن الحق الذى تدعى الاسبقية فى معرفته قد صار معروفاً من زمن طويل، ولو وقفت فى مفترق الطرق ورفعت صوتك به عالياً لما أجدى عليك ذلك، وأنت تزعم أنني أنا الصقر أنهب عشك، وبدلاً من أن أحمى مصالحك أسلبك ما تملك، ألا تدري يا صاح أنك تريد أن تعيش وأنتى مثلك أريد أن أعيش؟ ولو كنت أنت القوى لتغديت بى قبل أن أتعشى بك، ولكنى أنا القوى الآن، فأنا أتغدى بك قبل أن تتعشى بى، أليس هذا حقاً؟ لقد ذكرت لى ما تعتقده حقاً، وها أنا أصارحك بما أراه حقاً، وقد يكون حقك متبعاً فى السماوات وفيما وراء السحب، ولكن حقى هو المتبع هنا فى الأرض، فأنصرف إلى عشك ودعنى من ثرثرتك لأنى أريد أن أستريح».

فلم يستطيع الغراب المسن أن يتبين معنى هذا الكلام، وإنما أدرك بالبداهة أن حديث الصقر ينطوى على معنى خطير، ويتضمن تصريحاً قاسياً، وخرج من عنده وهو مصمم على الذهاب إلى البازى، وكان يقيم فى أخدود يصعب الوصول إليه، ويقف على بابه البرقش لتلقى الاتماسات، وكان كاتم أسرارهِ المؤتمن على شئون الدولة، ويهمس بعض ذوى الألسنة الطويلة بأنه ابن غير شرعى للبازى، وكان مرحاً طروباً يهوى الحديث الطلى ويحب النكتة الباردة، وكان فى مباشرته لأعمال وظيفته شديداً قاسياً فظاً غليظاً ينفذ الأوامر فى دقة صارمة، فلما رأى الغراب قال له: «ألا تزال حالماً؟».

فأدرك الغراب أن قصته قد اشتهرت، وأن قلم المخابرات السرية قد قدم تقريراً عنه للبازى، فقال: «أن الشيوخ لا يحلمون».

فقال البرقش: «لقد قدمت لتعلن الحق، فهل أبلغ قدومك؟».

فأجابه: «نعم.. إذا تفضلت».

فغاب البرقش ملياً ثم عاد وقال: «إن الرئيس لا يستطيع أن يأتذ لك لأن وقته لا يسمع له بذلك، وقد بلغه عنك أنك من المشاغبين مثيرى الشعور ومحركى الفتنة، ولو كبر سنك، لكان لنا معك موقف آخر».

فخرج الغراب محزوناً خفيض الجناح وفي نيته أن يرفع الأمر إلى النسر، فلما سار إليه ودنا منه وجد حوله الأعوان والأنصار والخدم والحشم، ورأى صنوفاً مختلفة من البوم والخفافيش تتلقى التعليمات وتحضر الرسائل.

ولما مثل بين يديه، قال: «لقد قدمت من بلاد بعيدة لأعلن الحق».

فأجابه النسر: «لا تزخرف الحديث ولا تسهب وأعرض شكوكا في إيجاز».

فقال: «إن الغرباء قد ساءت أحوالها لأن الإنسان يضطهدنا والبرقش والصقر والبازي يقتلوننا بالضرائب الفادحة ويخربون أعشاشنا».

وأقر النسر حديثه وأعاره سمعه، فازدادت حماسته وأخذ يسبح ويهضب في بلاغة وحسن بيان، حتى نفذ كل ما في نفسه، فقال له النسر: «هل أفضيت بما في نفسك وأرحت ضميرك؟».

فقال الغراب: «لقد قلت كل شيء».

فقال النسر: «لقد اعتليت هذا المربى أكثر من مائتي سنة، ولم أستطع خلال تلك المدة الطويلة أن أنظر إلى وجه الحق».

فأجاب الغراب دهشاً: «ولكن لماذا كل هذا الاعراض عن الحق؟».

فقال النسر: «لأن الطير لا تستطيع أن تترك الحق، وليس لها قدرة على معرفته، وإذا كان أي فرد يخال أنه عرف الحق فعليه أن يتبعه ويعمل به، ولكننا لا نستطيع اتباع الحق ولذا لا تقوى على النظر في وجهه».

واستغرق النسر هنيهة في التفكير ثم استرسل قائلاً: «أن الحق جميل وصالح ولكنه لا يصلح في الاوقات جميعها ولا الأمكنة كلها، والبعض يجب أن يخدموا الحق، ولكن كيف يلاقونه وأيديهم فارغة؟ أدر الطرف حولك تبصر في كل مكان الصراع الدائم، والمنافسة المستمرة، وكل فرد يجهل طريقه ولا يدري غايته. ولأجل ذلك، يتحدث كل فرد عن حقه الخاص، وسيجئ العصر الذي يعرف فيه كل مخلوق حدوده وهده، وتنطوي المعركة وتنتهي بانتهائها الحقوق الشخصية، ويرفع النقاب عن وجه الحق العام، ويمتلئ الكون نوراً ونعيش جميعاً في محبة واتلاف، فعد إلى الغريان وزف إليهم هذه البشارة وأخبرهم أن ثقتي بهم كبيرة وأملى فيهم عظيم».

وفي خرافة «الشبوط المثالي»، يتحدث سالتيكوف عن شبوط كان يكثر من مناقشة «البياض»، وكان هذا الشبوط المثالي يذهب إلى أن الإنسان يستطيع أن يعيش في الدنيا بالحق وحده، ولكن البياض كان يخالفه في ذلك، ويرى أن الإنسان لا يستطيع أن يشق طريقه

دون الاحتيال والمصانعة، ولم يذكر البياض حدود تلك المصانعة، ولكنه كان كلما ذكر ذلك للشبوط يشد غضبه وتتقد حماسه، ويقول: «ولكن هذا لا يتفق مع الشرف!»، فكان يرد عليه البياض قائلاً: «ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً».

وكان الشبوط سمكا هادئاً ميالاً إلى المثل الأعلى، وهو يغشى أعماق الجداول، وقيعان الغدر، ويظل كامناً بلا حراك، وقد علمه ذلك أمان التفكير، وأوحى إليه خواطر عن الحرية والتقدم، وسلك الشبوط يقع عادة فريسة للشباك التي تلقى، ولكي تصيد منه مقادير كبيرة يلزم أن تكون صاحب حيلة، والصيادون العارفون يختارون لصيده الأوقات التي تعقب الأمطار حيث يلقون شباكهم ويضربون الماء بالحبال والقضبان، ويحدثون جلبة وضجة، فيسمع الشبوط الضجيج فيخال ذلك بشرى انتصار الأفكار الحرة، فيهرع من الأعماق مستفسراً عن جلية وليشترك في حفلات الإبتهاج فيقع الكثير منه في الشبكة.

أما البياض، فإنه يقلب عليه الشك، وكنا كلما التقينا يتجاذبان الحديث ويثيران النقاش والجدل.

كان الشبوط يبدأ يقول: «إنى لا أعتقد أن التنازع أو التناحر هو قانون الحياة الذى تنشأ المخلوقات جميعها فى ظل سلطانه وتحت تأثيره، وإنى مؤمن بالسلام والنجاح الذى لا تلوته دماء، ولست أعتقد أن السعادة أضغاث أحلام وخيال سمارير، وإنما هى فى طريق التحقيق وستصبح فى متناول يد الإنسان».

فيجيبه البياض ساخراً: «انتظر حتى يجيئك الفرغ».

وكان البياض يعتقد أن الحياة قائمة على الصراع ولا يؤمن بفكرة التقدم.

وكان الشبوط يقول: «إن الضوء الباهر سيبدد الظلام المقيم».

فيقول البياض: «هل تعتقد أنه سيجئ عصر يبطل فيه اعتداء الكراكي؟».

الشبوط: «وما هى الكراكي؟»

البياض: «تحاول أن تحل مشاكل العالم، وأنت لا تدري ما الكراكي؟»

ثم يبتعد عنه مغيضاً حنقاً لسذاجته المفرطة، ولكنه لا يلبث أن يعود إليه فى اليوم التالى

ليجدد المناقشة، ويثير الجدل.

قال الشبوط فى إحدى تلك المناقشات: «إن الخير له الأثر الأكبر فى الحياة، والحياة لا

تخلو من الشر، ولكن مبدأ الحياة وقوامها هو الخير».

فأجابه البياض: «إنك تفتح فاك كثيراً، ولكنك للأسف تغمض عينيك طويلاً!»

الشبوط: «إن ألفاظك نابية، وأفكارك سخيفة، وهل هذا جواب؟»

البياض: «أصارك بأنك لا تستحق أن تتناقش ويرد على كلامك، ولقد بلغ منك الحق والعته كل مبلغ!».

الشبوط: «ولكن استمع إلى، إن الشر لم يكن يوماً ما قوة فعالة في التاريخ، وحوادث التاريخ خير شاهد على ما أقول، والخير هو الذي أطلق سار المظلومين وكسر أغلال المصفدين، ولولا عال الخير لما كان هناك تاريخ، والتاريخ هو قصة انتصار الحرية، وغلبة الخير واستعلاء الحق على الشر والحماقة».

البياض: «أتظن أن الشر والحماقة قد تمت هزيمتها؟»

الشبوط: «لم تتم بعد، ولكنها سينهزمان لا محالة، وأعود إلى الاستشهاد بالتاريخ، وأرجح أنك ستوافقني على أن الكثير من مظاهر القسوة قد ذهبت حديثاً وهناك وقعها» .
وتنتهي المناقشة بأن يشتم البياض الشبوط، ويسبه سباً قبيحاً، وينعته بالفلة ومجاوزة الحد في السذاجة والبله.

ثم يظهر الكركي يطلب صيداً فيحذر البياض الشبوط، فيعجب من ذلك إذ كيف يعتدى القوى على الضعيف بغير سبب ولا يراعى حرمة القانون؟ وهل من حق الكركي أن يفترسه؟ ويصارع البياض بأنه سيتمكن ببلاغته الساحرة وصادق حماسته من إقناع الكركي بخطر رأيه وفساد خطته، ويحمله على ترك التعدي والاستنزاء ، فيضيق البياض به زرعاً، وينعى عليه سذاجته، ويعلن أنه سيتمتع عن مناقشته ويتعد عن مناصحته.

وكان البياض على تبرمه بالشبوط وضيقه بسذاجته يهوى حديثه لما يعهده فيه من الصراحة وصدق السريرة في عصر كثر فيه الرياء واستفاس النفاق.

قال له الشبوط: «أراك تخوفني من الكركي، وتوصيني بأن أحذره، ولكن لماذا يقصدني بسوء وأنا لم أسئ إليه؟».

فقال البياض: «أتظن أن القوى يفترس الضعيف عقاباً له؟ كلا أن الضعيف يؤكل لأن القوى جائع!».

فقال الشبوط: «ولكني أعتقد أن الكركي لا يصم أنثيه عن صوت الحق، ومحال أن يسئ إلى شبوط هادئ وديع مسالم مثلي!».

وأعلن الشبوط أن السمك يجب أن يحب بعضه بعضاً، وأنه إذا رأى الكركي فسيعمل على إقناعه بذلك ويذكر له ما عليه من واجبات.

وذاغت آراء الشبوط، واشتهر أمره، فجاءه رسول من الكركي يخبره أنه يود لقاءه، فلم يحجم عن ذلك لثقته بنفسه، واعتداده بخلاصة بيانه وقوة حجته، فلما التقيا قال له الكركي:

«لقد ترامت إلى أخبار حكمتك وبراعتك في المناقشة، وقد جئت لأستمع بأحاديثك وأستفيد من علمك».

فقال الشبوط: «لقد زينتني شرفاً وملأت قلبي سروراً، وأنا لا أطلب السعادة لنفسى؛ وإنما أودها للجميع، وأملى أن تحل الثقة بين الأسماك مكان الخوف والحذر».

الكركي: «أترى ذلك ممكناً؟»

الشبوط: «لا يخالجنى في ذلك شك، وأنا أنتظر تحقيقه من الحين إلى الحين».

الكركي: «وإذا أنا أقدمت على افتراس الشبوط؟» .

الشبوط: «هذا بلا ريب عمل مخالف للقانون».

الكركيك «إنى لم أسمع عن هذا القانون! وما عندك غير ذلك؟».

الشبوط: «إن العدالة ستنتصر، وسيمنع القوى عن ظلم الضعيف، والفنى عن اضطهاد الفقير، ويعيش الناس للناس، ويتم التعاون بيننا، فإذا وقع أحدنا فى خطر أقلنا عثرته، وانتشلناه».

الكركي: «لقد فهمت من حديثك أنى سأكون مضطراً إلى العمل».

الشبوط: «مثل سائر الأفراد».

الكركي: «لأول مرة أسمع منك هذا الحديث!.. انفض يا صاحبي النوم من عينيك واستيق من أحلامك وهل تظننى أعمل لتجنى ثمرة عملى؟».

الشبوط: «كل فرد سينتفع من مجهود غيره من الأفراد».

الكركي: «إنك تتحدث حديثاً غير لائق، وتطالعنا بأشياء عجيبة!».

ثم التفت الكركى إلى صديق له وقال: «ما الإسم الذى يطلقونه على مثل هذا الحديث اليوم؟».

—إنهم يسمونه الاشتراكية!

— أه لقد سمعت من زمن أن الشبوط يفكر تفكيراً غريباً، ويفضى بأحاديث مثيرة، وقد أحببت أن أختبر ذلك بنفسى.

وعندما نطق بذلك ضرب الماء بمنزبه فى صورة تنذر بالشر والقدر إلى حد أن الشبوط على بساطته وسلامة نيته أبرك مغزاهما، واستولى عليه الرعب وقال: «إنى لا أقصد شيئاً.. اغتفر لى سذاجتى».

فقال الكركى: «إن السذاجة شر من السرقة، ولو استسلمنا للسخفاء لقضوا على العقلاء، ولقد أصغيت إلى حديثك مدة دقائق، فأملتتى وضايقتنى إلى حد لا يطاق».

فقال الشبوط: «ألا تعرف الفضيلة؟»

وهنا فجر الكركى فاه ثم جر الماء فى حركة آلية ويدون رغبة ظاهرة فى ابتلاع الشبوط، ثم التهمه دفعة واحدة. واستولى على بعض الأسماك الحاضرة ذهول لهول مصرع الشبوط، ولكنهم بعد دقائق قلائل استفاقوا من ذهولهم، تقدموا من الكركى يسألونه عن صحته الغالية. وفر البياض محزوناً كثيراً وهو يقول لنفسه: «هذا ما أسفرت عنه أحاديثنا!».

أحاديث تولستوى

يسود عالم الأخلاق نوعان من الآداب: آداب الارستقراطية وآداب الديمقراطية، فالطموح وترامى الآمال وجموح المطامع والكبرياء والجبروت وشدة الاعتداد بالنفس والميل إلى العدوان وبسط النفوذ واستعمال القسوة وأمثال ذلك من الصفات مردها إلى آداب الارستقراطية. أما الديمقراطية، فمن سماتها التواضع وخفض الجناح والقناعة والحلم وحب العدالة والرفقة والحنان والميل إلى التضحية ونكران الذات، وليست هناك حدود فاصلة بين هذين النوعين من الآداب، فمن الناس من تغلب عليه آداب الارستقراطية ومنهم من لآداب الديمقراطية من نفسه المكان الأكبر والقسط الاوفر، ومنهم من يتلاقى في نفسه النوعان ويجتمع الضدان. وفي بعض الأزمنة، تنتصر آداب الارستقراطية، وفي أزمنة أخرى تفوز آداب الديمقراطية، ومن الشعوب شعوب آداب الارستقراطية أشد تأصلاً في نفسها مثل العرب خاصة والأرومة السامية عامة، ومنها شعوب آداب الديمقراطية أبين في أخلاقها وأعرق في طباعها مثل الشعب الروسى السلافى.

وقد ظهر في القرن التاسع عشر - ذلك القرن الذى اشتد فيه الصراع بين المذاهب والمبادئ - مفكران كبيران لهما من صدق السريرة وعمق الروح وقوة الانسياق مع تيار فكرهما ما يسمو بهما عن مرتبة الفنانين والفلاسفة إلى مستوى الرسل والأنبياء. ولقد بلغ هذان النبيان الجديان رسالتيهما إلى العالم، ولم يتلثم لسانهما فى تبليغها ولم يقصر باعاهما فى نشرها. فأحدهما - وهو نيتشه - يعد بحق نبى الارستقراطية المطالب بحقوقها ورافع صوتها فى العصور الحديثة، والآخر - وهو تولستوى - هو نبى الديمقراطية ومجدد عهد روسو وأقوى المدافعين عن آداب المسيحية عارضة وأجهرهم صوتاً.

والأول من نبت ألمانيا المفكرة الفلسفية، والثانى لرج فى روسيا السانجة المتدينة. ولم يمنع الأول وجوده وسط أوروبا المسيحية من أن يسند سهامه إلى صميم آداب المسيحية ويرسل عليها صواعق غضبه بلا رحمة وفى غير هوادة، وكذلك تولستوى لم يمنعه وجوده فى روسيا القيصرية من أن يرسل خطاباً إلى القيصر الإسكندر الثانى يناشده فيه ألا يبدأ حكمه بإعدام القتل وأزهاق الأرواح ويلتمس العفو عنهم، وساء أن أهمل القيصر خطابه ولم يصغ إلى رجائه. وقد تغنى نيتشه بأنشودة الإنسان الأعلى وملأ بها المسامع ونقض عليها من

خياله الخصب أبهج الألوان وأزهى الحلل، واستتفز معين شاعريته فى تجميلها وتزييقها، واستتفد تولستوى براعته الفنية كلها فى رواية «الحرب والسلام» تلك الرواية التاريخية العظيمة والمعجزة الفنية التى يضعها بعض كبار النقاد إلى جانب إلياذة هوميروس والتى تحمل فى مطاويها فكرة أن الجماعات هى التى تلعب أكبر دور فى تاريخ الإنسانية وأعمالها الجسام لا الأبطال والعظماء، وذلك لأن الجماعات فى رأيه هى التى تمت على يدها مختلف الأحداث فى حرب عام ١٨١٢ لا نابليون ولا غيره من العظماء البارزين فى التاريخ.

وليس من قذافات الصدف وغرائب الاتفاق أن أخرجت روسيا نبى الديمقراطية ورسول الحب والسلام فى العصور الحديثة، فإن الأدب الروسى معروف بإنسانيته العالية وحفوله بكنوز الحب والعطف. ولقد نبغ الروس النبوغ كله فى الأدب الروائى وسبقوا فى مضماره سائر الأمم، ولم تخرج روسيا شاعراً عاماً يعبر عن خصائصها ومميزاتها مثل دانتي عند الإيطاليين وشكسبير عند الإنجليز وهوميروس عند اليونان، وإنما أخرجت طائفة من عباقرة الروائيين ونوابغ القصصيين ولعل أقرب رجال الأدب الروسى جميعاً إلى تمثيل النفسية الروسية بمختلف ظلالها ومتنوع ألوانها هو كاتيهها الكبير تولستوى، فإن أكبايه على المسائل الدينية وشدة تعلقه بالديمقراطية يمثلان فيه أعرق غرائز النفسية الروسية وألزم خصائصها، فالروسى شديد التدين؛ ولكنه بعيد عما يشوب العقائد والنحل من أسباب التعقيد وغريب التخريج، وما ينشأ حولها من خفايا الصوفية وغرائب الاسرار، وهو أميل إلى البساطة فى تدينه، وهو بطبيعته نزاع إلى الرحمة والعطف، وحتى الشيطان فى القصص الروسية موضع رحمة؛ لأنه وأن كان خصم الانسان اللود الذى لا ينفك يعمل على استغوائه وإيقاعه فى الشرك، ولكنه لسوء حظه لا يتقن غير هذه المهنة ولا يعرف سواها، وهى من أقدم العصور صناعته التى يجيدها، فهم لأجل ذلك لا يحقدون عليه، بل هو فى عرفهم شيطان صالح لا بأس به، والعادات الاشتراكية عميقة الجذور وشيجة الأصول فى نفوسهم، وقد قال أحد المفكرين: «ليست العبقريّة سوى التخلص الأتم من تأثيرات الزمن والآداب والوطن». وأرى فى هذا الرأى شيئاً من المغالاة، والأصح فى اعتقادى أن فى كل عبقري ناحيتين: ناحية إنسانية عالمية، وناحية أخرى قومية محلية، وتولستوى مثال لذلك، ففيه الجانب الإنسانى العالى العالمى، وهو من ناحية أخرى نموذج تام للنفسية الروسية تتلاقى فيه غرائزها الأصلية ويواعتها المستخفية العميقة.

وقد كانت المسائل الدينية ومشكلة الحياة والمبدأ والمصير تساور تولستوى من أوليات حياته الفكرية، ولكن فى بادئ الأمر تغلب الفنان فى نفسه على النبى والمصلح الدينى، وظل

الفن له الأثر الأقوى في حياته حتى انتهائه من رواية «أنا كارنينا» فتبدل الحال، واشتدت الأزمة، وغام الجو، وتراجع الفنان إلى المؤخرة ليفسح المجال للنبي القادم، قال في اعترافاته يصف ذلك: «لما أنعمت كتابي «أنا كارنينا»، بلغ بي اليأس في الحالة الرهينة المجتواة التي ألت بنفسي، وكانت الأسئلة تتثال على وتتكاثر حولي، وتطالبني بالإجابة عليها، ومثلها تتجه الضغوط كلها إلى ناحية واحدة كذلك كانت الأسئلة غير المجابوب عليها تتزاحم وتتدافع متجهة جميعها إلى نقطة سوداء، وبقيت مسمراً في تلك النقطة وقد استولى على الخوف، واستقل مشاعري الاحساس بالضعف، وكنت أناهز الخمسين من عمري لما ساقنتني هذه الأسئلة إلى هذا الموقف الضنك غير المنتظر، وانتهيت إلى هذه النتيجة وهي أنني - وأنا رجل سعيد موفور الصحة - لا أملك البقاء ولا أقوى على العيش، وقد كنت من الناحية البدنية أستطيع أن أشتغل في حصاد الدريس كما يستطيع أي مزارع، وكنت من الوجهة العقلية أستطيع ممارسة الأعمال الفكرية أكثر اليوم دون أن يعتريني كلال أو رض، ولكنني برغم ذلك كله انتهيت إلى هذه النتيجة، وهي أنني لا أطيق البقاء، ولم أر أمامي إلا شيئاً واحداً وهو الموت، وكنت أرى كل شيء آخر ما خلاه باطلاً ومحالاً زائلاً».

وأمثال هذه المواقف التي ترصد فيها آفاق الفكر ويحلوك ليل النفس وتهون عليك الحياة وتفرغ إلى فكرة الموت معروفة في حياة الكثيرين من العظماء وأعلى البشرية، وكأنها جسر قائم بين حياتين، حياة سابقة وحياة لاحقة، وسرعان ما عبر تولستوى هذا الجسر ونجا من أخطاره وأهواله، قال في اعترافاته وقد ظهر له أن المسائل التي أثارت هواجسه وهيجت بلبله قد أجابت عليها الإنسانية إجابة شافية مقنعة من آلاف السنين. «منذ بدأ الناس يعيشون، عرفوا معنى الحياة وحملوا الحياة حتى انتهت إلى، وكل ما في نفسي وكل ما حولي من أشياء منظورة وأشياء غير منظورة هو ثمرة تجاربهم، وحتى انتهت إلى، وكل ما في نفسي وكل ما حولي من أشياء منظورة وأشياء غير منظورة هو ثمرة تجاربهم، وحتى الوسائل التي أحكم بها على الأشياء ورثتها عنهم، وقد ولدت وربيت وترعرعت بفضلهم، وقد حفروا الأرض ونقبوا على الحديد وراضوا الجمال والخيال، وعلمونا كيف نفلح الأرض وكيف نعيش جماعة وننظم الحياة، وقد علموني كيف أفكر وأعلل، فأنا ثمرة غرسهم، ولم أحصل على قوتي إلا بقلقارهم، ومع ذلك حاولت أخيراً أن أستعين بما أخذته عنهم من المنطق والدراية لأقيم لهم الدليل على سخافتهم وجهلهم، ومن الواضح أنني أسخف وأنقص ما لم أحسن فهمه».

وأخذ يفكر بعد ذلك في معنى «الله» الذي قضى حياته باحثاً عنه. ففي صباح يوم من أيام الربيع، انطلق إلى الغابة ليتعلمي من جمال الطبيعة، ويسمع الطليار الصادحة على زواهر

الأغصان، وليفكر فى المسائل التى شغلت خواطره واستأثرت بنفسه فى الأعوام الثلاثة الأخيرة وخاصة مسألة «الله» فأشرفت عليه فكرة أن مسألة الله ليست مسألة من المسائل التى يقضى فيها العقل، وأحس بأن الله هو الحياة، وأن نحيا هو أن نعرف الله.

من ذلك الوقت، لم يتطرق إلى نفسه الشك بالله، وذهب بعد ذلك إلى الكنيسة، ولكنه لم يطمئن لتعاليمها ولم تعجبه مسيحيتها، فأراد شراع خواطره إلى الرياح وطافت سفينة ببحار هدارة، ومرت بجوانز عجيبة، ورأى من أعاجيب المذاهب الفلسفية وغرائب النحل والعقائد ما هو أبعد على الدهشة وأغرى بإثارة الظنون من البحار السبعة التى اجتازها «بلوقيا» على قدميه، والأموال المفزعة التى خاض غمارها «جانشاه» فى قصة ألف ليلة، وبعد أن طوف ما طوف رست سفينته فى مرفأ المسيحية الخالصة المنقاة من شوائب الكنيسة، والخيالة من الحشو والزوائد، مسيحية تولستوى التى فصل الكلام عنها فى كتبه الأخيرة، ولكن أنظن الرجل بعد أن عاد من هذه الرحلة الشاقة الطويلة هدأت نفسه وقرت ثورته واستمرأ الراحة والصفو؛ كلا! وأنى لمفكر كبير من طراز تولستوى أن يستريح فى هذه الحياة التى كتب علينا فيها الجهاد والتعب، فهو أن أجتنى مرة ثمرة الفوز نخصتها عليه فكرة أن هناك مجاهل لم تعرف، ومشكلات عدة لم تحل عقدها، فكيف الراحة والطمأنينة ونحن نسعى فى مناكب المجهول والكمال البعيد أمامنا؟ والراحة فى هذه الحياة سراب لما يغص الإنسانية بريقها، وفجر كاذب يخدعها بضوئه ويقذف بها فى أقاليم أشد ظلاماً، وليست الراحة غرض الحياة؛ وإنما غايتها نشدان الكمال الأدبى والفكرى، وقد نستريح إذا بلغنا الكمال، الأدبى والفكرى، وقد نستريح إذا بلغنا الكمال، ولكن أين منا الكمال ونحن أفراد زائلون تلقاء عالم سرمدى؟

كذلك كانت حال تولستوى من بعد عودته من سياحته الفكرية فقد أخذ يندلع فى نفسه لهيب ثورة داخلية لم تنطفئ نيرانها وتهدأ ثائرتها إلا بموته، وبواعت هذه الثورة العنيفة والمأساة المنيبة للقلوب هى عجزه عن تنفيذ ما كن يبشر به، وتقصيره فى أن يعيش طبقاً لتعاليمه وبقينه الجديد. وكان شعوره بهذا التناقض بين أفكاره وأسلوب حياته هو الطير الجارح الذى لا ينفك ينقر وجه هذا «البرومثيوس» المقيد بالأغلال والسلاسل، ولم يستتر مرة عنه الشعور بهذا التناقض الرهيب بل كان على الدوام ماثلاً لناظره كما يتبع القاتل شبح القتل، ولم يذهب وقره عن ضميره الفاحص المتهم وعينه الدخيلة الواعية، وكان يقض مضجعه فى هدأة الليل، ويجثم على نفسه فى أطراف النهار، وغير تولستوى قد يقنع بالتبشير بما يعتقد حَقاً دون أن تطابق حياته تعاليمه، وقد يكون من الصعب أن ننصور الام هذا الضمير الحى وكمد هذه النفس اليقظة، وقد كان تولستوى يعيش عيشة زهادة وخشونة

لا من دافع طبيعى- فقد كان بطبيعته أبيقورى الفرائز شهوانى المزاج - ولكن بمجهود غير قليل من إرادته الصارمة، وكان يخفض جناح الرحمة لمن حوله ويسقيهم من أخلاقه الشريفة العذب النмир، ولكن ضميره لم يقنع بهذا ولم يرتض الوقوف عند هذا الحد لأنه كان يطالبه ويلج عليه فى أن يعيش عيشة طاهرة إلى أقصى حدودها وأبعد نهاياتها، وكان يعرف إلى أى حد قد عجز عن تحقيق مثله الأعلى، وطالما لفتحه هذه المعرفة بشواظ من النار وجرت على مثل شوك القتاد، وكانت فكرة ثروته الضخمة المتراكمة فى المصارف وضياعة الواسعة التى تفل عليه الأموال الطائلة وهو الذى يحبذ الفقر، ويدعو إلى المساواة، ويرفع قسطاس العدالة، تتبعه فى كل مكان، وتطارده فى كل لحظة، وتذكره بنصيحة السيد المسيح لأحد تلامذته بأنه إذا أراد أن يتبعه وينتظم فى سلك تلامذته فعليه أولاً أن يبدأ بتوزيع أمواله بين الفقراء. أما تولستوى المكروب الحزين، فكان يمشى وراء المسيح مثقلاً بحمول الثروة ويأمر غيره دون أن يبدأ بنفسه ويقف أمام الإنسانية والتاريخ هذا الموقف المتناقض الغريب، وما أشد وقع ذلك على نفس تولستوى النبيلة الحساسة!

وقد نتساءل هنا هل كان تولستوى حقيقة حريصاً على الدنيا متهاكاً على المال يبشر بما يراه حقاً مع الاحتفاظ بثروته، ويقول مع صاحبه الفيلسوف شوينهاور: «إن الذى يرسم الصورة الجميلة لا يشترط أن يكون هو أيضاً جميلاً». ويسلك مسلك المتنبي الشاعر فى امتداح الجود والكرم مع شدة الحرص والبخل! والجواب عن هذا التساؤل أن الرجل لم يكن شيئاً من ذلك، وكان مخلصاً فى دعوته إخلاصاً لا تشويه شائبة، ولم يمنعه من أن يبدأ بنفسه فى اتباع تعاليمه سوى زوجته وباقى أفراد أسرته، وكانت أسرته قانعة بأن ترى اسمه قد طبق الأرض، وأن تشاهد الوفود تحج إليه من أقاصى البلاد، ولكنها لا تود أن تفقد ثروتها وضياعها حتى لا يقع التناقض بين مذهبه وحياته، ولم يستطع تولستوى أن يكسر أغلاله العائلية وعاش أسيراً لسلطتها وكانت أشد أفراد الأسرة قسوة عليه ومقاومة لتنفيذ تعاليمه زوجته، ولست أحب أن ألوم تولستوى وأعنفه لهذا الضعف والتخاذل فكفاه ما لاقاه من وخز الضمير والألم المبرح، وقد حاول فى آخر سنى حياته أن يهرب من أسرته، ولكنه لم ينفذ الفكرة، وكتب إلى صديق له ما ينم على السبب الحقيقى لذلك قال: «لقد تركت فكرة الفرار لأنه خطر بفكرى أن صوفيا أندريفنا (زوجته) لا بد أن تكرهنى بعد ذلك ويصير كل شيء أسوأ مما كان وهنا نقف أمام عاطفة إنسانية سامية من العواطف التى يندسها الإسهاب فى وصفها ويغض من جلالها، على أنه فر من منزله بعد ذلك لحادثة نضرب عن ذكرها، وأراد أن يلقى الموت منفرداً مع خالقه، ولكن لم تتحقق أمنيته إذ لحقته أسرته حيث كان يسلم الروح فى غرفة حقيرة بإحدى محطات السكة الحديد ويستعد ليتبوأ مكانه فى ملكوت الخالدين.

وسأعرض على القارئ طائفة صغيرة من أحاديثه، وهى على قلتها صحيحة الإسناد، وقد تكون فحواى المحادثات أدل على الرجال وأهدى إلى نفوسهم من محتويات الأسفار.

كان تولستوى يحب من المؤلفين الروس الشاعر بوشكن ولرمنتوف وجوجل وشيكوف ودستوفسكى، قال عن الأخير «عندما نختبره عن قرب نرى أنه يكتب بأسلوب ردى ما يقوله لنا» وقال عن ترجيف الروائى الروسى الكبير: «أنا مولع بشخصه ولوعا ولكنى لا أضعه فى مكانة عالية بين الكتاب». وكان قليل الاكتراث بالكتاب المعاصرين له عدا أناتول فرانس. وفى وقت ذبوع شهرة ميتزلنك، كان تولستوى صريحاً فى نقده والأقلال من قيمته، وذلك برغم إعجاب ميتزلنك الشديد به، وقد قال له مرة أحد أصدقائه: «لقد امتدحك ميتزلنك». وقال فى مقدمة مؤلفاته التمثيلية: «إن رواية «قوة الظلام» هى أعظم دراما فى الدنيا». فضحك تولستوى مستهزئاً وقال له: «إذا كانت كذلك فلماذا لم يقلدها ويضرب على غرارها؟» وسأله مرة أحد الناس: «هل قرأت رواية مونافانا؟ - من روايات ميتزلنك - فأجابه: «ولم أترؤوها؟ هل اقترفت إثماً؟».

وكان يعقت الاتجار بالأدب أشد المقت، ويغتنى غضبه إذا ذكر ذلك بحضرته، قال مرة: «ينبغي للإنسان ألا يكتب إلا إذا ترك بضعة من لحمه فى الدواة كلما غمس فيها القلم».

وقال عن «المرأة»: «النساء على العموم شريرات إلى حد أن الفرق ضئيل بين المرأة الصالحة والمرأة السوء».

وجذب مرة صديقه جولد نوايرز من ذراعيه وهو يودعه - وهو الذى أروى عنه هذه الأحاديث - وقال له هذه النصيحة الغالية: «إنى أريد أن أقول لك إنه مهما عظمت مواهبك الموسيقية ومهما كان الوقت أو الجهد الذى ضحيت به لهذا الفن فلتذكر أن أهم شيء هو أن تكون رجلاً، ومن اللازم أن تجعل دائماً نصب عينيك أن الفن ليس كل شيء، وفى علاقتك بالغير أبذل جهدك فى أن تقدم لهم أكثر مما فى طوقك وأن تأخذ منهم أقل ما يمكن أخذه، وأرجوك المعذرة لهذا القول».

وقال له مرة: «إن الأنا شيء زمانى يحد جوهرنا الخالد، وأرى أن الاعتقاد بخلود النفس يدل على نقص فى الفهم».

وفى بعض الأوقات، كانت تغلب عليه السويداء والحنن فيبأس من الدنيا وصلاحتها. قال مرة وقد اعترته هذه الحالات: «إن خطأ الثائرين الرئيسى هو اعتقادهم أننا نستطيع أن نسيطر على الحياة الإنسانية ونخصعها للنظام».

وقال مرة أخرى: «تمر بى أوقات يغمى نفسى فيها اليأس من كل ما يحدث فى الدنيا، وأعجب كيف أستطاع الناس أن يحتملوا الحياة مع توالى تلك الكباثر والفظائع، وطالما هزنى

وحيرنى تقويمنا الإنسان بأضال القيم حتى لو اعتبرناه مجرد حيوان نافع، والحصان الذى يجر العربى يساوى قيمة معينة فى نظرنا ونحن ندفعها عن طيبة خاطر، ولكن الإنسان يستطيع مثلاً أن يصنع أحذية وأن يعمل فى أحد المصانع ويعزف على البيان، ولكن مع ذلك كله فإن خمسين فى المائة من البشر يقضون نحبهم دون أن يكون هناك ما يستدعى ذلك، وأتذكر أنى عندما كنت أرى الدواجن كنت أغضب وأتهم الخدم بالتقصير إذا بلغت نسبة الوفيات خمسة فى المائة، ولكن خمسين فى المائة من البشر تزهد أرواحهم بدون مبرر ولا ضرورة». والمرأة فى رأيه «تعرض قانون التقدم وتعزل سيره، وهى تقاوم الرجل وتعارضه معارضة شديدة إذا حاول أن ينتقل من بين أطلال حياته السابقة وانقاضها المحطمة إلى حياة جديدة أتم وأحفل منها، وفى المرأة اثره محزنة ترتكب أكبر الفظائع باسم الحب». وقال مرة لأحد أصدقائه: «إن أسعد أيام حياتى هو اليوم الذى أعلم فيه أننى فقدت ثروتى وكل ما تملك يدي».

ولم يكن مسيح تولستوى هو إله الشدة والعنف، وإنما كان إله الحب والعطف، مسيح عظة الجبل، ولقد حدث مرة أن شقيقته ماريا نيكوليفنا عارضت فكرة أن رحمة الله تتسع للخير والشرير، وبعد أن أصفى إليها تولستوى طويلاً فى صبر وأناة قال لها فى لطف ورقة: «استمعى الآن فى دورك، أن الفرق بين حياة أتقى الناس وأصلحهم وحياة أشدهم انغماساً فى الشر والخطيئة فرق طفيف جداً بالنسبة لكمال الله، وكيف أسلم بأن الله وهو ليس سوى الحب يمكن أن يكون منتقماً جباراً وينزل الناس صارم العقاب وشديد العذاب!». فاجابته: «ولكن افرض أن بعض الناس عاش طوال حياته فى الخطيئة ومات بدون ندم؟». فقال لها تولستوى: «أى الرجال يريد أن يكون شريراً لا أمل فى إصلاحه؟ إن الرجل الذى نحكم عليه بأنه شرير شقى منكود الحظ ينبغى أن نحب ونرثى لآلامه، وليس هناك أحد يود أن يكون شريراً، فالشرير إنما يرثى له لأنه يبصر الحق».

وكان «إله الحب» هذا يغمر قلب تولستوى بشعور قوى نحو الطبيعة ويوحى له بكلمات من أسطح حكمه وأبهر آياته، قال فى بعض أقواله الميثوث فيها شيء من هذا الشعور: «كل ما فى الوجود نابض بالحياة، وما نراه ميتاً يظهر لنا كذلك لأنه أما أنه يكون جد كبير على الفهم أو جد صغير عليه ونحن لا نرى الميكروبات والجراثيم فنحسبها غير حية، وكذلك الكواكب تتراعى لنا مسلوبة الحياة لنفس السبب الذى نبدو فيه نحن للنمال غير أحياء، ولا نزاع فى أن الأرض خائفة بالحياة، وأن الحجز الملتقى على الثرى هو بمثابة الظفر من الأصبع، والمالبون يجعلون المادة أساس الحياة، وكل النظريات عن أصل الأنواع والذرات ومادة الحياة لها قيمتها إلى الحد الذى تمكننا به من فهم القوانين المسيطرة على الطبيعة، والكشف عن كنهها، ولكن علينا

ألا ننسى أنها مجرد فروض وليست أكثر من ذلك، والفلكيون يفرضون أن الأرض ثابتة لكي يتم حسابهم ويتسق تفكيرهم، وكذلك الماديون يبدأون من مقدمة غير صحيحة، ولكنهم لا يعترفون بذلك ولا يعاودون محاولة حل مشكلاتهم على أساس صادق صحيح، ومذهبهم في الحقيقة أشد المذاهب أمعانا في الغرابة، وذلك لأنه يفرض مادة عجيبية الشأن تخلق كل شيء من ذاتها وهي أساس كل شيء ومرجعه وأصله، فهي كالثالوث شيء لا يتيسر لنا أن نبصره».

وكان في نية تولستوى أن يتبسط في شرح هذه الفكرة وتفصيل ما أجمله منها في حديثه بكتاب خاص فأعجله عن ذلك الموت الذي يلهو بال مخلوقات ويعصف بالاحياء، فذهب وفي نفسه منها شيء.

أدب ترجنيف

الأدب الروسى على حداثة عهده من أرقى الآداب العالمية، وأصدقها تعبيراً، وأوفرها إخلاصاً، وأبعدها غوراً، وأصحها تصويراً للحواليج المختلفة والإحساسات المتغايرة، وأقواها كشفاً عن خفايا النفس وغوامض الوعى، ولم تخرج روسيا شعراء من طراز شكسبير، ولا فلاسفة من طبقة كانت وهجلاً أو هُبزاً ولوك، وإنما أخرجت طائفة من عظماء الروائيين مثلوا عبقريتها أحسن تمثيل، وعبروا عن تفكيرها وإحساسها فى بدائعهم الفنية وآياتهم الخالدة.

ونهبضة الأدب الروسى من أعظم حوادث القرن التاسع عشر، وإحدى أعاجيب التاريخ، ومنذ مائتى سنة لم يكن للأدب الروسى شأن يذكر، وقد أثرت إصلاحات القيصر العظيم بطرس الأكبر فى شتى نواحي الحياة الروسية، ولكن روسيا ظلت من الناحية الثقافية تلميذة مجتهدة ومقلدة بارعة، ولم تضيف شيئاً إلى الأدب العالمى حتى أوائل القرن التاسع عشر، وقد كان الشاعر بشكن «١٧٩٩ - ١٨٢٧»، وهو الذى وضع أساس الأدب الروسى القومى، وظهر فى آثاره لرمنتوف، وهو أقرب شعراء روسيا مزاجاً إلى بيرون، وقد أسخل فى الأدب الروسى عنصر التمرد والثورة، وجوجل ذو النفس القلقة المهتاجة، والروح اللتاعة المعنبة والجاد فى سخره والسخر فى جده، ولقد أوجد الواقعية الروسية التى نهضت بالنثر الروسى، وقد بدأت النهضة بتفوق الشعر مثل سائر النهضات الأدبية، ثم نهض النثر وتخلف الشعر، وقد بلغت هذه النهضة الأدبية الماثورة ذروتها فى واقعية ترجنيف ودستوفسكى وتولستوى، وهؤلاء الثلاثة هم أكبر ممثلى الأدب الروسى، ومن أعظم الشخصيات البارزة فى الأدب العالمى قاطبة، وجاء فى آثارهم تشيكوف وجوركى وأندريف وأضرابهم من الكتاب المحدثين.

وقد ولد ترجنيف عام ١٨١٨ فى أورل بروسيا الوسطى من أسرة معروفة، ويعزو بعض النقاد قدرته على وصف الطبايع الجبارة والنفوس الطاغية برغم ما عرف عنه من ليونة الطبع وسلاسة الأخلاق إلى وراثته حالتهم العقلية من ناحية والدته، فقد اشتهرت بالقسوة والصرامة، وكانت لا تحتمل سماع فكرة مناقضة لفكرتها، ولا تطبيق أن ترى إرادة واقفة فى سبيل إرادتها، وقد أثرت شدتها وعسفها أيما تأثير فى نفس ترجنيف الرقيقة الحساسة، ونبتت فيه مقت الظلم والجور، وحب الانتصار للمقهورين فى حومة الحياة.

أما أجداده من ناحية أبيه، فكانوا يكرهون العبودية، ويحبون النزعات الإنسانية النبيلة. وقد درس ترجنيف فى جامعته موسكو وبتروغراد، وسافر بعد ذلك مع والدته فى رحلة إلى ألمانيا حيث عى من معين الأدب الألمانى، واستقى من حياض جيتى وشلر وهينى، وخاض مع جماعة المستنيرين بها غمار مناقشات ومجلات عن الفن والسياسة والحياة وما وراء الطبيعة، وزار بعد ذلك الراين وسويسرة، وأقيل عيد عودته من تلك الرحلة على الاشتغال بالأدب، وتردد فى بادئ الأمر بين الشعر والنثر، ووفق فى الشعر وكتب روايات تمثيلية أظهر فيها براعة وطرافة. ثم شرع بعد ذلك فى كتابة «صور صياد» وقد ظهرت كاملة عام ١٨٥٢، وكانت فتحاً جديداً فى الأدب الروسى، وهى تدور حول وصف حياة الفلاح الروسى وما يلم بنفسه من التأثيرات وما يعتورها من الحوادث والآلام، وقد سجل فيه ترجنيف تسجيلاً فنياً دقيق ملاحظاته وما عن له من الخواطر والاحاسيس، وقد كتبها بأسلوب شف ناصع لا أثر فيه للدعوة ولا التبشير أو محاولة استدرار العطف أو إثارة السخط، وتجلت فيها قدرته الفائقة على وصف الطبيعة وصفاً حافلاً بالسمات الحائقة الرشيقة وبيان الناحية الشعرية والجانب المشرق الأخاذ فى الريف الروسى، وقد كشف ذلك الكتاب عن تفوقه فى تصوير الشخصيات وطريقة سرد الحوادث، وديستوفسكى يكثر فى رواياته من التحليل ويسهب فيه إسهاباً، ويصف أشخاصه من الداخل، وتولستوى تتعادل فيه القوتان: قوة التحليل، والوصف الداخلى والقدرة على توضيح المظهر الخارجى ورسم السمات البارزة والخصائص البادية. أما ترجنيف، فمجال براعته الوصف الخارجى الدقيق وهو يكتفى به ولا يسرف فى التحليل، والذى يميز ترجنيف عن أضرابه من الروائيين الروسين هو براعته فى البناء الروائى، وضبط النسب والتقاسم، وتوزيع الظلال والأضواء، ووضوح الحبكة الروائية، وقد لقى كتاب «صور صياد» نجاحاً عظيماً وإقبالاً مشجعاً، وكان من أسباب إلغاء العبودية فى روسيا، وقد شجعه توفيقه فى ذلك الكتاب على المضى فى وضع الروايات والقصص والمسرحيات، وجميعها الآن من ذخائر الأدب الأوروبى وكتوز الأدب الروسى.

وقد كانت أولى رواياته المشهورة «رويين» التى ظهرت عام ١٨٥٥، وهى تصف شخصية رجل غير منسجم مع بيئته، له أفكار لامعة، ونظريات رائعة، ومشروعات باهرة، يتحدث عنها ببلاغة ساحرة ومنطق شائق، ولكننا سرعان ما نتبين أن هذا المحدث المقوه البارع والمفكر المستنير تتبدد أحلامه وتتحلل عزيمته كلما واجه الواقع، ويصف لنا ترجنيف جوانب نفسه المتناقضة جانباً فجانباً، ويرينا نواحيه المضيئة ونواحيه المظلمة حتى تكتمل فى خواطرننا شخصيته، وتستقر فى نفوسنا صورة رجل متناقض الميول، موزع النفس، مفلول العزم، مثالى النزعة، ولكنه عاجز عن العمل، خائر العزيمة، كثير التردد، وهو يملك قلوب النساء بلوامع

حديثه وزواهر أحلامه، وحماسته الحارة المتدفقة، ولكنه يتخلى عنهن فى اللحظة الفاصلة، والموقف الحاسم، ويقال أن روبين صورة مشوهة بعض التشويه للزعيم الفوضوى الشهير بلكونين.

وقد تلتها رواية ليزا أو «عش الظرفاء» وهى تحفة فنية نادرة، بديعة الصنعة، جميلة البناء، سلسلة السرد، تدور حول شخصية لافرتسكى أحد الملوك الروسين المثقفين، وهو يعيش مع زوجته الساذجة اللاهية فى الخارج، ثم يعود لروسيا وتنشأ علاقة حب بينه وبين ليزا تلك الشخصية الوديعه الجذابة الوردية المخلصة، ويبدع ترجنيف فى وصف نشوء هذا الحب الساجى العميق، وتأتى الاخبار من الخارج إلى لافرتسكى بأن زوجته قد توفيت فى حادثة تصادم، ويستعد الاثنان للزواج، ولكن زوجة لافرتسكى تظهر فجأة، ويتضح أن خبر وفاتها لم يكن سوى إشاعة كاذبة، فيستسلم المحبان للقضاء، ويرى لافرتسكى بعد سنوات ليزا فى الدير، ولكنه لا يتحدث إليها، ويصف لنا ترجنيف أثر هذا اللقاء فى نفس لافرتسكى ويرتفع فنه فى هذا الوصف إلى أسى طبقاته، والفصل الأخير فى هذه الرواية الذى يتضمن وصف هذا اللقاء من أشجى وأروع ما كتب فى الآداب العالمية.

وتبعتها رواية «آباء وأبناء» وهى تصف جيلين مختلفين من أجيال روسيا، جيل عام ١٨٤٠، وجيل عام ١٨٦٠، ويمثل هذا الجيل الأخير شخصية بازاروف، ويرينا ترجنيف فى هذه الرواية تصادم عالميين من الآراء والميول والاتجاهات، وبازاروف فوضوى متطرف لا يعترف بالتقاليد والنظم والقيم السائدة، ويبدو لنا أنه يريد الهدم والتحطيم وألا يبقى على شىء، ولكننا نلمح وراء صراحتة الخشنة الجافة وكليتيه العابثة الساخرة إثر العاطفة المكظومة، كما نتبين وراود توقحه واستطالاته واستعلائه شدة شعوره بالنقص والعجز، وهى تعد خير رواياته من الناحية الفنية الخالصة لامتزاج الفكرة بالصورة فيها امتزاجاً بديعاً لا تشويه أیه شائبة.

ولترجنيف مجموعة من الأقاصيص يجمع كبار النقد على أنها من روائع الأدب الغربى مثل «شاييب الربيع» و«لير السهوب» و«الحب الأول» وما إليها من أقاصيصه الحافلة بالجمال والشعر والإبداع الفنى، وقراعتها فى اعتقادى متعة من أجمل المتع التى تتاح لنا فى هذه الحياة الأرضية الزائلة.

ولترجنيف مقدرة خاصة قليلة النظير فى وصف عاطفة الحب وتحليها، وهو يكشف عن دخائل أشخاص رواياته ويستجلى نفسياتهم فى ضوء تلك العاطفة، وقد كان يعلم ببدايته الصادقة وشاعريته الهامرة الملهمة أن تلك العاطفة الإنسانية العظيمة هى مفتاح النفوس ومحك الطبائع.

ولكل كاتب كبير وشاعر من الطراز الأول فلسفة خاصة تتخلل كتيبه وتطالعك من وراء آثاره المتنوعة وآرائه المختلفة، وهى كالتيار الرئيسى فى محيط أفكاره تجمع بدائنها وتؤلف بين متدبرها، وبعض آثار الكتاب أتم على فلسفة حياتهم من غيرها، فكتاب فلسفة الملابس أدل على فلسفة كارلايل ونظرتة إلى الحياة من سائر كتيبه، وكذلك ترجنيف تتجلى فلسفته فى أوضح مظاهرها خلال أشعاره المثورة التى بدا لى أن أقدم القارئ مختارات منها.

ولا يمكن أن يغيب عن قارئ روايات ترجنيف وأقصوصاته ذلك الأسى المكبوت والحرز الصامت الذى يسرى فى تضاعيفها، وقد كان الشعور بالملل من الحياة وتقاهة مساعيها يقوى ويشد فى نفس ترجنيف كلما تقدمت به السن وكثرت تجاربه وخابت آماله فى الإنسانية، وربما كان من بواعث تفاقم هذا الشعور الأليم ذلك الحب اليأس الذى ملك نفسه وأخذ بأكظامه ولم يستطع الخلاص من أغلاله طوال حياته، وهو حبه لدام فياروده المغنية الفرنسية التى لم تستطع أن تبادله حباً بحب واكتفت بأن تلحقه فى عداد أصدقائها والمعجيين بها.

ولا نستطيع أن نسمى فلسفة ترجنيف رفضاً كاملاً للحياة أو تشاؤماً محضاً، ففى رواياته صفحات تتفجر خلالها ينباع الحب والعطف، وتتبض بحب الإنسانية والإيمان بالخير، وقد كان يكر صفاء نفسه ويؤلم روحه العنبة ما يواجهه من سخافة الناس وغباوتهم وحمقهم وقذارة نفوسهم وإسفافها وخسة طباعهم وانتكاسها فيغمر الحزن نفسه ويكظها الألم، وقد كتب آيتة الفنية البديعة المسماة «كفى» عقب عاصفة السخط التى قوبلت بها روايته الخالدة «آباء وأبناء»، وفيها وضع ترجنيف أساس تشاؤمه، وهو تقاهة قيمة الانسان إزاء الطبيعة الصماء الباطشة الرهيبة التى تدمر كل شىء وتطحن طحناً وتلتهمه فى جوفها الرغبة، وهى تخلق وتهدم وتحطم ولا تبالى ما تصنع، والإنسان أمامها مسلوب الحول قليل الحيلة.

ولكن هذه الموجات من التشاؤم الطاغى والأسى الغالب كان يلطف من حداثها فى بعض الأوقات إشراق الأمل وحرارة اليقين، وفى روايات ترجنيف صفحات حافلات يتحدث فيها عن جمال الأخلاق وسمو النفس وروح التضحية التى تبدو فى المحاولات البشرية العظمية وميدان تصادم الإرادات وصراع العزائم.

والسر فى هذا التناقض أن ترجنيف كان فيه جانبان هامان يتنازعان ويتصارعان ويتبادلان الغلبة على نفسه، وهما جانب هملت وجانب دون كيشوت، أو جانب الشك واليأس من الإنسانية والمثل الأعلى، وجانب اليقين القوى والأمل المتين والإيمان بالكمال، وكان ترجنيف يعلم ذلك من نفسه، ولعل ذلك هو الذى بعثه على كتابة رسالته البديعة التى لا توجد بها سوى عبقريته كعبقريته عن «هاملت ودون كيشوت». وفى اعتقادى أن جانب هاملت كان أقوى فى نفس ترجنيف من جانب دون كيشوف، وكان ترجنيف نفسه يؤثر جانب دون

كيشوف ويكبره ويرجحه على هاملت، وطراز دون كيشوف فى رأيه يعيش الغير ويعمل لخير الإنسانية ويجهد لتحقيق مطالبها السامية، ويحاول أن يستأصل الشر. أما طراز هاملت، فهو يمثل عنده الشك والتردد والتحليل والأثرة وكثرة الاشتغال بالنفس والعكوف عليها وجعلها قبالة الناظر ليلاً ونهاراً، وكان يقين دون كيشوت أحب إلى قلبه من سخرية هاملت.

وقبل أن أختتم هذا الحديث عن ترجميف أشير إلى ناحية من خلاله الكريمة جديدة بأن ينوه بها، فقد اجتمعت آراء أصحابه ونقاده على ما كان يتجمل به من نبالة الأخلاق ومحمود الشيم والترفع عن الأثرة الضيقة ومن دلائل ذلك تشجيعه الدائم لأنداده ومنافسيه من كبار الكتاب وإطراؤهم والتحدث بفضلهم، وكثيراً ما كان ينكر نفسه ويتناساها فى هذا التشجيع الكريم، ولم يقتصر تشجيعه على كبار الكتاب بل كان يعمل على إبراز محاسن المؤلفين المغمورين ويحاول استخراج نفائسهم والغوص على درهم، وكان يمقت عمل النقاد الذين يحشون قواتهم ويأخذون أهبتهم لهدم كل مؤلف جديد والتعفية على محاسنه وإظهار نقائصه وأماكن الضعف فيه، وطريقه ترجميف جديدة برجل مثله باحث عن الحق والجمال والخير، وهى أحكم وأدق من غيرها لأن كل كاتب مهما صغرت قدرته له مزية خاصة وصفة فردية ليست لغيره، والوقوف عليها يستدعى بصراً وبقية فى النقد، ويزيدنا علماً بالنفوس وحالاتها، فهى أمس بالنقد الصحيح إذ ليس الغرض الأصيل من النقد هو تقصى العيوب، والكشف عن المساوئ، وإنما غاية الوزن الصحيح والتقدير الصابق.

وأشعاره المنتورة التى يسرنى أن أقدم هذه النماذج منها قليلة النظير فى الآداب العالمية، ولا يكاد يفوقها شئ فى سلاسة الأسلوب وبراءة الأداء وجماله وروعته، وتتجلى فيها قدرة ترجميف الفنية على مزج الفكرة بالصورة، وهى تكشف عن شاعريته الفياضة، وإنسانيته العميقة، ونظراته النافذة وفلسفته الشاملة المستوعبة، وحكمته الناضجة، وسخريته الرقيقة، وشجوه بالحياة، وإحساسه بجلالها وخطورتها.

اللقاء الأخير

كنا قديماً صديقين حميمين متواصلين، ولكن جاءت ساعة نحس فافترقنا عدوين ومرات سنون عدة.. وقدمت بعدها بالمدينة التي يقيم بها فعلمت بأنه مريض لا يرجى وأنه يود رؤيتي. فسرت إليه، وبخلت حجرته، والتقت العينان، فلم أكد أعرفه، فيالله! ماذا فعل به المرض! كان حائل اللون قد تقصن وجهه، وتساقط شعر رأسه، وخط المشيب لحيته الخفيفة، واستوى جالساً وليس عليه سوى غلالة قد شققها عامداً لأنه كان لا يطبق أخف الثياب. ويسط إلى يده بهزة عنيفة فهالني نحفها، وتبتد لى كأنها مقروضة متأكلة، وبذل جهداً ليهمس ببيض كلمات غير جلية، من يدرى هل كانت كلمات لوم وعتاب أو عبارات استقبال وترحيب! كان صدره الهزيل يضطرب، وانبجست من عينيه الملتئمعتن دمعتان عصيتان من دموع الألم حتى غشيتا إنسان عينه المتضائل.

فجزعت وخانني العزم... وجلست على كرسي إلى جانبه، وأطرقت بعيني على الرغم منى أزاء هذا المنظر المرعب البشع، ومددت أنا كذلك يدي. لقد خيل إلى أنه ليست يده القابضة على يدي.

وقد تراعى لى أن امرأة طويلة القامة بيضاء جالسة بيننا، وأنها ملفوفة فى طيلسان من فرع إلى قدم، وأن عينيها الفائرتين الشاحبتين شاخصتان إلى الفراغ، وأن شفيتها المتقعنتين اللتين تنمان على الجفوة والصرامة لا ينبعث منهما صوت. هذه المرأة ضمت يدينا... وقد وفقت بيننا توفيقاً أبدياً. نعم... لقد أصلح ما بيننا الموت

الطبيعة

أريت فيما يرى النائم أنى جئت معبداً تحت الأرض ضخماً هائلاً له سقف مقبب سامق، كان غاصا بأضواء أرضية راتبة. وفى بهرة المعبد كانت تجلس امرأة فخمة رائعة عليها ثوب أخضر اللون فضفاض، وقد اعتمد رأسها على يدها، وبدأ أنها مستغرقة فى تفكير عميق. وأدركت فى التواللحظة أن هذه المرأة هى الطبيعة نفسها، وأصابتنى رعدة من فرط

الإجلال سرت إلى أعماق روحي.

ودنوت منهذه الصورة الجاثمة، وانحيت اكبارا، وخاطبتها قائلاً: «يا أمتا جميعا قيم تفكرين؟ هل تفكرين في مصائر الإنسانية؟ أو تفكرين كيف يظفر الإنسان بما في الإمكان من الكمال والسعادة؟»

فاتأرت إلى المرأة عينيها الرهيبتين في بطة وأناة، وتحركت شفاتها، وقرع سمعى صوت رنان له صليل الحديد يقول: «إنى أفكر كيف أمتح ساق البرغوث قوة أوفر ليكون أقدر على الفرار من أعدائه، والتوازن عنده بين الدفاع والهجوم مختل، ويجب أن يراعى ويحفظ». فتعشرت في الجواب وقلت: «ماذا! وما هذا الذى تفكرين فيه؟ أو لسنا نحن بنو الإنسان أولادك المقربين؟».

فزوت وجهها قليلاً وقالت: «جميع المخلوقات أبنائي، وعنايتى بالجميع واحدة، وأنا أبيدهم بأسرهم».

فلجلت قائلاً: «ولكن الحق... والعقل... والعدالة...».

فقال في صوتها المجلجل: «هذه كلمات بنى الإنسان، وأنا لا أعرف الحق ولا الباطل، وليس العقل ناموساً لى، وما هى العدالة؟».

«لقد وهبتك الحياة وسأستردها وأمنحها الغير بيداً كانوا أو آدميين... لا يعيننى ذلك... فانظر فى خلال ذلك لنفسك ولا تقف فى طريقى!».

وهمت بمراجعتها، ولكن الأرض اهتزت وأرسلت أنة مولولة.

فانتبعت من النوم.

لا نزال نجاهد

أى حادث تافه زهيد قد ينقل الإنسان فى بعض الأحيان من حال إلى حال! سرت مرة فى الطريق وقد اعتلجت فى نفسى الخواطر الحزينة، وكان قلبى قد كظته المخاوف السود، وغلبنى على أمرى الانتقباض ورفعت رأسى، فأبصرت الطريق ينبسط أمامى كالسهم بين صفين من أشجار الحور المتطاولة الفارعة.

وفى عبر الطريق على مدى خطوات قلائل منى وتحت أشعة شمس الصيف السائرة للأبصار، كانت تتواهب أسراب من العصافير متتابعة فى مرح ولهو وتقوم وفرط ثقة بالنفس! واسترعى نظرى بوجه خاص واحد منها كان يطفر على جانبي الطريق بعزيمة المستبش نافعاً صدره الضئيل مفرداً فى زهو وتصلف كئنه يريد أن يقول إنه لا يخشى أحداً! مجاهد صغير مستبسل مغامر!

وفى الوقت نفسه، كان باز يرنق بجناحيه فى أعنان السماء، كأنه قد قيض لابتلاع هذا المجاهد الباسل الصغير.

ففتظرت وتضاحكت وعرتنى هزة فتبدد عنى شمل الخواطر الحزينة، وشعرت بتجدد العزيمة والأقدام وتلهب الحماسة للحياة.

دع بازى يرنق بجناحيه فوقى، فاننا سنجاهد ولا نعبأ بشئ!

الشيخوخة

حانت أيام الظلام والوحشة، وتكاثرت الأسقام وآلام الأعزاء عليك وقشعريرة الشيخوخة واكتئابها، وكل ما أحببتة ووقفت حياتك عليه يتساقط ويتبدد، وطريقك كله فى أصباب.

ما الذى تستطيعه الآن؟ تحزن؟ تشكو وتتوجع؟

لا يجدى عليك ذلك ولا يسعدك ولا يفيد غيرك... إن أوراق الشجرة المقوسة المتصوخة أصغر حجماً وأقل عدداً، ولكن خضرتها لا تزال كما كانت.

فاعكف على نفسك وانشر مطوى ذكرياتك، وهنالك فى أقصى أغوار روحك وقد أدبرت الطرف فى أرجائها تعاودك حياتك القديمة الماضية التى لديك وحدك مفتاحها، وتستجد بهجتها ورواعها، وشدها الفراح، وحضرتها الرفافة، وريعان ربيعها، وطلاقتها وبشاشته ولكن هذار... لا تنظر إلى الإمام أيها الشيخ البائس.

خصمى

كان لى رفيق ما ينفك يناوئنى، ولم يكن مثار الخلاف بيننا المزاملة فى المهنة أو المنافسة فى الحب، وإنما كانت آراؤنا فى كل موضوع تختلف وتتعارض، وكنا كلما التقينا نشبت بيننا معركة جدلية وظلت معقودة الغبار.

كنا نختلف ونتجادل فى كل شئ، فى الفن والدين والعلم وموضع الحياة على الأرض والحياة وراء القبر، وبخاصة عن الحياة وراء القبر.

كان رفيقى من دوى اليقين والحماسة، وقد قال لى يوماً: «أنت تسخر بكل شئ». ولكن إذا حانت منيتى قبلك، فيأتيك من العالم الآخر وسنرى هل تضحك حينذاك.

ومات فى الواقع قبلى وهو فى نضارة الشباب، ولكن مرت سنون ونسيت وعده أو وعيده.

ففى ليلة من الليالى، كنت مستلقياً فى الفراش وقد نفر منى النوم، وكانت حجرتى بين الضوء والظلمة، فأخذت أطيل النظر إلى ضوء الفسق الخافت وخيل إلى فجأة أن خصمى

واقف بين النافذتين وأنه يهز رأسه في تودة ويبطء إلى أعلى وإلى أسفل وقد بدت عليه أمارات الحزن.

لم يخفني ذلك ولم يثر دهشتي... ونهضت بعض النهوض، واستندت على مرفقي وطفقت أحرق بهذا الطيف غير المنتظر... واستمر هو يهز رأسه.

قلت له أخيراً: «هل انتصرت وفزت أو أحتواك الأسف والتندم؟».

وما هذا؟ تحذير هو أو عتاب وملام؟ أتريد أن تفهمني أنك كنت على خطأ وأننا كنا كلانا مخطئاً؟ وما الذى تعانیه الآن من ضروب التجارب؟ أعذاب الجحيم أم نعيم الجنان؟ قل ولو لفظة واحدة...

ولكن خصمى لم يفه بشيء، واكتفى بأن هز رأسه بحزن وخشوع وصعده وصوبه. فابتسمت... واختفى.

قاعدة للحياة

قال لى مرة رجل هرم حول خبيث: «إذا أردت أن تخرج خصمك وتضيق عليه الخناق، بل إذا شئت أن تغلو فى ضرره، فارمه بنفس العيوب التى تشعر بوجودها فى نفسك، وتصنع الغضب وشدد عليه التكبر!».

فإذا بدأت بذلك ألقيت فى روع الناس أن هذه العيوب ليست فيك، وربما أخلصت فى غضبك فتفقد من ذلك... فقد تجدى عليك وخزات ضميرك.

فإذا كنت مثلاً مارقاً فى الدين فارم خصمك بأنه مزعزع العقيدة ضعيف الإيمان!

وإذا كنت عبداً ذليلاً فغير خصمك بأنه عبد رقيق... عبد الحضارة وأوروبا والاشتراكية! فقلت له: «يمكن أن أقول أنه عبد ضد العبودية».

فأجابنى ذلك الحول الخبيث: «لا بأس فى أن تفعل ذلك».

رجلان مثريان

عندما أسمع إطراء الرجل المتمول السرى روتشلد الذى وقف من دخله الضخم وثروته الطائلة الآلاف لتربية الأطفال، والعناية بالمرضى، والأخذ بيد الطاعنين فى السن أستحسن ذلك منه ويصيب من نفسى مواقع الرقة والتأثير.

ولكننى وأنا فى غمرة ذلك التأثير الحسن لا أتناسى أن أذكر مزارعاً فقيراً أوى إلى كوخه الصغير ابنة أخ له يتيمة.

قالت له امرأته: «إذا نحن أويينا كاتكا، فسننق عليها البقية الباقية من نقودنا، ونصبح لا

نملك ما يكفى لاستحضار ملح نائتم به الخبز».

فأجابها زوجها المزارع: «حسن... نستغنى عن الملح»!

إن روتشلد جد متخلف عن ذلك المزارع!

غداً غداً

ما أنفه الأيام وما أفرغها وما أفقرها من الخير يعد أن نقضيها! وما أقل الآثار التى تخلفها وراءها! وما أسخف وأحمق تلك الساعات التى تتوالى سراعاً الواحدة تخطف فى ذيل الأخرى!

ولكننا برغم ذلك نرتضى الوجود، ونغالى بقيمة الحياة، ونعلق الآمال عليها وعلى أنفسنا وعلى المستقبل... وأى فيض من البركات نرتجيه من المستقبل!

ولكن لماذا يخيّل للإنسان أن الأيام القادمة لن تكون مثل هذا اليوم الذى مر به؟

أنه لا يتصور ذلك، وهو يؤثر الإمساك عن التفكير، وهو يحسن بذلك صنعاً.

آه الغد الغد! يرفه الإنسان عن نفسه بذلك حتى يقذف به ذلك الغد إلى القبر، وفى القبر لا اختيار ولا تفكير.

العصفور

كنت عائداً من الصيد وسرت فى طريق بالحديقة تحف به الأشجار من جانبيه، وكان كلبى يعدو أمامى.

قصر الكلب بغتة خطواته، وأخذ يتسلل كأنه يقفوا أثراً.

فأرسلت النظر إلى امتداد الطريق، فلمحت عصفوراً صغيراً تعلو منقاره ورأسه صفرة، وكان قد هوى من العش «كانت الرياح تعصف بأشجار البتولا القائمة على جانبي الطريق عصفاً شديداً»، وأخذ يرفرف بجناحين لم يستكملا بعد نموها وقد عجز عن الحركة.

وبينما كان الكلب يتقدم منه فى ببطء، سقط فى التواء اللحظة عصفور هرك من شجرة قريبة وكان يرتجف هلعاً ويزقزقة المستيس المتوسل، وألقى بنفسه مرتين نحو فكي الكلب وأنبابه اللوامع!

لقد وثب من شاهق لينقذ فرخه، وكان ينتفض فرقاً، ولكنه ألقى بنفسه من مأمته برغم خوفه.

ولقد كان الكلب يبدو للعصفور وحشاً هائل الأنحاء، ولكنه مع ذلك لم يستطع البقاء فى الأعلى وانتقاء الخطر، وقد دفعت به قوة غلبة أقوى من إرادته توقف الكلب ولم يأت بحركة ثم

عاد أدراجة، لقد رأى هو كذلك شواهد تلك القدرة.

فأسرعت ودعوت الكلب الذاهل المتعجب، وعدت مفعم القلب بالإجلال.

نعم لا تسخر من ذلك، لقد شعرت باحترام لهذا العصفور البطل الصغير لما فيه من دوافع

الحب.

وأدركت أن الحب أقوى من الموت أو من الخوف من الموت. وبالحب تتماسك الحياة وتسير

في طريق التقدم

الكلب

كنا اثنين في الحجرة، كلبى وأنا.

وكانت عاصفة رهيبة تزمجر في الخارج.

أقعى الكلب أمامى، وأخذ يحدق فى وجهى...

وشرعت أنا كذلك أحدق فى وجهه.

هو يريد فيما يظهر أن يفضى إلى بشىء.

هو أعجم لا يفصح ولا يبين ولا يفهم نفسه— ولكنى أعرف ما يدور بنفسه.

فى تلك اللحظة كان ينبعث فى نفسه وفى نفسى الشعور بأن لا فرق بيننا، فنحن سواء.

فى كل منا تشتعل نفس الشرارة المرتجفة وتضى والموت يجتاح بجناحه العريض

الحاصب.

والنهاية!

من ذا الذى يستطيع أن يدرك كنه تلك الشرارة المشبوبة فى كليتنا؟ لا! اننا لم نكن إنساناً

وحيوناً يتبادلان النظر، لقد كانت عيون أكفاء تلك العيون التى تبادلت النظرات.

فى الإنسان والحيوان كانت نفس الحياة تتجمع وتتدانى من فرط الخوف.

والنبذة الآتية مختارة من أقصوصته المسماة «جولة فى الغابة» وهى صدى لصوته،

وصورة من نفسه وترديد لنغمة ألفها، وهى عجز الإنسان عن الوقوف إزاء الطبيعة المعترمة،

الطاغية الماحية، الدائمة الحركة بلا ونية ولا انقطاع، السائر أبداً إلى الأمام، مبتلعة كل شىء

غير مبقية على شىء، وكانت هذه النغمة متأصلة فى نفسه عريقة فى طبعه، وقد كان تأمله قوة

الطبيعة وهولها يغمر مشاعره الجميلة الرقيقة بسيل من الحزن والأسى، ويثير فى نفسه

بواعث العطف والحب للبشر شركائه فى الخطب، وإخوانه فى البلاء!

منظر غابة الصنوبر المترامية الأرجاء وقد حفت بالأفق من شتى نواحيه يذكرنا منظر

البحر المحيط، وهو يثير فى نفوسنا نفس الإحساسات التى تبعثها رؤية البحر المحيط، فهناك

تطالعنا نفس القوة الأزلية التي لم يمسه شيء في رحابتها وروائع جلالها، ومن جوف الغابة المتأدبة ومن صدر المحيط الذي لا تسكن نبضاته ينبعث نفس الصوت الذي تقول فيه الطبيعة للإنسان «ليس لى بك من علاقة، وها أنا ذا أحكم مبسوطه الظل عزيزة السلطان على حين تستنفذ جهودك وتغنى حيك لتفر من الموت». ولكن منظر الغابة أبعث على الكآبة، وأكثر إثارة للشجن، وأقل منه تنوعاً وتغير حالات، ولا سيما غابة الصنوبر، فهي دائمة التشابه، متماثلة الشكل، وتكاد تكون خرساء، والبحر المحيط يهدد ويتوعد، ويداعب ويلطف، ويرق ويقسو، ويتجمل بشتى الألوان، ويتكلم بكل لسان، وتنعكس في مرآته السماء، وتطالعنا منها أنفاس الأبدية، ولكنها أبدية يخيل إلينا أنها ليست عنا ببعيدة. وغابة الصنوبر الكابية المتغيرة العسية على التغيير تلتزم الصمت المتجهم أو تزخر بالدوى الأجش، وعند مشاهدتها يشعر الإنسان ابن اليوم ووليد الأمس أن يحتمل نظرة «إيزيس» الخالدة، تلك النظرة المقررة الجامدة التي ترمقه وترصده بغير ما عطف ولا حنان، في ذلك الموقف لا تتراجع الآمال الجريئة وحدها وتنكص على الأعقاب وتولى عنا أحلام الشباب مستذلة ذابلة كأنما صوحتها وطوت بهجتها أنفاس العناصر الباردة.. كلا.. وإنما تهوى روح الإنسان جميعها بقضها وقضيضها إلي الأغوار السحيقة، وتغشاها غاشية ويصيبها دوار، ويشعر الإنسان بعزلته وقلة حوله وخرج موقفه، فلا يقوى على الثبات، ويفر هرباً وقد ألوى به خوف خفي، ويلوذ بهجوم الحياة الضئيلة وأعمالها الصغيرة، وفي الدنيا التي خلقها يستشعر الراحة، وتثوب إليه الطمأنينة، ويستطيع أن يثق بقدرته ويصدق بقوته.

كذلك كانت الأفكار التي درات بخاطري منذ سنين مضت حينما كنت واقفاً على درج حانة صغيرة على ضفاف نهر رزتا الصغير المليء بالمناقع والأجام وشيعت رسل النظر إلى أنحاء الغابة...

جلست على جذع محتطب، وأسندت مرفقي على ركبتى، وبعد إطراق طويل رفعت رأسي وأبرت الطرف حولي، أه لقد كان كل شيء حولي ساكناً بادي الكآبة والحزن، بل لم يكن حزيناً فحسب وإنما كان فوق ذلك أخرس قاتراً ومنذراً معاً!

وجل القلب واشتد وجيبه، في تلك اللحظة ويتلك البقعة كنت أشعر بأنى على كذب من الموت، بل كأننى كنت ألس قربه الدائم، فلو أن صوتاً واحداً اختلج في ذلك الصمت الذي يكتنفني من كل جانب، أو لو أن الحفيف شاب ذلك السكون مرة واحدة! طأطأت رأسي ثانية، وقد ملا نفسي الخوف، وكنت أشعر كأننى نظرت حيث لا ينبغي لإنسان أن ينظر، فوضعت يدي فوق عيني وأخذت بفتة - كائن كائن ألبى أمراً خفياً - أتذكر حياتي كلها.

مرت بذاكرتي طفولتي كومض البرق صخابة مسالة مشاغبة ولكنها طيبة القلب، وأردفتها

مسرّاتها السريعة المر وأحزانها القليلة البقاء، وتراعى لى شبابى غامضاً عجيب الأطوار، شاعراً بنفسه، مصحوباً بأخطائه وهفواته ومحاولاته وجهوده الموزعة، وتبدله المستوفز... وأخذت تتوافد على ذكريات الرفقاء والأصدقاء الذين قاسموني طمحاته الباكّة.. ثم شمع ضوء ذكريات قلائل مشرقة كما يلمع البرق فى حواشى الليل... وأخذت الظلال تتكاثف وتخيم على، واعتكر الظلام حولى، ومرت السنون المتشابهة الرتيبة هادئة فى سلام... وأهوى على قلبى الانقباض كما ينقض الحجر، فجلست بغير حراك، وأخذت أتقرس... أخذت أتفرس بجهد وارتيابك، وكأني كنت أنظر حياتى جميعها ماثلة إزائي... وكأنيما رفعت عن باصرتى الحجب والأسرار، أه ماذا فعلت! هذا ما تحركت به شفتائى على غير قصد منى فى همسة مريرة، أه أيتها الحياة، أين وكيف وليت وبدون أن تتركى أثراً؟ كيف تغلت من قبضة أصابعى؟ أخذتني وغررت بى؟ أم كنت أنا المعلوم لأني لم أعرف كيف أفيد من عطايك ومنحك؟ أهذا ممكن؟ أهذه البضعة التافهة وهذه القبضة الزهيدة من خابى الرماد كل ما بقى منى؟ وهل هذا الشيء الفاتر الراكد الذى لا لزوم له «أنا».. هو «أنا» التى كانت فى سالف الأيام؟ لقد كانت الروح ظمأى إلى السعادة الكاملة فرفضت فى ازدياء كل ما كان ضئيلاً، وانتظرت - سرعان ما تتفجر لها ينباع السعادة - ألم تبل قطرة منها الشفة الملتاحة من الظمأ؟ أه يا أوتارى الذهبية، أنت التى خفقت مرة بلطافة وعذوبة، يخيّل إلى الآن أننى لم أسمع قط موسيقاك، ما كدت تخرجين نغمة حتى تقطعت أوتارك وعاجلها العطب، أو ربما كانت السعادة - سعادة حياتى جميعها الحقيقية - قد مرت على كُثْب وابتسمت لى ابتسامة متألّفة مؤنسة فعجزت عن تعرف محياها القدسي، وهل زارتنى حقيقة وجلست إلى جانب فراشى ثم نستها كما ينسى الحلم؟ أخذت أعيد على سمعى هذا القول وأردده والقلب مسلوب العزاء غير جواد بالسّلوان، ثم أخذت تهفوى أشابع خادعة غرارة، ونبتت من نفسى شيئاً يتردد بين الإشفاق والحيرة. وشرعت أحدث نفسى: «أنت أيضاً أيتها الوجوه العزيزة التى طاح بها الموت تلتفين حولى فى هذه العزلة الصامتة الموحشة؟ ولماذا قد استولى عليك هذا الصمت الممتلى بالشجوى؟ من أية هاوية بعثت؟ وكيف أستطيع أن أفسر نظراتك الغامضة؟ أتحييننى أم تشيعيننى بكلمات الوداع؟ أيمكن ألا يكون أمل ولا رجعة؟ ولماذا تتساقط من عيني هذه العبرات المتأخرة الواتية؟ أيها القلب لماذا ولأية غاية يتزايد حزنك ويطفئ شجئك؟ أعمل على النسيان إذا أردت راحة ونشدت هدوء، وتجلد إلى حد الاستسلام الوديع للفراق الأخير واحتمال كلمة الوداع والوداع إلى الأبد، ولا تلتفت إلى الوداء، ولا تسترسل فى الذكريات، ولا تحاول الوصول إلى مشارق الضوء حيث يبسم الشباب، وحيث الأمل مكلل بأزهار الربيع، وحيث يحلق الابتهاج بأجنحة نورانية، وحيث الحب.. لا ترسل الطرف حيث السعادة واليقين والقوة... ليس هناك مكاننا».

حكمة كريلوف

-١-

الأدب الروسي القصصى على تفوقه وامتيازه أدب حديث النشأة قريب العهد بالقياس إلى سائر الآداب الأوروبية، ويرى موريس بيرنج - وهو كاتب متمكن وناقد ذواقة ومن أعرف كتاب الإنجليز وأديانهم بالأدب الروسي - أن رسالة الأدب الروسي للعالم الفريدة الخاصة ما كانت لتتقص نقصاً محسوساً لو فقد كل ما أخرجه من القرن الثانى عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر مع استثناء كتاب «غزوة الأمير ايجور»

ومنذ ابتداء القرن التاسع عشر واعتلاء القيصر الإسكندر الأول عرش القياصرة الروس يبدأ العصر الجديد، ويطلع فجر الأدب الروسي الصادق، وسرعان ما تبع طلوع هذا الفجر شروق الشمس جلواء الطلعة، باهرة الضياء.

وكان الأدب الذى ظهر بعد ذلك ونما وازدهر ومنع ويسق يتأثر تأثراً عميقاً بالأحداث العامة التى كانت تميد بها أوروبا، وكان ذلك العصر عصر الحروب النابليونية، وقد اشتركت روسيا فى هذه الدراما الرائعة الكثيرة الألوان، المتعددة الفصول، وقامت بدور رئيسى، وكانت انتصارات القائد الروسي سواروف قد أثارت حماسة الروسيين، وحركت فيهم العاطفة القومية، وتبع ذلك انتصارات نابليون المتوالية على الجيوش الروسية فأغضب ذلك الروسيين، وهز ثقتهم بأنفسهم، ونال من أبائهم وكرامتهم، ولكن بعد أن غزا نابليون روسيا فى عام ١٨١٢، هبت عاصفة من القومية على روسيا، وانتهت المعركة بتقوية الوحدة، وتنبه الروح القومية، وخرجت روسيا من المعركة أصلب عوداً وأقوى نفساً، وأجاد القيصر الإسكندر تمثيل دوره وعبر عن الروح القومية تعبيراً بليغاً.

وقد أيقظ فى مطالع حكمه الآمال العظيمة فى الإصلاح والنهوض والسير فى سبيل التقدم والحرية، وكان كثير الاحلام معسول الأمانى، وقد تخرج على المفكر السويسرى لإرهاب، وقد غرس فيه أستاذة النزوع إلى الحرية وحب الحق والإنسانية، وقد ظلت هذه المطالب مثله العليا المنشودة، ولكنها كانت فى نفسه غامضة مضطربة، فلم تثمر ثمرتها المرجوة، وقصرت به عن الغاية المبتغاة، وكان عهده محاولات مخففة متوالية لتقويم المعوج وإصلاح الفاسد، وقد وقع فى أواخر أيامه تحت تأثير السياسى النمساوى الرجعى المعروف مترنخ والوزير الروسى المريب المشنوء أركشيف. ومهما يكن من الأمر، فقد انتصرت الرجعية

فى روسيا، ووقفت الحركة التقدمية، ولكن برغم ذلك فتحت التوافذ والأبواب ففسرّب الضوء، وهبت النسمات.

وقد أطلق الإسكندر فى أوائل حكمه حرية الصحافة والفكر، وكان فى طليعة الذين أفادوا من ذلك الشاعر الروسى الكبير إيفان كريلوف «١٧٦٩ - ١٨٤٤» وهو أول شاعر روسى له أثر واضح فى الحركة القومية والنهضة الأدبية، وكان ابن ضابط الجيش الخاملين، ومات أبوه وهو فى العاشرة من عمره، ولكن والدته كانت امرأة عاقلة حازمة، فاستطاعت بحسن التدبير وببالغ العناية وتحري الاقتصاد أن تعلمه تعليماً لا بأس به، وقد بدأ حياته موظفاً صغيراً فى مدينة تيفر الواقعة على نهر الفلجا واسمها «ألان كالينين» وكان عمله المصلحى مثلاً رتبياً، فكان يشرد فى النواحي المجاورة ويخالط الفلاحين والنواتية، ويتعرف لهجاتهم وأساليبهم وطرائق تفكيرهم، وقد أكسبه ذلك خبرة مستفيضة، ومعرفة صميمية، وانتقل بعد ذلك إلى بتروغراد، واشترك فى عهد الملكة كاترين مع اثنين من أبرز مفكرى العصر وأشدّهم إقداماً فى تحرير مجلة أدبية، وقد بدأت الملكة كاترين عهدها بتشجيع النقد الاجتماعى، ولكن حدوث الثورة الفرنسية جعلها ترد إلى الرجعية، وتعرض عن الآراء الحرة إعراضاً تاماً، فلقى كريلوف العنت من الشرطة والرقابة، وقد بدأ حياته الأدبية بكتابة الروايات التمثيلية، ونجح نجاحاً عارضاً، ولكن رواياته لم تكن تحمل عناصر البقاء، ولم يهتد إلى ميدانه الأصيل ومجال تفوقه وتبريزه إلا فى عام ١٨٠٥، حيث بدأ ينظم خرافاته التى شاع ذكرها، وعظم خطرهما، وأصبحت حدثاً يشار إليه فى الأدب الروسى، وكانت خرافاته الأولى مترجمة أو مقتبسة من المراجع الأجنبية، وبخاصة لافونتين، ولكنه استقل بعد ذلك بطريقته الخاصة، وأخذ ينظم خرافات مبتكرة، يمزج فيها الصورة التقليدية للخرافة بالحديث، خرافاته قوة ما تتضمنه من نقداً لاذعة، وطعنات خفيات مصميات، وكثير من خرافاته تتناول ما فى الحياة الروسية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية من جوانب النقض ونواحي الضعف.

وخرافات كريلوف - مثل خرافات لافونتين - أبطالها من الحيوانات، والطيور، والأسماك، والحشرات، والناس، والفلاح الروسى فيها مكانة ملحوظة، وكريلوف هجاء بارع، وساخر لاذع، وهو كسائر كتاب الخرافة يجيد تصوير عيوب المجتمع ونقائصه، ويسلط عليها سحرته الخفية، وغمزاته المستورة، وبعض هذه الخرافات يضحكننا من حماقات الإنسان وسخافات، وبعضها يرسل الحكمة فى قالب الفكاهة، وهدفه أن يمتعنا ويسلينا قبل أن يعلمنا ويعظنا، وكريلوف ساخر شديد الوطأة وهجاء من الطراز الأول، ولكنه مع ذلك شاعر صادق الشعارية، عميق الإحساس، متقد العاطفة.

وخرافات كريلوف تتسلسل تسلسلاً منطقياً، وله قدرة خارقة على إيجاز الموقف

واختصاره فى صورة مكتملة لامعة وكلمة وجيزة جامعة مانعة، من أمثلة ذلك خرافته الذاتية عن «الفلاحين والنهر» وفيها يصف ما يلقاه الفلاحون من ظلم الحكام وعسف العمال، وهذه ترجمتها المنشورة:

فى ذات يوم ضاق صدر الفلاحين بما يلحقهم من الاضطهاد، وما يصيبهم من الإفساد والنهب والسلب والسرقات وابتزاز الأموال واغتصاب المحاصيل، وقد كانت الجداول والقنوات والترع تطفى على طرقتهم، وتعرقل أعمالهم، فصع عزمهم على تقديم شكوى للنهر الأعظم الذى تصب فيه هذه الجداول والقنوات والترع، وكانت أسباب الشكوى قوية واضحة، فمحاصيلهم تنهب وتسرق، وطواحينهم تطفى عليها المياه، ويختطف التيار الجارف الكثير من ماشيتهم ويفرقها، ويحدث ذلك كله والنهر يجرى فى تودة ووقار، وتقوم على ضفتيه المدن الكبيرة العامرة والواضر الزاهرة آمنة مطمئنة، وكانت الناس لا تظن أن الترع والقنوات والجداول تعبت بالفلاحين هذا العبث المؤذى، وتستخف بهم هذا الاستخفاف المزرى، وجرى فى وهم الفلاحين أن النهر سيعوضهم مما نزل بهم من الخسائر الفادحة والنكبات المتلاحقة، فلما اقتربوا من شطآنه أوماً إليه من كان فى طليعتهم، فشخصت أبصارهم نحو النهر برهة من الزمن، فرأوا أكثر ما فقدوه طافياً فوق مته، فالشكوى إذن جهد ضائع وعمل عقيم، وألقى كل منهم نظرة على النهر المتدفق الجارى، ثم تبادلوا النظرات وهزوا رؤوسهم وعادوا أدرأجهم.

وتجاذبوا، وهم فى الطريق، أطراف الحديث، وتوافقت آراؤهم على أنه لا فائدة من إنفاق الجهد فى مقاضاة الصغير، إذا كان يقتسم جميع ما ينتهبه ويسلبه مع الكبير العظيم. وقوله عن الفلاحين أنهم «هزوا رؤوسهم وعادوا أدرأجهم» أبلغ فى تصوير طبيعة الموقف ومأساة الحادثة من الخطب الطوال، وأمثال هذه «القفلات» تروق لافونتين.

وقد تناول فى خرافاته بعض الأحداث السياسية الكبرى، مثل الثورة الفرنسية، وغزو نابليون، ومؤتمر فيينا، وفى الخرافة الآتية - وعنوانها «ابن الأسد» - يعرض بتربية القيصر الإسكندر الأول وأستاذه لا هارب: وهب الله الأسد ابناً كان يتلف عليه، والحيوانات التى قد يكون لك بعض الإلمام بشؤونها وأساليب حياتها ليست مثلاً، فطفلنا الذى لم يتجاوز العام يكون ضعيف الإدراك صغير الجسم - سواء فى ذلك أبناء الملوك وأبناء الشعب - والأسد الذى يبلغ عمره عاماً - كما تعلم - يكون قد قارق القماط، وكبر عن الطوق.

ولقد أخذ الملك يفكر ويروى كيف ينشأ ابنه نشأة تبعد عنه الجهل، وتبقى له شهرته الملكية نقية غراء، فإذا ما تسنم الطفل العرش، وألقيت إليه مقاليد الأمور، لا يلوم الناس الأب على ما قد يقع فيه الابن من الأخطاء.

فمن الذى يأمره ويكلفه أو يرغمه على تعليم نجله كيف يعرف الواجبات الملكية، ويحسن النهوض بها؟ أيعهد فى ذلك إلى الثعلب؟ الثعلب البارع متوقد النكاء، ولكنه ولوع بالكنب، متهالك على الرياء والتفاق، ومعاشرة الكذابين المنافقين تجلب المتاعب وتجر المشكلات، وليس هذا من شيم الملوك وشمائل العظماء!

وخطر له أن يعهد فى ذلك إلى الخلد لأنه يحسن تنظيم بيته، ولا يخطو خطوة إلا وهو على بينة من أمره، وهو يتولى بنفسه تنظيف طعامه وإعداده، وموجز القول: إن جميع التقارير تثبت أن الخلد حيوان بارع فى صغيرات الأمور، ولكن لنتمهل فى الأمر! فحقيقة أن الخلد يرى ما تحت أنفه بوضوح ودقة، ولكنه لا يرى أبعد من أنفه! ومذهب الخلد مذهب نافع، ولكنه لا يصلح لك ولا لى، ومملكة الأسد أوسع نطاقاً من أكمة الخلد.

ولماذا إذن لا يجرب النمر!

فالنمر شجاع مقدام، وقوى مضبور الخلق، ويستطيع أن يعلمك الحركات الحربية، ولكنه لا يفقه شيئاً فى السياسة، وليست عنده أية فكرة عن حقوق الإنسان المدنية، والملك يلزم أن يكون سياسياً وقاضياً، ومن خطئ الرأى أن يكون محارباً فانتكاً فحسب، والنمور لا تتقن سوى فن الحرب، فليس لأبناء الملوك أن يتخرجوا على النمر، وموجز القول: إن الأسد فكر فى جميع الوحوش، فوجد أنها كلها مفرطة الجهل، ضعيفة التفكير، قليلة العقل، حتى الفيل الذى اشتهر فى الغابات بالحكمة، كما اشتهر أفلاطون قديماً بالفلسفة، بدا له سخيلاً شديد الغباء.

ولحسن حظ الملك - أو لسوء حظه فإن علينا أن نتبين ذلك - علم ملك النسر بما يعانيه ملك الوحوش من هم وتسهيد، وكان دائماً يظهر المودة والعطف لصاحب العرش المجاور لبلاده، وعزم على أن يقوم لصديقه بخدمة ملكية ليدل على عظيم إخلاصه وصادق وفائه، فالتمس من الملك أن يتولى هو بنفسه تعليم نجله، فعظم سرور الأسد، وشكر له هذه اليد الكريمة، وأكبر هذه الأريحية، وأى تشريف أعظم من أن يقوم أحد الملوك القر الميامين بتعليم ولى العهد!

وبادر ملك الوحوش إلى إرسال نجله ليتلقى فى مدرسة ملك النسر أصول الحكم وقواعد السياسة.

ومر عام، وانصرم عامان آخران، وكان القادمون من مملكة النسر يحملون أحسن الأنباء عن نجل الأسد ويشنون عليه أطيب الثناء، ويتحدثون عن تقدمه السريع فى الدراسة، وكفايته ونبوغه، وكانت الطيور تردد ذلك.

وأخيراً أتم الغلام دراسته، وفاز بالإجازة العلمية التى تدل على التفوق والامتيان، واستقدمه والده ليسر برؤيته، ويبلو علمه وقدرته، وعاد الابن بعد طول الغياب والتضلع من

العلم، ودعا الملك الوحوش جميعها إلى الحضور، فلما اجتمعت الوحوش، وأخذ كل منها مجلسه، قبل الملك ابنه وعانقه وخاطبه قائلاً: «ولدى الحبيب، أنت الذى ستخلفنى وتقوم بعملى بنأبء الملك، وتدبير أمور الرعية، وإنى هامة اليوم أو غداً، وأنت يا ولى فى مستقبل العمر، وعنفوان القوة والشباب، وأنا ألقى إليك مقاليد الحكم فى سرور وارتياح، وأملئ أن تحسن السيرة، وتسوس الناس خير سياسة، وأود أن تحدثنى أمام هذا الجمع الحاشد من رجالات الدولة وأعيان الوحوش عن العلم الغزير الذى حصلته، والمعرفة التى اكتسبتها، والخبرة التى أقدتها، وكيف تصلح من شئون أمة الوحوش، وتنهض بها، وتعلئ شأنها».

فأجاب نجل الأسد: «أبت العزيز، لقد اخترت لى فأحسنست الاختيار، فقد درست دراسة لم تتج مثلها من قبل لأحد من الوحوش، وعرفت ما غاب عنهم، ومعرفتى بالطيور وعاداتها وأساليب حياتها وتقاليدها المتبعة ليس لها نظير، وأنا من أعرف الناس بطرق تحسين نريتها، وترقية أنواعها، ولا يند عن علمى فى هذا الصدد رأى قديم أو حديث، وعندى إحاطة تامة ومعرفة واسعة بمراجع أمثال هذه البحوث، وإنى أغتنم هذه الفرصة لأقدم لك الإجازات العلمية التى تدل على توفيقى وتشهد بتفوقى»

وناول والده تلك المجموعة من الأوراق التى يسمونها الإجازات العلمية، والتى يقال إنها تزن قيمة تفكير الإنسان وعلمه وزناً بقيقاً صادقاً، واسترسل يقول: «إنى أجيد معرفة مسالك النجوم، وإذا صحت نيتك على أن تستند إلى حكم هذه الأمة، فأول عمل سأقوم به هو أن أحمل الوحوش على ابتناء الأعشاش والوكور» فأنَّ الأسد وتأوه، وشاركته فى ألمه جميع الوحوش، فتنهدت وتوجعت، وهزَّ الجميع رؤوسهم من الخجل والاشمئزاز، وأدرك الملك المتقدم فى السن حقيقة الموقف بعد فوات الأوان.

فدراسات نجله جميعها غير مجدية، وكلماته لا تدل على الحكمة، وأصالة الرأى، وصدق النظر، فما حاجة الوحوش إلى المعرفة الواسعة بالطير وعاداتها! والذى تعده الطبيعة ليحكم الوحوش، لا يحتاج إلى أن يتعمق فى علم الطيور، وأسمى فن يتاح للملك إتقانه هو أن يفهم حاجة بلاده، ويعرف كيف يصلح من أمرها، ويعالج مشكلاتها، وينهض بها.

وتناول فى بعض خرافاته فساد الأحوال الداخلية فى روسيا، ومساوى العدالة، ومن أمثلة هذه الخرافات خرافة الفلاح الذى قدم شكوى يتهم فيها شاة بالتهام دجاجتين، وكان الثعلب هو الجالس فى كرسى القضاء، وبدأ المدعى يوضح بينته، ويدلى ببرهانه، وأخذت الشاة فى الإنكار والتنصل من التهمة، وقال الفلاح: إنه فى اليوم العاشر من شهر مايو افتقد دجاجتين، ورأى ريشهما وعظامهما ملقاة على الأرض، ولم يكن بقناء الدار فى ذلك اليوم سوى الشاة، وقالت الشاة: إنها نامت طوال الليل ملء جفניה، وطلبت استدعاء الجيران ليشهدوا بحسن

سيرتها ونصاعة سمعتها، وأنها لم تنتهم قط بالسرقة أو بالغش والتزوير، وأنها لم تذق في حياتها لحم الحيوان أو الطير، ونطق الثعلب بالحكم، ونصه : إن الشاة قدمت حججاً غير مقبولة على ما بها من طلاء وزخرف، والأشرار يارعون على الدوام في إخفاء أثار جرائمهم، وتلفيق الحجج في الدفاع عن أنفسهم، وقد توافرت الأدلة على أن الشاة كانت في الفناء مع الدجاجتين في يوم وقوع الحادث، ولحم الدجاج شهى لذيق، وليس مما يزهد فيه، والأحوال جميعها مواتية، والفرصة سانحة، وقال الثعلب: إنه إنما يصدر عن ضميره إذا زعم بأن الشاة لم يكن في وسعها أن تقاوم رغبتها في التهام الدجاجتين، فالشاة محكوم عليها بالإعدام، والحكم مشمول بالنفاز في التو واللحظة، على أن يبقى لحمها في المحكمة، ويعطى الجلد للمدعى.

حكمة كريلوف

٢-

كانت حياة كريلوف الخارجية خالية من الحوادث الهامة، والمواقف الماثورة، وكان فيه من الفلاحين الروسين كراهة الحركة، والميل إلى التأنى والإبطاء، ولم يكن في الحياة شيء يستحثه إلى الإسراع والحركة والنشاط، وقد عُين حيناً من الزمن موظفاً بمكتبة بتروغراد العامة، فكان يقوم بواجباته في يسر وسهولة وعدم اكتراث، وكان يرتدى جلباباً، فإذا أراد أحد الزائرين استعارة كتاب أشار كريلوف عرضاً إلى الرف الذي به الكتاب وترك له حرية استحضاره، ويروى عنه أنه كان يقضى أكثر وقته في داره مستلقياً على أريكته، وفي ذات يوم استرعى أحد أصحابه نظره إلى أن المسمار المعلقة به إحدى الصور الموضوعة فوق الأريكة غير مستقر في مكانه، وأن الصورة قد تقع على رأسه، ونصح له بالتحول عن مكانه، فأنجابه كريلوف دون أن يبرح مكانه «كلا يا سيدي إن الصورة ستقع خلف الأريكة وأنا أعرف الزاوية»، وهو رد أشك في دلالة على تعمقه في الهندسة وعلم الزوايا، وإن كنت لا أشك في أن الذين كانوا يسمونهم في سالف الزمان «تتابلة السلطان» يقبطنونه عليه، على أن كسل كريلوف ظاهرة مألوفة في بعض المفكرين، فهو كسل رجل قد استحال ذهنًا مفكرًا ونفسًا حساسة، فهو لا يشعر بميل إلى معالجة أي ضرب آخر من ضروب العمل والحركة، ويجب أن يخلى ما بينه وبين الاسترسال مع التفكير والاستغراق في التأمل، وكانت الرقابة على المطبوعات في عصره شديدة الوطأة، كثيرة التعنت، وكانت الخرافة هي الأسلوب الوحيد الذي يستطيع به كريلوف أن ينقل أفكاره، وينيع آراءه بين القراء والمثقفين، وقد توفر على إتقانه حتى أصبح لافونتين الأدب الروسي، ولم يعف كريلوف الرقابة من سخريته، فقد أفرد لها إحدى خرافاته، وهي الخرافة المعروفة بخرافة «القطة والبلبل»، وذلك أن البلبل وقع في قبضة القطة، وأنشبت فيه مخالبها، وهمست في أذنه بعد أن ضغطته ضغطة يسيرة جعلته ينن ويتلوى من الألم «طالما سمعت يا بلبلى العزيز من أقواه الناس في كل مكان الثناء الجم على صوتك المطرب الرخيم، وهم يوازنون بين موسيقاه الشجية وأحسن أنواع الموسيقى، وحديث صديقي الثعلب لا يذهب باطلاً، فقد أنبأتني أن لك صوتاً عذبةً ندياً يشوق السمع، ويشجى

القلب، وأود أن أمتع سمعى بغناك الجميل وصوتك الرنان، فلا ترتعد يا صديقي، ولا تثيرن غضبي، أنظنتي أريد أن ألتهمك؟ كلا، إنى لا أريد بك سوءاً، ومتى أسمعتنى غناك أطلقت سراحك، لتجوب البلاد وتطير من شجرة إلى شجرة، وأنا مثلك صبة بالموسيقى كلفة بالغناء» ولكن الطائر المسكين كان ينفق هلعاً، ويترنح جزعاً، ويكاد تحتبس أنفاسه وهو فى مخالب القطة، فقالت له القطة: «ما بك؟ وماذا أصاب صوتك؟ غنى ولو أغنية واحدة! ولكن الطير لم يقو على الغناء، وإنما نشج وتوجع، فقالت القطة ساخرة متأنفة: «أهذا هو الذى يملأ أرجاء الغابة سروراً وجوراً وغناء جميلاً؟ لقد خيبت أملى فى الاستمتاع بغناك، ولأجرب الآن، فلعلك فى لهواتى أشهى طعماً وألذ مذاقاً» وسرعان ما اختفى مغتنيا الصغير بين فكيها.

وكان كريولوف يعتقد أن المبادئ السامية لا تثمر ثمرتها وتؤتى أكلها إذا قام بتنفيذها من لا يؤمنون بها، فهم لا يجدون صعوبة فى تأويلها والإفلات من أحكامها، وقد أوضح ذلك فى خرافته عن مؤتمر الوحوش.

فقد سأل الذئب الأسد أن يوليه أمر الخراف، وسعى له صديقه الثعلب عند زوجة الأسد باللفظ اللين والثناء الجم، ولكن لما كانت سمعة الذئب مريية سيئة فقد رأى أن تدعى رعية الملك إلى مؤتمر للنظر فى الأمر منعاً للأقاويل السيئة والإشاعات الكثيرة، وحضرت الوحوش جميعها، وعرض عليها الأمر، وأخذت الأصوات، وروعى فى أخذها مقام معطى الصوت ومكانته، فلم يرتفع صوت واحد بالمعارضة فى اختيار الذئب، ولم تقل كلمة تعوق إناطة الولاية به، ولذا قرر المؤتمر بالإجماع اختياره، ولكن أين كانت الخراف! ولماذا لم يرتفع لهم صوت ولم تسمع منهم كلمة! لقد استدعى الكثير منهم، ولكنهم فى النهاية أهمل أمرهم، وتركوا وشأنهم، وقد كانوا هم أول من يجب الاهتمام بمعرفة رأيه والحصول على موافقته!

وتناول كريولوف فى خرافاته الحماقات الإنسانية السائدة فى كل العصور، والسخافات البشرية العامة، من ذلك مسألة محاولة الإنسان التخلص من عيوبه وذنوبه وأخطائه، والحرص على إلقاء تبعثها على الغير، وبخاصة ذلك المخلوق البائس النعس المسمى «الشیطان»، وقد سخر كريولوف هذه الخرافة لبيان رأيه وعنوانها: «افتراء» وهو يقول فيها إنه فى بعض بلاد شرق الأقصى كان يعيش أحد البراهمة، وكان فقيهاً باقراً، ولكنه - برغم ذلك - كان سيئ السيرة والسريرة، وحتى البراهمة فيهم البراهمة الصالح الصانع، وفيهم البراهمة الكاذب الدعى، وكان يضايقه من زعيم الطائفة البراهمية تشدده وفرط إخلاصه ويقظته، فلم يكن أحد من الطائفة، وجاء يوم من أيام الصيام عند البراهمة، ولم يكن صاحبنا يستطيع أن يصبر على آلام الحرمان، فاستحضر بيضة من بيض الدجاج، ولما مضى موهن من الليل أشعل شمعة وأخذ يدنيه من البيضة لينضجها، وسره أن يتغفل الشيخ الأكبر ويخدعه، ولكن الشيخ

كان ساهراً يتهدد، فلحس الحركة، ولح الضوء الضئيل، وأقبل خفية ليتبين جلية الأمر، ولما فاجأ البراهمي الزائف قال له: «لقد انكشف أمرك يا صديقي الملتحي، ولن نخدعنا بعد اليوم» وأدرك البراهمي عظيم ذنبه، وكبير جرمه، ولكنه لم يجد سبيلاً للإنكار فقد كان الدليل قائماً، والبرهان لى نبنى فقد كدت أنكر نفسي، ولقد استغواني الشيطان، وأغراني بارتكاب المحذور، وزين لى أكل البيض» وهنا انبعث صوت الشيطان من أحد أركان الصخرة وهو يقول: «ألا تخجل أيها الرجل، إنكم معشر البشر تلقون علينا تبعة ذنوبكم وجرائمكم، على حين أننا نحن الشياطين نتعلم منكم كل يوم أشياء جديدة، وأنا لم أكن أعلم حتى اليوم أن البليضة يمكن إنضاجها على الشمعة.

ومن خرافاته البديعة خرافة «النسر والعنكبوت» وقد وصف فيها تعلق العاجزين الخاملين بمنالك العظماء البارزين، ويقول فيها: «إن النسر خلق فى أعالي الفضاء، ومر فى طيرانه فوق قمم جبال القوقاز، ثم حط على شجرة أرز قديمة العهد، وأخذ يجيل الطرف فى المنظر البديع الممتد أمام عينيه، وكان يشرف من عليائه على الغابات المائجة بالخضرة، والأنهار الملتوية المتعرجة، والمراعى الواسعة والبرارى الفيحاء، وحمد الله الذى منح جناحيه القوة التى تمكنه من بلوغ هذه الأعالي السامقة، والتحليق فوق تلك المرتفعات الشامخة، ومشاهدة روائع الطبيعة، وجمال الكون، وسمعه العنكبوت وهو يردد الحمد والشكر، ويتحدث بنعمة الله عليه، فقال له: «لست وحدك يا صديقي الذى تفرد بالتحليق فى الأعالي وارتقاء النرى الرفيعة، وهانذا جالس فى مكان لا يقل ارتفاعاً وسمواً عن مكانك» وحول النسر بصره نحو الناحية التى أقبل منها الصوت فلمح العنكبوت متعلقاً بأحد أغصان الشجرة الفارعة، وقد أخذ يمد نسيجه وينصب شبابه كأنه يحاول أن يسد مطلع الشمس، فقال له النسر: «ولكن كيف جئت إلى هنا؟ لقد ارتقيت مرتقى صعباً، وتجاوزت حدود قدرتك، ولا طاقة لك على تسلق هذه الأعالي الصاعدة، وليس لك أجنحة تطير بها، ومن المؤكد أنك لم تأت إلى هنا زاحفاً، وأنا لا أجترئ على مثل ما أقدمت عليه، فخبرنى كيف وصلت إلى هنا؟»

«الأمر هين، لقد تعلقت بجناحيك! فأنت الذى حملتنى إلى هنا! وقد استمسكت بذيك، ولكنى أستطيع الاعتماد على نفسى، ولست فى حاجة إليك فلا تتأبه على، وتواضع فى حديثك معى!» ولم يكذب ينسب بهذه الكلمات الأخيرة حتى هبت عاصفة سريعة هوجاء طاحت بصاحبنا الفخور المتعالي، وألقت به إلى حضيض الوادى، وهذه خاتمة المغرورين الذين يسировون فى ركاب العظماء، ثم ينتفخون وينسون عجزهم، وصغر همتهم ويسلكون أنفسهم فى عداد العظماء والأعيان، حتى تحين الظروف التى تكشف ضعفهم، وتقض عجزهم وقصورهم. وفى خرافة «البركة والنهر» يصف الفرق بين الحياة الخصبية المنتجة والحياة البليدة

الخاملة العقيم، ويقول فيها: «جاورت بركة نهراً عظيماً، وقالت له يوماً: «كلما أبصرتك رأيتك جم الحركة، كثير النشاط، دائم التدفق والجري، لا تريح ولا تستريح، وأخالك قد مسك اللغوب واستنفدت قواك! وقضلا عن ذلك فإننى كلما تأملت مسيرك رأيت السفن المشحونة بالأحمال الثقيلة والأطواف العديدة والزوارق والقوارب الكثيرة تشق عبايك، وتحملها متون أمواجك، فمتى تسأم هذه الحياة الراتبة المملة؟ إننى أوشر أن تغيض مياهى على أن أحتمل مثل هذا؟ أنتستطيع أن ترينى حياة وادعة هائلة مثل حياتى؟ وأنا أسلم بأن أفراداً قلائل يعرفوننى، وأن اسمى لم يكتب فى المصور الجغرافى ولم يقرع الأسماع ويملاً البقاع، ولكن هل المجد والشهرة من الأشياء التى تسر القلب، وتقر بها العين؟ فأننا أنعم فى ظلال الراحة، وأعيش رخية البال، هائلة خلية، لا يعكر صفو مياهى مجانيف القوارب، ولا مرور السفن، وقل أن تخفق فوق صدرى ورقة ذابلة من أوراق الأشجار، وأنا فى أمن من عصف الرياح، وطوارق الهموم، ولم يتح لأحد ما أتبع لى من الحظ الحسن، والعيش الرغيد، وجميع من حولى يبذلون الجهد، ويتجشمون الأهوال، وأنا أستمتع بالهدوء والاستقرار، وأحلم الأحلام الفلسفية».

فأجابها النهر: «من كان فى مثل تضلعك من الفلسفة، لا يجهل أن الماء لا يحتفظ بصفائه ونقاؤه إلا إذا كان جارياً متدفقاً، ولئن كنت قد أصبحت نهراً عظيماً ضافى الأمواج طماع الغناب، فإننى لم أبلغ ذلك بالتمنى والأحلام، وإنما باقتحام الأخطار، والضرب فى صدور الصعاب، وما أبذل من جهد وما أقوم به من حركة يزيد مياهى غزارة وصفاء، ويحمل اليمن إلى أرجاء العالم، ويفيض الخير والبركات، ويذيع فضلى، ويعلى شأنى بين الناس، ويكسبنى السمعة الحسنة، والذكر الباقي، وربما مد فى عمري قروناً أظل خلالها أخصب الجديب، وأقرب البعيد، على حين يكون اسمك قد نسيه الناس وأصبح نكرة غير معروف».

وقد تحققت نبوءة النهر، فهو لا يزال يجرى فى وقار وجلال برغم علو السن وقدم العهد، أما البركة فقد ضل ماؤها وطلحب، واستأسد فيها النبت وأغلوب، وجفت وزهد أثرها، وهكذا من يبخل بفضله يستغن عنه ويذمم، ويعلوه الصدا ويذب فيه البلى».

وهو يضرب للغنى الذى ينفق المال فى غير وجهه، مثل السحابة الوطفاء التى مرت فوق أرض قد تكشفت وصوح نبتها وأملحت، ولم ينهل ماء السحابة ليروى النبت الذى جف ويبس بقطرة واحدة، ولما أشرقت على البحر اللجى الملتطم الأمواج استهلكت بوادرها، وفاخرت الجبل الشامخ بكرمها الواسع وعطائنها العميم، فأجابها الجبل: «ما أراك قطعت شيئاً يستأهل الفخر ويستحق الثناء، فليس البحر فى حاجة إلى وقك المنهل ومائك الغزير، وكان الأخلق بك أن تروى الحقول والمزارع لتجنبى البلاد خطر المجاعة وشر المحل والجذوبة».

وأختم الحديث عنه بهذه الخرافة عن المتهوس المنقرور المدعو «العصفور الصغير»، وكأنه

كان فيها ينظر بعين الغيب إلى ذلك الزعيم الإيطالى الراحل «موسوليني» الذى أوحشتنا جمعته وخطبه المدفعية، ويقول فيها كريلوف: «أبحر العصفور الصغير إلى الشاطئ، وأعلن أنه مصمم على أن يحرق البحر! واستهول الناس الخبر، واجتمعت الطيور والوحوش لترى كيف يحرق البحر ويبتلعه اللهب وتفتيه النار، وأقبل قوم بالملاعق الفضية والصحاف، ليستمتعوا بكل السمك المشوى، وشرب الحساء المرى، وأرجأت الصحف مواعيد صدورها ترقباً لأخبار هذا الحادث الفذ العظيم، وأرسلت مخبريها إلى شواطئ البحر ليوافوها بأحدث الأنباء، وأخذ القوم يتهايمسون من الحين إلى الحين، وهم يتوقعون فى كل لحظة أن يروا النار الموقدة واللهب المتعالى، وطال الانتظار ولم يحدث شئ، وعاد بطلنا الصغير أدراجه إلى عشه ليدارى خيبته، فقد ملأ الدنيا بآئه سيحرق البحر حتى استغاث الصم من إعلانته، وعلق كريلوف على هذه الخرافة بقوله: «لا يجمل بالإنسان أن يفخر بأعمال لم تتم».

وبعد، فهذه أمثلة متنوعة اخترتها من مجموعة خرافات كريلوف، التى ترجمها إلى الإنجليزية الأستاذ برنارد بارز الواسع الاطلاع فى الأدب الروسى، والخبير بأحوال روسيا السياسية وماضيها وحاضرها، وقد حاولت فى الاختيار أن أبين جوانب تفكير كريلوف المختلفة، وأكشف بعض نواحي معرفته المستفيضة بالنفس الإنسانية وحكمته الصادقة العميقة.

وداع ترجنيف

(قضى الكاتب الروائى الروسى الكبير إيفان ترجنيف فترات طويلة من حياته مقيماً فى فرنسا، واجتمع بكبار ممثلى الأدب والفكر الفرنسى فى عصره، وتوثقت العلاقات بينه وبينهم، فلما مات رثاه صديقه الكاتب الفيلسوف أرنست رينان بهذه الكلمة، لا يرحلن عنا بدون كلمة وداع هذا التابوت الذى يرد إلى وطنه ضيف العبقرية، من كان من حظنا لمدة سنوات طويلة أن نعرفه ونحبه، وسيكشف لكم يوماً جهيداً من جهابذة الحكم على مبتكرات الخيال عن سر تلك المؤلفات الشائقة التى راقت أهل هذا القرن، ولقد كان ترجنيف كاتباً كبيراً، وكان فوق كل شيء رجلاً عظيماً، وسأقصر الحديث على شخصيته كما تراءت لى فى خلواتنا العذبة.

لقد حبا ترجنيف بأنبل المواهب هذا القانون الغامض الخفى الذى يفرض لكل إنسان وظيفته فى الحياة، فقد ولد غير فردى، ولم يكن عقله عقل إنسان قد ميزته الطبيعة، وإنما كان إلى حد ما عقل قوم بأسرهم، ولقد عاش قبل مولده آلاف السنين. وأثقلت فى أعماق قلبه حلقات غير متناهية من الأحلام، ولم أر قبله رجلاً قد حل فيه شعب برمته إلى هذا الحد، كانت تحيا فيه دنيا وتتطق عن لسانه، وقد رد فيه إلى الحياة أجيال من أسلافه الموتى الصامتين فى رقاد الدهور وأفصحوا عما خالجهم.

وروح الجماعات هى النبع الذى تفيض منه جلائل الأعمال، ولكن الجماعات لا صوت لها، وهى تشعر وتحس ولكنها تتعثر فى الإبانة والأداء، ولا بد لها من مفسر ونبى ليترجم عما فى نفسها. فمن أى صنف من صنوف الرجال هذا النبى؟ ومن يتحدث عن تلك الآلام التى ينكرها من تقتضى مصلحتهم السكوت عنها، وغض الطرف عن رؤيتها؟ تلك الأشواق واللواجج الخفية التى تشوب صفاء فردوس التفاؤل الذى ينعم فى ظلاله الراضون القانونون، والرجل العظيم حينما يكون فى الوقت نفسه عبقرياً لا معدى له عن أن يكون قوى الشعور، ولهذا السبب يكون الرجل العظيم أقل الناس نصيباً من الحرية، فهو لا يفعل ما يشاء، ولا يقول ما يريد، وإنما الله هو الذى ينطق عن لسانه، وعشرة قرون مليئة بالأحزان حافلة بالآمال تستأثر به وتسيطر عليه، وقد يحدث فى بعض الأوقات أنه يحاول أن يستنزل اللعنة فيلتمس البركة، وذلك لأن لسانه ليس طوع أمره، وإنما الروح هى التى تنفخ فيه وتملى عليه.

وأنة لما يشرف ذلك الشعب السلافي العظيم، الذي كان ظهوره على مسرح الدنيا من المظاهر غير المنتظرة أن يصوره فى مستهل أمره مثل هذا الأستاذ المذهب الكامل، ولم تكشف خفايا وعى غامض، وهو مع ذلك متناقض بمثل هذا النفاذ الرائع، ولقد كان ذلك كذلك لأن ترجنيف كان يشعر، وكان فى الوقت نفسه يلاحظ نفسه وهو يشعر، وكان جزءاً من الشعب وفى الوقت نفسه كان من الصفوة المختارة، ولقد كان حساساً كالمرأة، ويعيداً عن التأثير بالعواطف مثل المشرح، كان كالفيلسوف ليس للأوهام سلطان على عقله، وكان فيه رقة الطفل، فما أسعد هذا الشعب الذى أتيح له عند دخوله الحياة الفكرية أن تمتلئ مثل هذه البدائع الفنية الجامعة بين البساطة والعمق، وبين الواقعية والصوفية؟ وحينما يقدم لنا المستقبل المقدار الوافى من المفاجآت التى تدخرها لنا هذه العبقرية السلافية العجيبة بإيمانها المضطرم ويدهاتها العميقة وأفكارها الخاصة عن الحياة والموت، وحاجتها إلى الاستشهاد، وظلمتها إلى المثل الأعلى، ستكون صور ترجنيف وثائق لا تقدر قيمتها، وستكون إلى حد ما كصورة رجل عبقرى فى طفولته إذا استطعنا الحصول عليها، ولقد عرف ترجنيف خطورة موقفه باعتباره معبراً عن أسرة كبيرة من أسر الإنسانية، وكان يشعر بأن فى كفالاته أرواحاً، ولأنه كان رجلاً أميناً كان يزن كل كلمة، وكان يرجف لما قاله، ولما لم يقل عنه شيئاً.

وهكذا كانت رسالته رسالة سلام، وكان كما جاء فى سفر أيوب «ينشر السلام فى البقاع العالية» وما كان فى الغير سبباً للخلاف صار فيه مبدأ التوافق والاتساق، وفى صدره الرحب كانت تصطليح المتناقضات، وكان فنه الساحر ينتزع السلاح من الكراهة والنقمة، ولذا صار مفخرة عامة لمدارس بينها الكثير من اختلاف الآراء، ولقد وجد فى وحدته شعب عظيم مصدوع الوحدة من جراء عظمتة، فيا أيها الأخوة المختلفون، الذين فرقت بينهم الأساليب المختلفة فى فهم المثل الأعلى، تعالوا جميعاً إلى قبره، كل منكم له الحق فى أن يحبه، لأنه كان لكم جميعاً، وكان لكل منكم مكانة فى قلبه، وإنها لمنقبة يمتاز بها العبقرى، فما أخلفها بالإعجاب! والجوانب البغيضة فى الأشياء ليست موجودة بالقياس إليه، فففيه تتفق المتناقضات، والفرق المتنافرة المتدايرة تجتمع تحت لواء واحد للثناء عليه والإعجاب به، وفى المستوى الذى ينقلنا إليه تفقد سمها الألفاظ التى تثير غضب العامى اللفظ، والعبقرية تعمل فى يوم واحد ما يستغرق عمله قرونًا، فهى تخلق جواً أسمى للسلام، يجد فيه هؤلاء الذين كانوا أعداء مختلفين أنهم فى الحقيقة كانوا متعاونين متساندين، وهى تبدأ عهد التسامح العظيم حينما يردد هؤلاء الذين حاربوا فى حومة التقدم جنباً إلى جنب متصافحى الأيدى.

والواقع أن هناك ما هو أسمى من الشعب، ألا وهو الإنسانية، أو إذا شئت العقل، ولقد كان ترجنيف من شعب بطريقة شعوره وتصويره، ولكنه كانت تربطه بالإنسانية فلسفة عالية

تتظر بعين جريئة إلى حالات الوجود الإنساني، وتبحث وراء الحقيقة من غير تحيز ولا تعصب، وقد اتجهت به هذه الفلسفة إلى الحنان، والدعة، والفرح بالحياة، والعطف على إخوانه البشر، ولا سيما المظلومين المضطهدين، وكان يحب الإنسانية البائسة حباً جماً، تلك الإنسانية الضالة في أغلب الأوقات، ولكن التي كثيراً ما يخونها قاداتها، وكان يكبر حركتها التلقائية إلى الحق والاستقامة، ولم يرد أن يستمتع بأوهامها، ولم يكن به رغبة في أن يطيل الشكوى منها، ولم يكن من طبعه السخرية بالمعذبين، ولم يسد طريقه الخداع، وكان مثل الكون يبدأ آلاف المرات عمل الشيء الذي لم يتم، وكان يعلم علماً ليس بالظن أن العدالة تستطيع أن تنتظر، وأن كل شيء في النهاية سيعود إليها، وكانت كلماته كلمات الحياة الخالدة، كلمات السلام والعدل والحب والحرية.

فالوداع إذن الصديق العظيم العزيز، ولئن بعدت عنا فإنما للتراب تجاليدك، أما الذي لا يموت منك، صورتك الروحية، فإنها ستظل معنا، وعسى أن يكون تابوتك لهؤلاء الذين جاؤا ليقبلوه عربون حب لإيمان واحد بالتقدم الحر، وحينما تستقر في ثرى وطنك، فعسى أن تلم بهؤلاء الذين يسعون إلى قبرك ذكرى وداد للأرض البعيدة، التي وجدت فيها قلوباً كثيرة تنبض بحبك، وتعى حكمتك.

شك أناتول فرانس

كان أناتول فرانس أقدر كتاب فرنسا وأبعدهم شهرة في الربع الأول من القرن العشرين، وقد أمتاز أدبه بخير الصفات التي عرف بها الأدب الفرنسي بوجه عام، وهي دقة التعبير وسلامته، ووضوحه وإشراقه، مع رشاقة اللمسات، والتزام الاعتدال، ومجافاة الغلو والإسراف، وأناتول فرانس ساخر بارع، يتخذ سخره قالب البساطة والتواضع، فهو لا ينكر الأشياء في عنف، ولا ينتقص أحداً في جفاء وشدة، وإنما يبتسم ابتسامة خفية مهذبة، ويتحدث في رفق ولين، وهو واسع الاطلاع، غزير المعرفة وكان لا يمل قراءة التاريخ، ولا يكل من القوص في أعماقه.

ولم يكن أناتول فرانس من المجاهدين لأجل المثل العليا، أو من الباحثين الذين يعذبون أنفسهم ويجورون عليها، وإنما كان مفكراً متشككاً ميالاً إلى الاستمتاع بالحياة وأخذها كما هي في يسر وسهولة، وهو يسخر من العلماء والفلاسفة والشعراء ورجال الدين سخرية رقيقة مهذبة، ويكره المتعصبين المتشددين، ولكنه لا يعتدى ولا يهاجم في صخب وعنف، ففي روايته الممتعة عن جزيرة طائر البطريق يسخر بماضى بلاده وأحداثها التاريخية ونظمها السياسية والاجتماعية سخرية خفية المدب بعيدة المغزى، ولكنها خالية من المرارة والعنف والقسوة التي تطالع القارئ من وراء سخرية الكاتب البريطاني الكبير سويفت في كتابه القيم الذائع الشهرة «رحلات جلفر»، فسويفت مهاجم شديد الشكيمة، قوى المراس، وأناتول فرانس دمث الأخلاق، رقيق الحاشية، ومن أجل هذا السبب ربما كانت سخريته أقوى وأفعل، وأبلغ وأقتل، وسخرية سويفت سخرية رجل ضاق نزعاً بالإنسانية وسخافاتا وحماقاتها، واستقنرها، وغثيت منها نفسه، أما سخرية أناتول فرانس فهي سخرية رجل قد طاف بكل عصور التاريخ، وعاش في مختلف الأجواء الإنسانية، ورأى الإنسان في شتى مراحل تاريخه وأدوار تطوره مخدوعاً مضللاً، فعلمه ذلك الاعتدال والسجاجة، وسعة الصدر، ورحابة الأفق، والشك حتى في الشك نفسه، وفتح عينيه على تلك الحقيقة الكبرى التي قد يذهلنا عنها الغرور والسفخ وتهافت التفكير، وهي أننا جميعاً جهلاء لا ندري شيئاً، ونتصادم في الصنادس، كما يقول أبو العلاء، وحياتنا في هذه الرحلة الدنيوية قصيرة المدى، وقد تثيرنا الطلعة، وتشوقنا المعرفة، ولكننا

لسوء الحظ نقضى نحننا قبل أن نعرف شيئاً معرفة حقيقية صادقة.

وأدب أناطول فرانس حافل منوع كثير الموضوعات، سرى الأفكار، شائق الملاحظات، لامع النظرات، وهو لا يتعب قارئه، ولا يكلفه شططاً، ولا يتعامل عليه، ولا يدل بوسع معرفته وعريض خبرته، بل هو من سماحة النفس ورجاحة العقل بحيث لا يظهر تصنعه للتواضع والاعتدال، وليس معنى ذلك أنه لا يتناول أدق المشكلات وأعوص الموضوعات، وإنما هو يتناولها بذكاء خارق، وأستاذية بارعة، وسخرية نافذة تلمس الصميم، وتصل إلى الأعماق، ولكنها في الوقت نفسه تتحاشى الثقوب ومنافذ المجالات والمشاحنات، وقد استعان على مغالبة التشاؤم الذي يتبع الشك بالسخرية الباسمة والعطف الشامل، ففلسفته مزيج من السخرية والرحمة، وهو يحتقر بنى الإنسان ولكنه يحبهم ويعذرهم، ويرى بعينه البصيرة ضعفهم وخستهم، ولكنه يؤمل فيهم خيراً، ويراهم عنوان الحياة، ومواطن القداسة في الوجود.

وهو يعتبر ابن رينان الروحي ومتمم مذهبه ورسالته، وهو يشبه رينان في أسلوبه وسخريته، وفي تردده وشكه، وشك أناطول فرانس يلقي ظلاً من الريبة على كل شيء، وهو يقول بأننا لا ينبغي أن نتق بأكثر المظاهر لأنها ليست في حقيقتها كما تبدو لنا، وقد ضمن آراءه روايات وقصصاً قصيرة، وفصولاً في النقد موفقة السرد، وضاعة الحكمة، ولا تتراد رواياته في الأغلب لما بها من تحليل العواطف، وتصوير الأخلاق والعادات، وإنما تقرأ لما يدخله فيها من طريف الأفكار، وناضج الآراء.

وقبل أن أختم هذه الكلمة القصيرة عن هذا الكاتب العظيم أحب أن أشير إلى موقفه النبيل من قضية دريفوس المعروفة، فقد دل على أن الرجل كان على شكه وسخريته له ضمير اجتماعي يقظ يذكره أن هذه الدنيا ملأى بالمكاره والشرور والقسوة والوحشية، وأن من الواجبات والفرائض أن نجاهد فيها لترجيح كفة الخير على الشر، والعقل على الجهالة، والحق على الباطل، وقد قام أناطول فرانس برسالة ضميره الحي على الأسلوب الذي يلائم طبيعته، ويرضى ملكاته العقلية، فلم ينسه حبه للجمال وولعه بالاستمتاع واجبه نحو إخوانه البشر، وإلى القارئ بعض مختارات من أدبه تحررت اختيارها من كتابين لعلهما أدل كتبه على فلسفته واتجاه تفكيره، وهما: «حديقة أبيقور» و«آراء جيروم كوانتار».

القراءة والتمثيل

لا أحسب أن تلاقي ألف ومائتي شخص لمشاهدة رواية تمثيلية، يكون بضرورة الحال جماعة ملهمة بالحكمة التي لا يأتيها الباطل ولا تخطئ، ومع ذلك فإن الجمهور - كما يلوح لي -

يحمل معه المسرح من بساطة القلب، وإخلاص العقل، ما يجعل للمشاعر التي يجربها قيمة خاصة، فالكثيرون ممن لا يستطيعون أن يكونوا لأنفسهم فكرة عن أى شيء قرعوه، فى وسعهم أن يذكروا ملخصاً حسناً لما شاهدوا تمثيلة على المسرح. وأنت حينما تقرأ كتاباً تقرؤه بالطريقة التي تروقك، وتجذ فيه أو توجد فيه ما تشاء، فالكتاب يترك كل شيء للخيال، ولذا فإن العقول العادية التي لم تتقف، فى الأغلب لا تجد فى الكتب سوى القليل من المتعة، والمسرح يختلف عن ذلك، فهو يضع كل شيء إزاء العين، ويستغنى عن مساعدة الخيال، ولهذا السبب يرضى الأكثرية، ولا يميل إليه كثيراً نحو العقول المفكرة النزاعة إلى التأمل، وأمثال هؤلاء يقدرون الموقف أو الفكرة بما تمدّه فى أنفسهم من آفاق التفكير، وما تثيره فى عقولهم من الأصداء العذبة الشجية، والمسرح لا يحفز أخيلتهم، ولا يجدون فيه سوى متاع «منفعل» يؤثرون عليه متاع القراءة «الفعال».

وما هو الكتاب؟ إنه فى جوهره علامات صغيرة متتابعة، وعلى القارئ أن يستحضر لنفسه الشكول والألوان والعواطف المطابقة لهذه العلامات، ولذا يتوقف عليه، هل الكتاب فاتر، أو لامع ومتقد العاطفة؟ أو بارد كالتلج، أو- إذا فضلت أن أذكر ذلك فى صورة أخرى- كل كلمة فى كتاب هي بنان مسحور يحرك ألياف ذهننا كما ترتعش أوتار المزهر، وبذلك يثير النغم فى تجويفة أرواحنا، ولا تغنى هنا براعة العازف وإلهامة فإن الصوت الذى يثيره متوقف على طبيعة الأوتار فى داخل نفوسنا، وليس الأمر كذلك فى المسرح، فالأخيلة الحية تحل هناك محل العلامات الصغيرة السوداء، وبدلاً من الحروف الدقيقة المطبوعة التى تفسح مجال التخمين نرى رجالاً ونساءً لا يحفهم خفاء ولا غموض، فكل شيء فى مكانه المحدد القدور، ومن ثم فإن التثورات العديدة التى تقوم بنفوس المشاهدين على اختلافهم تتباين فى أضييق الحدود التى تطابق اختلاف وجهات النظر الإنسانية المحتوم، ونشاهد فى تمثيل المسرحيات- إذا لم تتدخل الخلافات السياسية أو الأدبية- كيف ينشأ بين الحاضرين التعاطف الصادق الخالص، وإذا تذكرنا- علاوة على ذلك- أن فن التمثيل هو ألصق الفنون الأخرى بالحياة، فلا بد أن يتضح لنا أنه أقربها إلى فهمنا وتقديرنا، ونستخلص من ذلك أنه الوحيد من بين سائر الفنون الأكثر تجاوباً مع الجمهور، وأن الجمهور أوثق ما يكون برأيه فيه.

إلى جبريل سياليز

لا أستطيع أن أقول هل دنيانا هي أردأ دنيا ممكنة، وأعتقد أنه من الملق المفرد أن نمنحها التفوق، ولو كان هذا التفوق فى الشر، وما فى وسعنا تصوره عن العوالم الأخرى جد قليل، والفلك الطبيعى لا يوافقنا بمعلومات موفورة الدقة عن أحوال الحياة حتى فى هذه الكواكب

السيارة الأقرب منا، وكل ما نعلمه هو أن الزهرة والمريخ فيهما مشابهة كثيرة من الأرض، ونفس هذه المشابهة ضمان كافٍ لاعتقادنا بأن الشر غالب هناك لقلبته هنا، وأن دنيانا هذه قطر من أقطار دولته الشاسعة، وليس هناك ما يدعونا إلى أن نفرض أن الحياة أحسن على سطح تلك العوالم الكبيرة الضخمة مثل المشتري وزحل وأرانوس ونبتون التي تنزلق في هدوء خلال مختبرات الفضاء، حيث أخذت الشمس تفقد قسماً من حرارتها وضوئها، ومن يستطيع أن يخبرنا أى نوع من المخلوقات تسكن هذه العوالم المتلفعة بالأبخرة الكثيفة السريعة التحول؟ وإذا حكمنا بما توجيه المشابهة فإننا لا نستطيع إلا أن نرى أن نظامنا الشمسي بأسره هو جهنم مترامية الأطراف تولد فيها الحياة الحيوانية لتشقى وتموت، ولا نستطيع أن نعزى أنفسنا بتوهمنا أن النجوم الثوابت ربما كانت ترسل أشعتها إلى كواكب أسعد منا حالاً، فإن النجوم الثابتة بينها وبين شمسنا من المشابهة ما يحول دون ذلك، وقد حلل العلم الأشعة الضئيلة التي يستغرق إرسالها إلينا من تلك النجوم السنوات والقررون، وقد أثبت تحليل هذا الضوء أن المواد التي تحترق على سطوحها هي نفسها المواد المتماوجة الموارفة حول الفلك الذي ما زال منذ وجود الإنسان يبعث الضوء والنفء في حياته المليئة بالشقاء والسخف والألم، وهذه المشابهة وحدها كافية لتقمع نفسي باجتواء الكون.

وهذا التجانس في التركيب الكيميائي يجعلني أتوقع توقعاً مؤكداً رتابة صارمة في أحوال الروح والجسد، سائدة خلال امتداد الكون الذي لا أستطيع تصويره، وأكبر ظني أن المخلوقات المفكرة جميعها في عالم سيربيوس، أو في منظومة الفلك الطائر تحيا حياة بؤس وشقاء كخلائق هذه الأرض التي نعرفها، ولكنكم قد تقولون إن ذلك كله لا يكون الكون! نعم وعندي من الارتياح النفاذ ما يجعلني أرى أنكم على حق، وأنا أشعر بأن هذه العوالم الضخمة ليست شيئاً، والواقع أنى واثق من أنه إذا كان هناك شيء فإن ذلك الشيء هو غير ما نراه، نعم إننى أشعر بأننا نعيش محفوفين بالخيالات والظلال، وأن نظرتنا إلى الكون إن هي إلا أثر من آثار الكابوس الذي يعترض ذلك النوم القلق وهو حياتنا، وهذا هو أفنتك الضربات، لأنه من الواضح أننا لا نستطيع معرفة شيء، وأن الأشياء كلها تعمل على خداعنا، وأن الطبيعة تعبت بجهلنا وعجزنا عبثاً قاسياً مرأ.

متعة المجهول

أقوى المتع التي تلمس قلوبنا إثارة لعواطفنا هي متعة الغامض الخفي، فالجمال المتكشف العارى ليس جمالاً، وما نحبه أشد حب على الدوام هو المجهول، وإن الوجود ليصبح غير محتمل لو حرمتنا روعة الأحلام، وخير هبات الحياة هي إشعارنا بشيء منفصل عنا لا يدركه التعبير، والواقع يعيننا بقدر ما على تصور جانب من جوانب المثالي، وربما كان هذا أهم

الطفلة الصغيرة

عرفت طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها تسع سنوات، وإني واثق من أنها أرجح عقلا من الحكماء كلهم، فلقد قالت لي في التو واللحظة: «إن الإنسان يرى في الكتب ما لا يستطيع أن يراه في الواقع، لأنها جد بعيدة عنه، أو لأنها قد ولى زمانها، ولكن ما يراه الإنسان في الكتب يراه سيئاً أو محزناً، أنه يجب ألا نقرأ الأطفال كتباً، ففي الدنيا أشياء كثيرة يروق النظر إليها ولم يرها الأطفال مثل البحيرات والجبال والأنهار والمدن والحقول والبحر والسفن والسماء والنجوم».

إني أشايعها على فكرها، وأن لنا ساعة نعيشها، فلماذا نتعب رؤوسنا بأشياء كثيرة؟ ولم نحاول أن نعرف كل شيء ما دمنا نعلم أننا لن نعلم شيئاً؟ إننا نعيش في الكتب أكثر مما نعيش في الطبيعة، وإننا لنشبه ذلك الأبله الذي ذكره بلني الأصغر، والذي ظل مكباً على قراءة أحد المؤلفين اليونانين، وبركان فيزوف يثور ويحيل خمس مدن رماداً على مقربة منه.

الاستسلام

ليس لنا من حيلة في هذه الدنيا سوى الاستسلام للظروف، ولكن النفوس النبيلة تعرف كيف تخلع على هذا الاستسلام اسم الرضا الجميل، والأرواح السامية تستسلم في فرح مقدس، وهي لا تزال تجاهد في غمرة الشك المؤلم والويل الغالب، وتحت السماء الخاوية، للإبقاء على فضائل المؤمن القديمة، وهي تؤمن بأن الإيمان لها ضربة لازم، وحب الإنسانية يدفى قلوبها، بل الأكثر من ذلك أنها تعنى عناية خالصة بتلك الفضيلة التي يضعها فقه الدين المسيحي بحكمته فوق سائر الفضائل، لأنها تفترض وجودها وتحل محلها، وهذه الفضيلة هي الأمل، فلنعقد الأمل إذن- لا بالإنسانية التي لم تستطع يرغم ما بذلت من مجهود ضخم أن تحو الشر من الدنيا- وإنما بهذه المخلوقات التي لا يتصورها عقلنا والتي ستنبعث من النوع البشري، كما ترقى الإنسان من الوحشية، ولنحیی باحترام وإجلال هذه المخلوقات التي سيجي بها المستقبل، ولنقم أملنا على الأمل العام وعناء التمعض، فإن التحول هو قانونهما المادي، وإنما لنشعر في نفوسنا بوقع ذلك الأمل الواهب الحياة، فهو الدافع الذي يحفز الإنسانية في طريقها إلى الكمال المقدس الذي لا محيد عنه ولا بد منه.

الحزن الفلسفي

طالما عبر عن الحزن الفلسفي بكلمات محزنة المغزى، وكما أن المؤمنين السالكين الذين ترقوا إلى الدرجات العالية في الكمال الأخلاقي يتذوقون بهجة الاستسلام، فكذلك العالم

العارف يغريه كون كل ما حوله مظهرًا فارغًا وادعاءً بالطلاء بأن يستقى من حياض ذلك الحزن الفلسفى، وأن ينسى نفسه فى سبيل الاستمتاع بهذا اليأس الهادئ الوديع، ومن ذاق مرة هذا الحزن النبيل العميق لا يرغب أن يستعاض عنه بكل المسرات الحمقاء والأمال التافهة التى تستهوى الدهماء والأوشاب، وحتى الذين يعترضون على هذه الأفكار برغم جمالها الفنى ويرون فيها مسما للرجال والأمم قد يميلون إلى التخفيف من حدة كراحتهم إذا علموا أن فكرة الوهم العام وكون الأشياء لا استقرار لها قد أذاعها زينوفون فى عصر الفلسفة اليونانية الذهبى، واطمأنت إليها فى أزهى عصور الحضارة أسمى النفوس وأهداها وأقواها إحساساً وهم ديموفريتسى وأبيقور وجاسندى.

سير الزمن

الزمن وهو يغذى السير يجرح أو يقتل أحر عواطفنا وأرقها، وهو يطمأن الإعجاب ويسلبه غذائيه الضروريين وهما الدهشة والاستغراب، وهو يقضى على الحب وسخافاته المستحبة، ويهز قواعد اليقين والأمل، ويعرّى كل براعة نامية من أزهارها وأوراقها، ويا ليتة يترك لنا العطف والرحمة حتى لا نكون فى شيخوختنا كالمحبوسين فى مقبرة.

والرحمة هى التى تديم علينا رجولتنا الحقّة، فحذار من أن نتحول أحجاراً كالذين تحدوا الآلهة فى الأساطير القديمة، ولنعطف على الضعفاء لأنهم يعانون الاضطهاد، وعلى السعداء فى هذه الدنيا لأنه مكتوب «الويل لمن يضحك»، ولتأخذ الجانب الصالح وهو أن نشقى مع الذين يعانون الشقاء، ولنقل من أطراف الشقاء ومن القلب لضحايا الخطوب ما يقوله المسيحى الصالح لريم: «دعبنى أقاسمك الهموم دعبنى».

الحياة والخير والشر

حينما نقول إن الحياة خير، أو إن الحياة شر، نقول باطلاً ولفواً، والواجب قوله هو إن الحياة خير وشر معاً وفى الوقت نفسه، لأننا لا نميز الخير من الشر إلا بها، والحقيقة أن الحياة سارة ومحزنة، ومحبوبة ومنفرة، وعذبة ومرة، وهى فى الواقع كل شىء، وهى مثل ألبان صبيقتنا فلوريان يراه أحد الناس أحمر اللون، ويراه آخر أزرق اللون، وكلاهما يراه كما هو حينما يكون أحمر اللون أو أخضره أو ملونا بآى لون آخر، وهذا الطريق يؤدى بنا إلى الاتفاق ويوفق بين الفلاسفة الذين قد استجروا بينهم الخلاف وأخذ كل منهم بتلاييب الآخر، ولكننا قد جيلنا على أن نريد الآخرين أن يشعروا ويفكروا كما نشعر ونفكر، ولنا نطيق أن نرى جارنا مسروراً ونحن أنفسنا فى هم وحزن.

غرور الإنسان

لقد عرفت علماء فى بساطة الأطفال وتواضعهم، وفى كل يوم تلقى جهلاء يحسبون أنفسهم محور الدنيا، ومما يثير الأسف أن كلاً منا يرى نفسه قطب الوجود، وهو وهم يفتشى الناس جميعاً، ولم يبرأ منه كناس مفارق الطرق، فعيناه تخبرانه بذلك، فهو كلما أدار الطرف حوله رأى قبة السماء تحيط به من كل جانب، وأنها قد جعلته مركز السماء والأرض، وقد يهتز هذا الاعتقاد اهتزازاً قليلاً فى نفوس الرجال الذين فكروا تفكيراً عميقاً، والتواضع شىء نادر بين العلماء، وهو أندر بين الجهلاء.

قيادة الجماهير

الرجل الواثق بنفسه وبالدنيا جميعها هو الذى ستنحاز إليه الجماعة، فالثقة بالنفس هى ما تصبو إليه الجماهير، وهى لا تريد أن تسمع حججاً وبيانات، وإنما تريد أن تتلقى أوامر قاطعة، والحجج والبيانات تزعجها وتحيرها، وهى بسيطة العقل ولا تفهم سوى البساطة، فلا تقل لها كيف وماذا، وإنما أوجز وقل لها: «نعم» أو «لا».

التعصب

التعصب موجود فى كل العصور، ولكل دين غلاته المتشددون، ونحن جميعاً نزاعون إلى الإعجاب الذى لا يستند إلى أسباب تسوغه، فإذا أحببنا شيئاً بدا لنا أن كل ما فيه حسن، وسوؤنا أن يكشف لنا أحد عن أقدام أصنامنا الخرفية، ويجد الناس أنه من الصعب العسير عليهم أن يتناولوا بالنقد اليسير معتقداتهم، ومصدر إيمانهم، وهذا خير لهم، إننا لو أمعنا النظر فى المبادئ الأولية لما أمنا بشىء.

التاريخ - محاورة (١)

وضع المسيورومان ستة مجلدات على المنضدة وقال: «أريد منك يا مسيو بليزوه أن تبعث إلى بهذه الكتب، فهنا كتاب «الأم والابن» وه مذكرات بلاط فرنسا» و«وصية ريشليه»، وساكون شاكر لك إذا أضفت إليها أى شىء جديد مما عسى أن يكون قد ورد إليك أخيراً من كتب التاريخ، وبخاصة الكتب التى تتناول تاريخ فرنسا منذ وفاة هنرى الرابع، فلنا معنى أشد عناية بالاطلاع على هذه الكتب جميعها».

فقال له أستاذى جيروم كوانيار: «إنك على حق يا سيدى، فكتب التاريخ مليئة بالمادة

السهلة الخفيفة الصالحة لتسلية الرجل الأمين، والإنسان متأكد من أنه سيجد فيه طائفة كبيرة من القصص الشائقة».

فأجاب المسير رومان: «ليس ما أنتظره من المؤرخين يا صاحب النياقة هو التسلية العارضة، فالتاريخ دراسة جدية، وإن اليأس ليملاً نفسى إذا وجدت الخيال ممتزجاً بالحقيقة، وأنا أدرس الأعمال البشرية من حيث صلتها بسلوك الأمم، وأبحث فى التاريخ عن مبادئ الحكم».

فقال أستاذى كوانيار: «لست أجهل ذلك يا سيدى، ورسالتك عن «النظام الملكى» لها من الشهرة ما يكفى، ليجعلنا نعرف أنك قد تصورت مذهباً سياسياً مستخرجاً من التاريخ».

فقال المسير رومان: «وبهذه الطريقة أصبحت أول من استخلص من التاريخ القواعد التى لا يستطيع السياسيون الانحراف عنها دون الاستهداف للخطر».

«لقد رأيتك يا سيدى فى الصورة التى صدرت بها كتابك وأنت فى شكل ميرفقا تقدم إلى ملك شاب المرأة التى ناولتها إياك الإلهة كليو وهى ترفرف بجناحيها فوق رأسك فى حجرة المطالعة المزدانة بالتماثيل النصفية والصور، ولكن اسمع لى يا سيدى أن أنكر لك أن هذه الإلهة راوية قصص، وأنها تقدم لك امرأة مزيفة، ففى التاريخ حقائق قليلة، والوقائع التى يتفق عليها المؤرخون هى الوقائع التى تحصل عليها من مصدر واحد، والمؤرخون أينما يتلاقون يناقض بعضهم البعض، بل هناك ما هو أدهى! فإننا نرى أن فلافيوس يوسيفوس الذى صور الحوادث نفسها فى كتابه عن «العصور القديمة» وكتابه عن «حروب اليهود»، يرويها بشكل مختلف فى كلا الكتابين، وتيتاس ليفياس ليس سوى جامع خرافات، وتاسيتاس؛ وهو كاهنك وصاحب وحيك يخلف فى نفسى من الأثر ما يجعلنى أراه مخادعاً متجهماً يزدرى العالم جميعه تحت ستار التوقر والتزام الجد، وإنى أحترق ثاشيادوس، ويوليبياس، وجويكشياريينى، أما ميزيرى فإنه لا يدرى ما يقول أكثر مما يدرى فيلاريه والأب فلى، ولكنى أنهم المؤرخين فى حين أن التاريخ هو الذى يجب أن أهاجمه».

فما هو التاريخ؟ إنه خليط من القصص التى ترمى إلى مغزى أخلاقى، أو مجموعة من الأخبار والخطب البليغة تبعاً لقدرة المؤرخ فى الفلسفة أو فى الخطابة، وقد تجد فيه فصولاً بليغة، ولكن يلزم أن لا نبحث عن الحق هنالك، لأن الحق يقوم على إظهار العلاقة الضرورية بين الأشياء، والمؤرخ لا يعرف كيف يوجد تلك العلاقة لأنه لا يستطيع أن يقفز أثر سلسلة المسببات والأسباب، ولا تنس أن كل مرة يكون فيها سبب الواقعة التاريخية كامناً فى واقعة ليست تاريخية يعجز التاريخ عن رؤيته، ولما كانت الوقائع التاريخية متصلة اتصالاً وثيقاً

(١) هذه المناورة مختارة من كتاب آراء جيروم كوانيار، وهو من أدل كتب أناتول فرانس على فلسفته ومنهج تفكيره.

بالوقائع غير التاريخية، فإنه يتبع ذلك أن الوقائع فى التاريخ ليست مرتبطة حسب نظامها الطبيعى، وإنما يربط بعضها ببعض أفانين البيان، وأسترعى نظرك إلى أن التمييز بين الوقائع التى تبدو فى التاريخ والوقائع التى يهملها تمييز متعمد مقصود، وينشأ من ذلك أن التاريخ بعيد عن أن يكون علماً، لأن فى جوهره عيباً يقضى عليه بأن يظل فى فوضى الباطل، وسينقصه دائماً التسلسل والتتابع، ويدونهما لا يكون هناك معرفة صادقة، ولسنا نستطيع أن نرسم صورة لمستقبل أمة قياساً على تاريخها السالف، على حين أن خاصة العلم هو التكهّن بما سيحدث، كما نرى ذلك فى جداول حساب أوجه القمر، والمد والجزر، والخسوف والكسوف. فبين المسيو رومان للأب كوانتيار أنه لا يطلب فى التاريخ سوى الوقائع، وهى وإن كانت مختلطة شيئاً ما، وغير مؤكدة، ومشوية بالأخطاء، ولكنها - مع ذلك - نفيسة للغاية بسبب موضوعها وهو الإنسان

وأضاف إلى ذلك قوله: «أعرف كيف أن مدونات التاريخ الإنسانى قد عبث بها، وامتزجت بالخرافة، ولكن بالرغم من أن التسلسل المحتوم بين السبب والمسبب يخذلنا فى التاريخ، فإنى أرى فيه نوعاً من القصد الذى قد يغيب عن نظر الإنسان ولكنه يعود فيجده مثل أطلال المعابد المدفون نصفها فى الرمل، هذا وحده لا تقدر قيمته عندى، ويزين لى الأمل أن التاريخ فى المستقبل، وقد يكون من مادة غزيرة، وأتبع فيه أسلوب منظم، سيارى فى الدقة العلوم الطبيعية» فقال له أستاذى: «لا تعتمد على ذلك، فإن أكبر ظنى أن وفرة المذكرات الشخصية والمراسلات والسجلات المنظمة ستجعل عمل مؤرخ المستقبل أصعب وأشق، فالمستر إيلوارد الذى وقف حياته على دراسة ثورة إنجلترا يؤكد لى أن مدة حياة رجل واحد لا تكفى لقراءة نصف ما كتب فى أثناء القلاقل والاضطرابات، وهذا يذكرنى بحكاية فى هذا الموضوع رواها لى الأب بلانشيه، وسأقصها عليك كما أتذكرها، وأسف على أن الأب بلانشيه ليس هنا ليقصها عليك بنفسه، لأنه حاضر المخاطر غير البديهة.

وهذه هى الحكاية:

لما خلف الأمير الصغير زمير والده على عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم: «لقد علمنى مؤبى العلامة ذيب أن الملوك إذا استرشدوا بتجارب الماضين قلت أغلظهم، ولذا صحت عندى الرغبة فى الاطلاع على تاريخ الأمم، وإنى أمركم بوضع كتاب يشمل التاريخ العام، ولا تفرطوا فى شىء حتى يجرى الكتاب كاملاً.

فوعدت جماعة العلماء بتلبية طلبه، ولما انصرفوا من حضرته، شرعوا يؤلفون فوراً، وبعد مضى عشرين عاماً مثلاً بين يدى الملك وقد تبعتهم قافلة مكونة من اثنى عشر جملاً، كل منها يحمل خمسمائة مجلد، ثم تقدم عريف الجماعة وسجد على أعتاب العرش وتكلم قائلاً: «مولائى،

يتشرف علماء مملكتك بأن يضعوا عند قدميك التاريخ العام الذى جمعه تنفيذاً لمشينة جلالكم، وهو يدخل فى ستة آلاف مجلد، ويتضمن كل ما تيسر جمعه عن عادات الأمم وتقلبات الدول، وقد أدمجنا فيه المدونات التاريخية القديمة التى لا تزال - لحسن الحظ - محفوظة، وقد أتبعناها بشروحات وأقنية وتعليقات ضافية عن مواقع البلاد والتقويم والعلاقات السياسية، والمقدمة وحدها يحملها جمل، والتعليقات والإضافات يبرز تحت عيها جمل آخر.

فأجاب الملك:

«أيها السادة، أشكر لكم ما تجشتم من عناء، ولكنى جد مشغول بشئون الملك، وفضلاً عن ذلك قد تقدمت سننى فى غضون المدة التى توفرت فيها على تأليف الكتاب، وقد بلغت منتصف طريق الحياة، كما يقول الشاعر الفارسى، وحتى لو أوتيت بسطة فى العمر وامتداداً فى الأجل فلست أمل أن أجد وقتاً يكفى لقراءة مثل هذا التاريخ المطول، وسيحفظ فى محفوظات الدولة، فأحسنوا صنعا بعمل ملخص له أكثر ملاءمة لقصر الحياة البشرية».

فاستغل علماء فارس عشرين سنة أخرى، وحملوا إلى الملك فى نهايتها ألفاً وخمسمائة مجلد على ثلاثة جمال.

وتقدم عريفهم الدائم، وقال بصوت واهن: «ها هو يا مولاي كتابنا الجديد وفى اعتقادنا أننا لم نحذف شيئاً جوهرياً».

فأجاب الملك: «قد يكون ذلك، ولكنى لن أقرأه، فقد علتى الشيخوخة، والكتب المطولة لا تلائم سننى، فاختصروه ولا تطيلوا الغيبة».

فلم يترثوا إلا قليلاً، حيث عادوا بعد عشرة أعوام، يتبعهم فيل صغير يحمل خمسمائة مجلد.

وقال عريفهم الدائم: «فى حسابنا أننا قد اختصرنا الكتاب اختصاراً مفيداً»، فقال الملك:

«لم تختصروا الكتاب اختصاراً كافياً...»

إنى فى نهاية حياتى، فاخترتكم ثم اختصروا، إذا كنتم تحرصون على أن أعرف تاريخ البشر قبل أن أموت»

وظهر عريفهم الدائم أمام باب الملك بعد خمس سنوات، وهو يذب متوكئاً على عكازه، وقد أخذ بلجام جحش يحمل مجلداً ضخماً على ظهره.

فقال له الحارس: «أسرع فإن الملك يحتضر»، والواقع أن الملك كان على فراش الموت، فحول نظرتة التى أخذت تنبؤ فيها علامات الموت إلى العالم وكتابه الضخم، وقال متنهداً:

«سأمت إذن دون أن أعرف تاريخ بنى الإنسان» فأجابه العالم الذى كان مثله على أبواب الموت: «مولاي سألخصه لك فى ثلاث كلمات: «ولادوا وتكلموا وماتوا!».

وهكذا عرف ملك فارس تاريخ العالم فى مساء حياته»

أونا مونو والعبقرية الأسبانية

لم يستطيع الأسبانيون أن يغفروا للكاتب الفرنسي تيوفيل جوتييه قوله: «إن أفريقية تبتدئ من جبال البرانس» وحقيقة أن أسبانيا في العصر الحديث ليست في طليعة القوى السياسية أو الاقتصادية في أوروبا، ولكنها مع ذلك أمة ذات حضارة مجيدة، وماض باهر، وأثر بارز في حياة أوروبا الروحية. وعلى يد أسبانيا تم كشف أمريكا، وهي حادثة من أروع الحوادث في تاريخ العالم بأسره منذ سقوط الدولة الرومانية، ولم يكن ذلك الكشف هدية قدمها الحظ، وسمحت بها الأقدار، وإنما كان آية من آيات اليقين الصادق، وثمرة من ثمرات الخيال المبدع، وقد تلاه عهد رحلات استطلاع، وأسفار استكشاف، ويكون في مجموعته أعظم سفر من أسفار المخاطرة والإقدام في تاريخ البشرية، ولا يزدى به ويقل من بهائه ما علق به من غبار المطامع، وأفانيل القسوة، وإراقة الدماء.

وعندما تنتقل من التاريخ إلى الأدب نجد أن عبقرية أسبانيا في الأدب من العبقريات المنتجة الممتازة، فأسبانيا تقاسم إنجلترا شرف السبق إلى إيجاد المسرح القومي، وعصرها الذهبي في الأدب يقارن بالعصر الإليزابيثي عند الإنجليز، وعهد لويس الرابع عشر عند الفرنسيين، فهو غنى في الشعر والرواية وسائر ضروب الإنتاج الأدبي، وأضخم الأسماء وأسيرها في الأدب الأوروبي عامة هي أسماء شكسبير، وسرفانتيز، ودانتى، وجيتى.

ولا نزاع في أن رواية «دون كيشوت» من أعظم الكتب التي ظهرت في أي لغة من اللغات، وأي عصر من العصور، وقد كانت مرجعاً ووحياً لكثير مما كتب بعدها في الرواية وغيرها من ألوان الأدب، وأوفر الشخصيات المبتكرة في الأدب نصيباً من الخلود هي شخصية هملت، وفواوست، ودون كيشوت، ودون جيوان، وسيبقى دون كيشوت ما بقى في الإنسان عاطفة يثيرها حب العدالة والتعلق بالمثل الأعلى، وسيخلد دون جيوان ما بقى حب المرأة متصرفاً بأهواء الرجال.

فأسبانيا إذن قوة روحية يحسب لها حساب، ويقام لها وزن، على أنه يلاحظ أن ما قدمته أسبانيا للثقافة الأوروبية في عالم التخريبات والمبادئ أقل شأنًا، وقد نبغ في أسبانيا بعض العلماء والفلاسفة، ولكنها لم تخرج عبقرية من الطراز الأول في العلوم أو الفلسفة، فليس عند الأسبانيين من يضارع نيوتن في العلوم، أو ديكارت في الفلسفة، ولم تظهر في جنوب جبال

البرانس حركة فلسفية ملحوظة، أو نهضة علمية ماثورة، ويطل بعض مفكرى الأسبانيين ذلك يتقلقل الفردية فى نفوس الأسبانيين، لأن تلك الفردية المتمادية تعوق تحول الأفكار الشخصية إلى مذاهب اجتماعية أو حركات فلسفية، وأسبانيا لم تقدم شيئاً يذكر للتفكير المجرد والبحث العلمى، والعقل الأسبانى بطبيعته قليل الإقبال على التجريدات، ولا يستسيغ فى سهولة ويسر التفكير النقى الخالص، ودأبه سواء فى الأدب أو الفن أن يجعلهما وسيلة للحياة، لأن الحياة فى رأيه أكبر وأجل من الفن والأدب، وهو يعتمد على الاستجابة للقلب الإنسانى مباشرة أكثر مما يعتمد على الأسلوب ومذهب الإنشاء، وفرط حبه للحياة يغريه بتجاهل الفضيلة، ويبعده عن التعصب لها، لأن الفضيلة جزء من الحياة، والجزء مهما عظم شأنه أقل من الكل، ولا يستحق من أجل ذلك رعاية خاصة، ولذا لا تلمح فى الروايات التى جادت بها العبقرية الأسبانية تقضيلاً لأحد الأشخاص على الآخرين، والجميع عندهم كما يقول المثل الأسبانى: «أبناء الله»، وهذه النزاهة الأدبية بادية فى كل الآثار العظيمة عند الأسبانيين فى الأدب والفن، تطالعا فى كل صفحة من صفحات «دون كيشوت»، وتلمحها فى كل صورة من صور «فيلاسكيه».

والأدب الأسبانى يحاول أن يصف الإنسان من حيث هو إنسان مكون من لحم ودم وأعصاب وعظام، ولا يطبق أن يجعله «فكرة» باقية أو يصيره «قالباً» متجدداً. والفرق بين عبقرية سرفانتيز وعبقرية جيتى هو أن سرفانتيز كان يعتمد على الحياة وحدها، أما جيتى فإنه كان يسترشد بفلسفات وموازين أدبية وقواعد فنية يستمد منها، ويستقى من منهلها. وأوروبا تنزع فى تفكيرها إلى «الموضوعية» وترغم الإنسان على أن ينيم أهواءه، وينسرح من ذاتيته، ليستطيع العقل أن يفهم الأشياء فهماً سليماً، ويكون لها صورة صحيحة، أما فى أسبانيا فإن الإنسان فى ذاته بقضه وقضيضه هو محور فلسفتها وأساس فنها وأدبها.

والعبقرية الأسبانية ضيقة المدى، ولكنها عميقة مثرية، وفكرة الموت لها فى الأدب الأسبانى كبير شأن، لأن الأدب عندهم يدور حول الإنسان الفرد، وهذا الإنسان الفرد هو تاج الخليفة وخلاصة الوجود، ولكن الموت يثل عرشه، ويهدم إيوانه، وأسبانيا تخون فرديتها، وتنسى رسالتها، إذا كانت تقبل فكرة بقاء الإنسان فى نوعه أو فى أعماله، لأن تصور «الشعب» والأجيال القادمة، فى رأى العقيلة الأسبانية تجريدات لا حقيقة لها، وإنما الإنسان «الفرد» هو الحقيقة، وهو الذى ينتزع الموت، ويطويه الفناء، فشدة شعور العبقرية الأسبانية بالحياة يصحبها شعور حاد مؤلم بسطوة الموت وغلبة الفناء، ولكن العبقرية الأسبانية لا تستسلم لفكرة الموت ففى أعماقها كنوز من النشاط والهمة والعزيمة الماضية كافية للتغلب على الألم ومكافحة اليأس، ومن هذا النبع العميق للحياة تنبجس فى نفسها الصوفية.

والقوة الخالقة فى الأدب الأسباني أقوى وأوضح من القوة الناقدة، والأدب الأسباني فى تطوره يتبع العبقريّة القوميّة ويخضع لها، ويرفض كل إملاء عقلى أو قاعدة مفروضة، ويستهدى بغريزة الشعب التى تحدوه على تأمل الواقع وتفسيره تفسيراً مباشراً، وهذا هو سبب طرافة الأدب الأسباني واستقلاله.

وقد كان الكاتب الأسباني الكبير ميغيل أونامونو «المتوفى فى آخر عام ١٩٣٦» فى رأى الكثيرين أكبر ممثلى العبقريّة الأسبانية فى العهد الأخير، وهو يمثل نفسية أسبانيا المتناعة الحائرة، وحالتها المتناقضة، ومثلها العليا المتعارضة، وروحها المترددة بين الشك القوى والإيمان الشديد.

وقد ولد فى مدينة بلباو عام ١٨٦٤، وفى عام ١٨٩٢ عين أستاذاً للغة اليونانية فى جامعة سلمنقة، وفى عام ١٩٠٠ صار رئيساً لها، ثم شرع يكتب فى الجرائد فصولاً شديدة اللهجة، ويحمل على الحكومة حملات شعواء، فحكم عليه بالحبس مدة ست عشرة سنة، ولكن لم ينفذ ذلك الحكم، وبعد زيارة طويلة لفرنسا عاد إلى سلمنقة، ولكنه ظل يتابع نقده اللاذع الجريئ لأعمال الحكومة حتى اضطرها إلى نفيه فى جزائر كنارى عام ١٩٢٤، ثم ألغى الحكم، ولكنه رفض العفو، ولم يقبل أن يعود إلى أسبانيا فى عهد الديكتاتورية وأقام فى باريس زمناً، ثم انتقل إلى الجنوب ليكون على مقربة من الحدود الأسبانية، وظل متابعاً نقده لحكومة بلاده ساخراً من الملك ألفونسو ورجاله، ولما انتهت الديكتاتورية عام ١٩٣٠، عاد من منفاه، واستقبلته الجموع الغفيرة استقبالا رائعاً، ولما تألفت الجمهورية سرعان ما وجدت فيه ناقداً لا يرحم عجزها، ولا تكل عينه عن عيوبها، ولما قامت الثورة ناصر الثائرين لاعتقاده أنهم يدافعون عن الحضارة ويقاومون الفوضى، ولما مات فى آخر عام ١٩٣٦، قال عنه أصدقاؤه العارفون بأخلاقه: إنه لو مد فى أجله ورأى انتصار الثوار لانقلب ضدهم، ويؤيدون ذلك مستشهدين بقوله: «كل من ينتصر سيرانى فى الصف الآخر».

وقد شبهه أحد المصورين الهازلين بالبوّة، وهو تصوير قد أصاب المحز، فقد كانت عيناه تنفذان فى ظلام ليل الروح، وتديمان النظر إلى لغز الوجود، وتحومان حوله فى يأس ولهفة. وكان فريدياً معتزلاً بغربيته فى تلك الأيام التى راجت فيها المبادئ الشيوعية والاشتراكية، وذاعت الفاشية والنازية، وهى مذاهب لا تعنى بالفرد، وتحاول أن تطويه فى غمار الجماعة.

ولكنه لم يكن يواجه المجتمع بغربيته على أسلوب الفوضويين، فقد كان له من تدينه العميق وتقائيد أمته ما يحميه من الوقوع فى أشراك الفوضوية، وإنما كان يعبر بذلك عن النزعة الإنسانية الغالبة على فنونهم وآدابهم، وكل شعب من الشعوب تشغله مسألة الإنسانية وتستأثر بنصيب من تفكيره، ولكن كل شعب يعالجها على طريقته الخاصة، والإنسان فى رأى

الأسبانيين هو الإنسان المعين المصور من لحم ودم، والأدب والفن عند الأسبانيين يتناولان هذا الإنسان المعين المحسوس، ولما كان أقرب إنسان معين محسوس إلى الإنسان هو نفسه، فلذلك كثر اشتغال أونامونو بنفسه وما يجيش بها من عواطف ويضطرب فيها من خواطر وأفكار، وهو يرفض الاستسلام للتجريدات، ولا يرى فيها سوى خرق بالية تستر الأفكار الميتة، وهو لا يعنى بغير حياته الخاصة، فهل هذا موقف أنانية وتخايل بالشخصية كالموقف الذى نعهده فى بعض الكتاب المفتونين بأنفسهم، والذين ينتهى بهم الأمر إلى ضرب من ضروب «الترجسية» السقيمة؟ أونامونو يستطيع أن يرد هذه التهمة عن نفسه، فهو لم يتصور الوجود مرآةكبيرة لا يطل منها على غير سحتته، ولم يفتن فى الإعلان عن نفسه بالأساليب المعروفة عند «كواكب» الأدب فى عالمنا الحديث؛ وإنما كان يدير الطرف فى أعماق نفسه، ويبالغ فى استقراء خواطره وشجونه، لأنه يحس أننا كلما تعمقنا فى بحث النفس التقينا بإخواننا فى الإنسانية، فما إخواننا هؤلاء إلا فروع نابئة من أصل تلك الشجرة، وإخلاصه الشديد للحياة وفرط تعلقه بها كان يبعثه على أن يقف طويلاً أمام كل فكرة تطوف بذهنه وتتضمن الشك فى البقاء وتميل إلى إنكار الخلود، وقد كان يحس وراء كل فكرة مقنعة عن ضرورة الفناء إرادة الحياة القوية الباقية، فيلجئ أن يهزم عقله إيمانه، ويظل ظامئاً إلى الخلود حالماً بالأبد، وهذا الصراع العنيف بين حب الحق والإخلاص للحياة هو أساس فلسفته التى بسطها فى كتابه «معنى الحياة المحزن» وهو خير ما كتب، ومن أروع ما أخرجته العبقريّة الأسبانية فى العصر الحديث.

وهو يتحدث فى هذا الكتاب عن الرغبة فى الحياة والظمأ إلى الخلود، والأساليب التى جرى عليها المفكرون والفلاسفة فى بحث هذا الموضوع، ثم يستمسك بكلمة ترتليان المشهورة: «إن هذه الفكرة سخيفة ولذلك أومن بها» ويقاوم بها الموقف الانتقادي الذى ينكر إمكان الخلود الفردى، ويجد عقله صعوبة فى السمو فوق الشكوك، ولكن يقينه يستلزم تأكيدات غير خاضعة للعقل، وفى معترك هذه العواطف ومن أعماق تلك الهاويات يقيم نظريته، وأساسها بقاء الرغبة فى الحياة، ويتسع حب النفس عنده حتى يشمل كل ما يريد الحياة ويتعلق بالوجود، والظمأ إلى الخلود هو الذى يوسع دائرة الحب.

ومن أقواله فى ذلك الكتاب: «إن الأمل ضعيف فى هؤلاء الذين لم يفكروا ولو تفكيراً غامضاً فى المبدأ والمصير، وفى ماذا ولماذا، وأمثال هذه المسائل لا يتناولها الإنسان بالعقل وحده، وإنما يتناولها بقلبه، إذ لا يكفى أن نفكر فى المصير، وإنما يلزم أن نشعر بذلك، والذى لا يأتى لذلك ولا يعنى به لا يستحق أن يقود الناس ويتصدى لإرشادهم، وليس معنى ذلك ضرورة إيجاد بعض الأذكىاء الأغبياء— ولا غرابة فى ذلك فقد يجتمع الغباء والكفاية غباء

الإحساس ونقص الإدراك الأدبي - يقول أمثال هؤلاء الأذكىاء: إنه لا فائدة من الغوص على المجهول، ولكننا لو قصرنا في ذلك شعرنا بأن شيئاً ينقصنا، والبعض يدعون أنهم لا يشعرون بذلك نفاقاً ورياءً، وقد قال أحد هؤلاء المتحذلقين لسولون الحكيم وقد فقد ابنه ورآه باكياً: «لماذا تبكي هكذا إذا كان البكاء لا يجدى شيئاً؟» فقال الحكيم: «إنما أبكي لذلك» ومن الواضح أن البكاء يجدى ويبرد لوعة الحزن، وقد يكون في البكاء حكمة فوق كل حكمة.

ويقول في موضع آخر: «الإنسان يريد الأبدية، فما معنى قول شكسبير: «أكون أو لا أكون» معناه طلب الأبدية، وهو يقول في كوريوليس: «هو لا يريد شيئاً من الله سوى الأبد» والأبد هو الأمنية الكبرى، والظلم إلى الأبد هو ما يسميه الناس الحب، والذي يحب إنساناً إنما يود أن يصير أبدياً بمعاقبته، ولا شيء يكون حقيقياً إلا إذا كان أبدياً، وروية الحياة، وهي تنساب من بين أيدينا انسحاب الماء، قد أثارت الحزن وأصعدت الآهات، فمن قول كالدرين: «إن الحياة حلم» إلى قول شكسبير: «إننا من مادة كالتي صيغت منها الأحلام» وكلمة شكسبير أشد حزناً وأبلغ أسى من كلمة كالدرين، لأن كالدرين يرى أن الحياة حلم، أما شكسبير فيرى أننا أنفسنا حلم، وأتينا حلم يحلم، والشعور بالحب، والإحساس بزوال الحياة وغرورها ومتاعها هما أساس الشعور الصادق، وهما وتران في النفس، لا يتحرك أحدهما إلا تحرك الآخر، فالشعور بزوال الحياة يشعل الحب في نفوسنا، وهو الشيء الوحيد الذي ينتصر على الفناء ويملا الحياة ويجعلها أبدية، ولو في المظهر، ويرى الكثيرون أن عبادة الأجداد هي أهم مصادر الديانات القديمة الأولى، ومن مميزات الإنسان اهتمامه بآثار موته والحفاظ علىها، وهي دليل الجزع من الفناء ومحاولة إخفاء مظاهره، ولقد عني الإنسان ببناء المقابر قبل أن يبتنى البيوت ويقيم القصور، وأيام كان يسكن الغيران ويأوى إلى الكهوف، وقد استعملت الأحجار للمقابر قبل أن تستعمل في تشييد البيوت، والمقابر هي التي بقيت على كر الدهور، وعقيدة خلود النفس هي التي حفظت الأديان».

وهو يلخص موقفه في قوله: «ديانتى هي أن أصارع بلا انقطاع وفي غير نية ولا سأم لغز الوجود، ولا أستطيع أن أعقد هدنة مع المجهول، وليس اليقين شيئاً يعثر عليه في قارة الطريق، وإنما يلزم أن نتزعزع من إغراءات الشكوك وغوالب الظنون، وإلا كان قليل الثمرة زائل الإنتاج».

وبعد فإن تفسير شخصية غامضة غريبة مثل شخصية أونامونو ليس من الأمور الهينة، وكتابه الذي تحدثت عنه أجل شأناً من أن تظهر قيمته وتبين أهميته أمثال هذه المختارات القليلة التي عرضتها، وأرجو أن أكون بما قدمت قد استرعت النظر إلى طرافة تفكير هذا الكاتب الكبير الذي كان في حياته العامة والخاصة مثالا للمفكر الذي يعرف رسالته ويقدر

خطورة موقفه، فلا يسف طمعاً في شهرة عاجلة، أو تطلعاً إلى مصلحة مرجوة، أو منزلة مرموقة، وأمثاله قليلون في هذا العصر الذي استدعت أحواله أن يصدر الكاتب الفرنسى جوليان بندا كتاباً خاصاً عن «خيانة الكتبة»..

أحزان بابيني

«لم أكن يوماً ما طفلاً، وليس لى سابق عهد بالطفولة.

فما هى أيام الطفولة النضرة الضاحية وأحلامها الذهبية الهائلة؟ وما تلك البراعة الرفافة الوريقة، وذلك الابتهاج الذى يشيعه فى النفس تكشف أسرار الكون والاهتداء إلى عجائبه؟
لم أعش فى كتف الطفولة، ولم أنعم بظلالها، ولقد وعدتني أيامها الفر وعهودها الحسان.
لقد عرفت عنها بعد ذلك أشياء من الكتب، وتوسمتها فى محيا الأطفال الذين ألقاهم، ولم أدرك أنى قد اجتزت عهدها ولا بستني صفاتها وعرفت بشاشتتها إلا بعد أن أريت على العشرين سننى، وفى فلتة من فلتات النسيان وومضة من ومضات الصفاء.
الطفولة معناها الحب والمرح وعدم الاكتراث، ولقد وجدتني فى سالف الأيام وحيداً مهموم البال.

منذ نشأتى وأنا أشعر شعوراً قوياً بالعزلة والتفرد، ولست أدرى لم ذلك؟ لأن قومى كانوا فقراء معسرين، أم لأنى ولدت فذاً مختلفاً عن سائر الناس؟
لا أستطيع أن أعرف، ولا أن أدلى برأى، ولا أتذكر سوى أن عمة لى صغيرة السن لقبتنى بالكهل، وقبل أقاربى جميعهم هذا اللقب، وصاروا يدعوننى به، والواقع أنى كنت فى أغلب الأوقات منقيض النفس ملتزماً الجد الصارم.

كنت قليلاً ما أحادث أترابى من الأطفال، وكنت أضيق بالوان المجاملات وأمقت مظاهر التكلف، ولا أنشاطر أقرانى لهوهم وعبتهم فى أسعد أوقات حياتهم، وأوتر أن أوى إلى ركن مظلم، وأنتحى ناحية مهجورة فى منزلنا الصغير الزرى، وكان الجميع يمقتوننى أشد المقت، وكنت أشعر بشدة الكراهية التى يضمرونها لى، فيزيدين ذلك احتجاجاً وهماً، ورغبة فى العناد والمشاكسة، وعندما كانت تجمعننى المصادفة بغيرى من لداتى الأطفال، كنت لا أشتكر فى ألعابهم وأظل مجتنباً لهم، معرضاً عنهم، ناظراً إليهم من سماوة جدى الصارم بعين الناقد الزارى، أو عين العدو الكاشع، لا لأنى كنت أغبطهم، فقد كنت لا أشعر نحوهم بغير الاحتقار.

ومن ذلك الوقت بدأت الحرب بينى وبين بنى الإنسان، كنت أباعدهم وأتحاسنى لقاهم، وكانوا يهملون شأنى ولا يعنون بأمرى، كنت أبغضهم وأزهد فيهم، وكانوا يظهرين لى العداء ويضطهدوننى، وكان أقاربى يجاملوننى مراعاة للعرف، وكان يسوغنى هذا التظاهر بالود

فأقابله بخشونة وجفاء.

كنت لا أدخل السرور على قلوب الغير، وزادني عداة الناس لى تجافياً عنهم وتشبهاً بالوحدة وإصراراً عليها. وزادتنى الوحدة هماً على هم، وهذا الهم الملازم أغلق قلبى، وألهب فكرى، وزادنى شذوذاً، وجعلنى غريباً بين الأهل والأقارب، وهكذا منذ بدء حياتى، شرعت أعل وأنهل من ذلك الحزن المجهول غير المحدود الذى لا يشفى من دائه ولا يستعان عليه بالسلو والنسيان، كنت أعيش فى دنيا من تصنيف أوهامى، ولا ترف على وجهى ايتسامة، ولا يستخفى مرة الطرب، وكنت صاحب الوجه حائر النظرة، وأعود فأكرر إنى لم أكن يوماً ما طفلاً.

أسلمتنى هذه الحالة إلى ضرب من ضروب التشاؤم الأصم المفلق، وأخذت أسائل نفسى عن قيمة الحياة وغرضها، فلم أفرز بجواب أطمئن إليه، ولم أجد عزاء، لأن الحياة لم تفدى بشىء، ولم تمنحنى شيئاً، ولم يكن لى أمل فى الثراء، ولا نيل الفخار فى مجال المعرفة، لأنى لم ألتق سوى دراسة مدرسية محدودة، ولم أحلم بالفوز فى ميادين الحب وغزو قلوب النساء، لأنى كنت دميماً جم الحياء والتردد، وقليل من الناس كان يحفل بى، ولم يحبنى أحد غير والدى ووالدتى، ولقد كانت هذه النفس التى نبتت منهما شاذة عجيبة حتى فى عينيها، ولقد ولد ذلك فى نفسى الاعتقاد بظلم القضاء، والشعور بفرور الحياة.

بهذه الكلمات التى تنضح بالمرارة استهل الكاتب الإيطالى القدير جيوفانى بابيى كتابه «إنسان كامل». وبابيى علم من أعلام الأدب الإيطالى الحديث، وأحد ممثلى الثقافة الإيطالية الاقلاء المعدودين، وفى حياته ظاهرة تستدعى التفكير والمراجعة فى هذه الأيام التى تكتوى فيها الأمم بنيران تلك الحرب المشبوبة، وسأشير إليها فيما بعد.

ولد بابيى بمدينة فلورنسا فى ٩ يناير عام ١٨٨١، من أبوين فقيرين، وكان والده صانع أثاث رقيق الحال، ولكنه مع ذلك حر الفكر، متقد الذكاء.

ومنذ تعلم بابيى القراءة أولع بالاطلاع، وأقبل على تحصيل المعرفة والاستزادة من العلم، حتى خطر له أن يقوم بتأليف «موسوعة» وأخذ يعنى فى الاطلاع، ويكثر من القراءة، ويسجل ملاحظاته، ويجمع مختلف المعلومات وينسقها، وصادفته عقبات لم يستطع التغلب عليها، فهجر فكرة الموسوعة، وأخذ يفكر فى كتابة تاريخ العالم ابتداء من الخليقة إلى العصر الحاضر، لأن الحاجة ماسة إلى مثل هذا التاريخ! والإنسانية الضاربة فى الظلام، والفارقة فى الفوضى لاريب فى حاجة إلى الاسترشاد بضوء هذا الكتاب الحفيل فى التاريخ العام الذى يقدمه لها الشاب الفطن المجرب والمؤرخ الحجة «بابيى»، ولكن صاحبنا على ما يظهر كان موعوداً بالعقبات التى تعترض طريقه، فالدنيا خلقت حسب النصوص الدينية فى ستة

أيام، وهو يحاول أن يفسر التاريخ تفسيراً علمياً جديراً بطالب ناضج مثله في الخامسة عشرة من عمره المبارك، ثم حاول أن يتعلم العبرية ليسهب في الشرح ويجيد التعليق، ولكنه وجد أن الموضوع سيطول ويتشعب، ففكر في أن يضع كتاباً في الآلب المقارن.

وانغمس في الاطلاع والقراءة حتى تأثت عيناه، وتداغت صحته، واعتل مزاجه، واستولى عليه التشاؤم، ولون أفكاره بلون قاتم، وأخذ عليه مسالك خطراته، واقتفى آثار شوينهاور، وحاول أن يجعل تحبيذ الانتحار رسالته الأدبية السامية، ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يتقدم هو إلى الهاوية شأن الشجعان، ويضرب للناس مثلاً شروداً في رفض الحياة وإنكار النفس؟ ولكنه أقنع نفسه بأنه إنما يعيش ليذيع رسالته ويحمل غيره على ذلك، ثم أدرك غرابة موقفه، وأغضبه ذلك فصب غضبه ونقمته على طائفة من الفلاسفة في كتاب أسماه «فجر الفلاسفة».

ثم أنشأ هو وجماعة من أصدقائه مجلة لترويج آرائهم الأدبية ونقد مذاهب الفكر السائدة، وبدأ يشرح فيها فلسفة وليم جيمس، واشترك بعد ذلك في تحرير طائفة من المجلات، وأخرج كتباً شتى بين نقد وقصص وشعر، تمتاز جميعها ببلغة الأسلوب وحرارة العاطفة وقوة التفكير، وقد ظل يجاهد جهاداً متواصلاً، ويصدر الكتاب تلو الكتاب، دون أن يعلو صيته ويعرف اسمه خارج إيطاليا، حتى وضع كتاباً عن حياة السيد المسيح، فذاع اسمه في الخافقين، وأقبل الناس على قراءة كتابه ودراسة أدبه ومعرفة شخصيته، وسبب الضجة التي أثارها الكتاب هو أن «بابيني» كان معروفاً من قبل بأنه ملحد متطرف في إلحاده، وكان موصوفاً بسلطة اللسان، وشدة النقد، والاستطالة على الكتاب، والتيل منهم بالعبارات الجافية، واللغة الساخرة في غير موارد ولا تردد، فكيف انقلب هذا الأستاذ البار في صناعة الرمي بالقوارص والقذف بالمقذعات، وهذا الملحد الفوضوي مؤمناً يترجم للسيد المسيح ويعجب بتعاليمه ويرتضى مذهبه؟ وما سر هذا التحول من النقيض إلى النقيض؟

وجه إليه هذا السؤال فاجاب:

«إن الحرب هي سبب هذا التحول الذي حيرَ عقول الناس، فعندما استمرت الحرب، وأخذت تخوض غمارها الأمة بعد الأمة، منساقاً بعواطفها دون فكر ولا نظر، ورأيت الفريقين المتحاربين يمعنان في التخريب، ويسرفان في سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، ضحككت ضحكة مرة خالية من أثر السرور، لأن سوء ظني بالإنسانية قد تحقق، ولقد كنت أعتقد من قبل أن الإنسان مجرم أبله، وأنه غير أهل للخير، وأنه مطبوع على الشر، وأن النزعة الغالبة عليه هي الرغبة في التدمير والإفساد، نعم ضحككت وسررت لأن يقيني العميق قد قامت على صدقه

ولكن هذا الشعور بالشماتة والازدراء سرعان ما مضى لسبيله، وأخذ يتردد في نفسى سؤال: لم هذا كله؟ وما سبب كل هذا القتل والتدمير؟ وأقبلت على قراءة التاريخ لأستزيد من دراسته، وعدت إلى أقدم الأزمنة، إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد، ورأيت أن الأمم فى مختلف العصور كلما جرت فى مضمار التقدم انسأفت إلى الحرب، وأن هذا الترقى لا يؤدى إلى الحرب إلا لوهم الدين القائم على روح الحب الصائق، وبدا لى أن الحرب هى النتيجة الطبيعية المحتومة لك.

بدأت أعيء النظر فى تاريخ الرأسمالية، والنهضة الصناعية، وتقدم إيطاليا، وتقدم أوروبا منذ القرن الخامس عشر، وأرسلت الفكر فى تحرى الأسباب والنتائج، فلم أر إلا الحرب والتدمير.

أليس هناك ما يساعد تجنب هذه الطرق المفضية إلى الهلاك وتلافى هذه المأسى المروعة ومحوها وإزالتها؟
استبان لى أن الحل الصحيح والطريق السوى هو تبديل روح الإنسان وتحويلها إلى الدين.

شرعت بعد ذلك فى إعادة قراءة كتب تواسى وستوفسكى، وأخذت أدير الطرف فى أنحاء نفسى منقباً فى أعماقها باحثاً فى ظلماتها، فلم أستطع الفرار من مواجهة هذه النتيجة التى انتهت إليها، وهى أنه لا نواء يستطع به من داء الحرب والتدمير والتخريب سوى «الدين» القائم على روح الحب.

وأترك بابيى عاقبة إعلان مثل هذا الرأى، وما يجره عليه من خلاف، وما يثير حول اسمه من لفظ بين الكتاب والمفكرين، ولكنه كان فى مختلف أدوار حياته إذا أمن بفكرة أقبل عليها بنفس مجتمعة غير موزعة، وأسرف فى الإخلاص لها، والنود عنها، وعرف أن خصومه سيتلقون هذه العقيدة الجديدة بالزراية والسخرية، ويكيلون له التهم، ولكنه اعتقد أن طريق الخلاص قد وضحت محاله واستبانت أضواؤه، وليس من شأنه أن يحجم وينكص على الأعقاب، ويتردد فى إبداء رأى مهما يكن مخالفاً لسابق آرائه خشية سوء القالة، وهو الذى لم يسلم من لسانه كاتب ولا ناقد، ولم ينج من هجومه مذهب من المذاهب، وفرغ لإتمام كتابه عن حياة المسيح، ولما أذاعه لم يقصر أعداؤه فى اتهامه بأنه إنما تحول إلى الله ليركع فى معبد «مامون».

وبعض المفكرين الإيطاليين نوى المكانة يشيرون عند تحدثهم عن «بابيى» إشارات خفية تتم على سوء ظنهم بهذا التحول الفجائى من الإلحاد إلى الإيمان، وهم بطبيعة الحال أعرف

منى بأنيبيهم الكبير، وأدري ببواعثه، ولكن ما لمحتة فيما تيسر لى قراءته فى كتب هذا الرجل من صراحة فى قوله الحق، وجراًة فى النقد، وحرارة فى الأسلوب، يجعلنى أتردد كثيراً قبل أن أشك فى حديثه، وأستريب بإيمانه، ولعلنى هذه المرة غير مخدوع فى الطبيعة الإنسانية ولا فى أخلاق بعض الكتاب والمفكرين.

هذه هى الظاهرة التى أردت أن أشير إليها فى حياة «بابينى» بمناسبة الحرب الأخيرة، فهل حقيقة أن العودة إلى الدين والاستمسك بأصوله، والتشبع بروحه تقضى على أسباب النزاع وعوامل الشقاق بين الأمم؟ وهل فى تاريخ الأديان وماضى الحضارات ما يؤيد هذا الرأى؟

يقول الدوس هكسلى فى كتابه القيم «الغايات والوسائل» ما معناه: أن أنبياء الإنسانية من لدن أشعيا إلى كارل ماركس متفقون فى أن الغاية التى تعمل على تحقيقها الإنسانية هى الحرية والسلام والعدالة والحب الأخوى، ولكن الاختلاف على الوسائل، فالبعض يرى أن الطريق الملكى هو الإصلاح الاقتصادى، والبعض يرى أنه الغزو والفتح، والبعض يرى أن التحليل النفسى هو خير علاج وأقرب سبيل، والبعض يرى أنه لا يمكن تحقيق ذلك دون الاستعانة بقوة أكبر من قوة الإنسان، فالعودة إلى الدين هى السبيل الوحيد.

ولكل مذهب من هذه المذاهب شيعته وأنصاره والمتعصبون له، ولكن ما السبيل إلى ترجيح أحد هذه المذاهب على الآخر؟ السبيل إلى ذلك المحاولات التى تستغرق فى هذا العصر جهود المفكرين على اختلاف آرائهم وتباين أساليبهم، وأخشى ما يخافه الناس أن يظل الخلاف على اختيار الطريق قائماً، والنقاش مستمراً، فلا تصل الإنسانية إلى الحرية والعدالة والسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

البطل المعلوم والبطل المجهول

من مشكلات فلسفة التاريخ التي لا يفتأ يثور حولها الجدل وتختلف الآراء مسألة تقدير العوامل المتباينة المؤثرة في سير التاريخ، وأنها أحق بالصدارة وأجدر بالنظر والتحليل، فيبعض المفكرين يرون أن الرجل العظيم أو البطل هو العامل الحاسم في سير التاريخ، وأن سائر العوامل ليست بذات شأن إذا قيست به وقرنت إليه، وقد لخص توماس كارلايل - أقوى المدافعين عن هذا الرأي - هذه الفلسفة في جملة واحدة قاطعة فقال: «إن تاريخ العالم في جوهره هو سير الأبطال» والمتحمسون للأبطال على طراز كارلايل يقولون إن البطل هو بادئ الحركات، وخالق القيم، وموجد النظم، وأن الرجل العظيم بشخصيته المنيفة، وإرادته المصممة، يوجد التاريخ، ويصرف الحوادث، ويرسم الاتجاهات البعيدة، ويفرض على المجتمع صور الحضارة وألوان الثقافة، ويمتد تأثيره، ويترامى ظله إلى المستقبل، والعظماء يشبهون القمم العالية، تشرق عليها أشعة الأفكار الكبيرة، ثم تتحدر الأشعة من تلك القمم العوالى إلى الشعب.

ولكن هذا الرأي لم يسلم من النقد، ويرى فريق من ناقديه أن الرجل العظيم لكى يقوم برسائله وينجز واجبه، لا معدى له عن أن يجد «المادة الخام» التي تتناولها يده الصانعة، وتستبين في تشكيلها قدرته، ولهذه المادة طبيعتها وخواصها ومميزاتها التي لا يسعه إهمالها وإغفال شأنها، وهى تؤثر في سير التاريخ بتغير البطل نفسه، والبطل فى دوره كذلك متأثر إلى حد كبير بالوسط والبيئة وملابسات الأحوال.

ويسترعى أمثال هؤلاء النقاد نظرنا إلى أن الكثير مما يعزى إلى العظماء إنما هو من نسج الأساطير الشعبية وخلق الحماسة التى يشعلونها فى نفوس الناس، وقد نعجب الإعجاب كله بالنتائج التى انتهى إليها عالم عبقري من طراز دارون أو أينشتاين، ولكننا إذا أطلنا البحث وأعدنا النظر وجدنا أن الكثيرين من العلماء والمفكرين قد مهدوا لهما السبيل، وأن الجو كان مهيباً لقبول ما وصلا إليه، والابتكار المنسوب إليهما يكاد يكون «مسألة اجتماعية»، وربما كان للمصادفة السعيدة أثر فيها أكثر مما للمزية الشخصية والعبقرية الفردية.

ولكن تأثير العظماء فى سير التاريخ مع ذلك حقيقة واقعة لا يمكن للمؤرخ إنكار أثرها، والإعراض عن مواجهتها، ولقد حاول بعض المؤرخين ممن لهم نزعات اجتماعية خاصة، أن يبرزوا

تأثير الشخصيات الكبيرة، فظهر كثير من الخطأ في تقديراتهم وشاع الاختلال في موازينهم. ومن الواضح أن كثيراً من الحركات التي تزعمها العظماء كانت آتية محتومة، لأنها مكفولة الأسباب موفورة المقدمات، ولكن العظماء استحثوا خطواتها، ولقد كان لسقوط الدولة الأموية وقيام العباسيين مثلاً تأثير كبير في التاريخ الإسلامي، ولكن هذا الحادث الخطير كان من المحتمل إلى حد كبير أن يتأخر وقوعه ولولا وجود أبي مسلم الخراساني، وجمعه بين صفات متعددة ومواهب مختلفة، فقد كان قائداً بارعاً يستطيع أن يرسم الخطط ويشعل الحماسة، وكان في نفس الوقت سياسياً يجيد حبك الدسائس وتدبير المؤامرات، وكان هذا الانتقال مطابقاً لرغبات أكثر الأمم الإسلامية التي ملت سياسة الأمويين، ومتفقاً مع مطالبها النفسية والمادية، وكانت ظروف الأسرة الأموية الخاصة تسمح بحدوثه، وقد استطاعت عبقرية أبي مسلم أن تستفيد من هذه العناصر وتتفح من كل هذه التيارات، وفي التاريخ حركات كبيرة ويتولى قيادتها، والفرصة لا تخلق الرجال كما يتوهم بعض منتقسي أقدار الأبطال، وقد تسنح الفرصة فلا تصادف الرجل الذي يعرف كيف ينتهزها ويولي نداها، ويرى بعض مؤرخي الثورة الفرنسية أنه لو مد في حياة الزعيم الكبير ميرابو خطيب الثورة الفرنسية لاستطاع أن يغير اتجاهها ويطامن من غلوائها، وقد أظهرت الحوادث العالمية الأخيرة تأثير العامل الفردي في سير التاريخ وتوجيه الحوادث.

وقد رأى الكاتب الإيطالي المفكر جيوفاني بابيني أن يتناول هذا الموضوع من ناحية أخرى طريفة، مزج فيها بأسلوبه الشائق الجد بالفكاهة، وقد أدار في المقال الآتي عن «الرجل المجهول» الموضوع على نواحيه المختلفة ببراعته المعهودة ونظراته النافذة:

كثير من النقاد المحنثين قد عودوا أنفسهم عادة غير محمودة ولا موفقة، وهي عادة الاقتصار على دراسة حياة الرجال المعروفين الذين يثقون بوجودهم ويعلمونه علم اليقين، وكان من أثر ذلك أنه لم يخطر لأحد منهم أن يعني بكتابة تاريخ حياة «الرجل المجهول» ولست أقصد به الرجل العادي الخامل الذكر المجهول المكانة الذي يجوز أن تفجأه الشهرة فيصير في طريقة عين من الأشخاص المعروفين المعترف بوجودهم، وإنما أقصد الرجل المجهول الحقيقي الذي لا يعرفه إنسان.

والنقاد جميعهم مولعون بالكتابة عن البارزين، والإشادة بالمشهورين، أو على الأقل بالمعروفين عند الشرطة والمنكورة أسمائهم في الدليل، ومن غير المتوقع أن يفنوا المداد في الكتابة عن رجل لا يحمل اسماً، وقد يخطر ببالهم أن يعتنوا عن ذلك قائلين: «كيف يتيسر لنا أن نترجم لإنسان مجهول، لا علم لنا بأخباره، ولا ندرى عنه شيئاً»، ولكنه اعتذار بائن السخف لأن أجل التراجم التهذيبيّة شيئاً كتبت عن رجال لا يعرف عنهم إلا النذر اليسير،

وأمثال هذه التراجيح هي التى ترىنا المثل الكامل لما يجب أن يكون عليه الإنسان!

والنقاد مذهبهم ولى مذهبى، وسترون أنى ليس بى من حاجة إلى الاختراع والتخيل.

إذا كان حقا أن الرجل لا يعرف إلا بأعماله، فما أكثر ما نعلم عن الرجل المجهول! أستطيع أن أقول إنه أعظم أبطال الإنسانية وأجلهم شئنا! وإذا خالجم الشك فى ذلك يا أنصار المعروفين والمذكورة أسماؤهم فى القوائم فأعيروني أذانا صاغية!

الرجل المجهول جد قديم، وقد ظهر فى أول قبيلة إنسانية، وفى سالف العصور اشتغل بالكيمياء واستخراج المعادن، وقد اخترع عربة النقل واكتشف الحديد، وعنى بعد ذلك بالملابس، وابتكر النقود، وبدأ الزراعة، ولكن سرعان ما مسه اللغوب، وأسأمت هذه المسائل المادية، فانقلب شاعرا وأخذ يزرع الأرض طولا وعرضا، وخلق أساطير الأديان، ونظم «الفيدا» وتغنى الاناشيد «الأورفية» ونسج خياله خرافات أهل الشمال، وارجل الحكم، وتمثل الأمثال، وفى العصور الوسطى نحت التماثيل العديدة، وشيد المعابد وزين حيطانها بالصور والرسوم، دون أن يذيلها باسمه، ثم قص الأقاصيص وألف الروايات التى لا تحمل اسمه ولا شارته.

ولكن عندما جاء العصر الحديث، وطفى على الناس جنون التعلق بالأسماء، والحرص على أن يذمقوا الأشياء بطابعهم أمسك عن العمل، وقنع بالراحة، وأقبل على الكتابة والتصوير والنحت جماعة من الفنانين المغرورين معروفى الأسماء، والتمسوا الشهرة من وراء إثبات أسمائهم، وقد كانت عبقريتهم أقل من عبقرية الرجل المجهول، كما كان تواضعهم أقل من تواضعه، وقد أسرفوا فى الإعلان عن أنفسهم، وأطالوا ترديد أسمائهم، وزعموا أنهم لم يقوموا بهذه الأعمال ابتغاء المصلحة العامة، أو طلبا للمتعة الفنية، وإنما التماسا للشهرة، وليضاف إلى أسمائهم كل فضل ويعزى إليهم كل عمل.

ولكن الرجل المجهول لم يستطع الراحة، ولم يقبل أن يظل مغلول اليد عاطلا من الأعمال، وقد انتهز فرصة مجئ الديمقراطية ليستأنف سعيه، ويعاود نشاطه، وأثر أن ينزل إلى ميدان السياسة، فالثورات الحديثة العظيمة هي من تدبيره، والمتطهرون الإنجليز، والثائرون فى أمريكا، والثائرون فى فرنسا، والمتطوعون الإيطاليون، جميعهم كانوا اسم «الشعب» أن يخيف الملوك، ويغير نظام الحكم، ويقلب الدنيا رأسا على عقب.

ولكن هذه الأعمال العظيمة لم تنسه ذكريات الأيام الصالحة السالفة، فعندما يسير فى الشوارع القديمة وهو مستغرق فى التفكير، تستوقفه وتستريحى التفاته الأواني المصنوعة على مثال الأواني القديمة التى مهر فى صنعها، ثم يقف الفينة بعد الفينة فى الميادين العامة، وقد تمثلت له صور طفولته، أيام كان يبتنى البيوت على مثال الغابات والكهوف والغيوان.

وهو لا يزال حياً، ولم يطوه الموت، وسيجد من جهده ونشاطه الاقتتان في الإعلان، وتزايد الغرور والادعاء، ولكنه سيظل مع ذلك ملح الأرض، وأخشى أن يكون خموله الذي فرض عليه فرضاً، ونزعة العصر السائدة قد أفسدا خلقه وأحالا طبيعته، فعندما تنسب الجرائد والصحف السرقات وحوادث الاعتداء إلى «الجماعات المجهولة المعهودة» أخشى أن تعلق به الشبهة أو أن يكون ضالعا في ذلك.

وإذا صح حكمي عليه من صورته فإنه غير أهل للأعمال الدالة على سقوط المروءة والشر والإجرام، ولا بد أنكم قد لاحظتم في المعارض العامة صورة «رجل مجهول» وهي صور مختلفة يقول لنا النقاد المتطعون إنها تمثل أشخاصاً مختلفين غير معروفين، ولكن لا حاجة بي إلى الأخذ براء هؤلاء النقاد، فأتأ أعرف أن بطل المجهول له وجوه متعددة وصور جمّة، فما أنبل محياه وما أجمل طلعتة! وفي بعض الأحيان يصورونه سيّداً غطيفاً مسترسلا في عميق الأفكار، وأحيانا أخرى يرسمونه شاباً شاحب الوجه شارد النظرة، ومرة يمثلونه رجلا ناضجا مكتمل العقل يلهو بقفازه أو يداعب صقره، وتستطيع أن تلمح في صورته المختلفة أرسنقراطية الروح، وهذا الاحتجاز الطبيعي الذي جعله زاهداً في أن تلوک اسمه أفواه السفهاء، ويشتهر ذكره على ألسنة الأدياء.

وقد تظنني هازلا على طريقة سويغت، أو على أسلوب كارلايل! كلا فما إلى هذا قصدت، وإنما أريد أن أوحى إليك موضوعاً للتفكير الخطير والتأمل الخالص، ونحن نفرط في الميل إلى أن نعزو أهمية لكل من كان يحمل اسماً، ولكل من جعل له إمضاءه وتوقيعه حقاً، ويعزب عن بالنا أن أكثر ما نسميه حضارة هو من خلق قوم لا نعلم من حياتهم شيئاً، ونجهل شخصيتهم الجهل كله، وهؤلاء المجهولون قد أنوّا لنا خدمات أكثر وأبقى من الخدمات التي قام بها الرجال الذين ملأت شهرتهم الأسماخ، وحفلات بأخبارهم معاجم التراجم ومجاميع السير، فأجمل الأوهام وأروعها، وأحلى الاختراعات والابتكارات جميعها من عمل الرجل المجهول الذي لا يحفل به المؤرخون، ولا تهدي إليه عقود الثناء، ولا يخصه أحد بكلمة تقدير، ومن الحق أن نتهم بجحود الفضل وإنكار الجميل، ويزينا إمعاناً في ذلك كلاله الطبع وغلبة الكسل، ومن مألوف طباعنا أننا سرعان ما نستذكر الأشياء عندما يكون لها اسم، ويسهل علينا الاعتراف بالجميل إذا رأينا بعيوننا شخصاً معيناً نستطيع أن نوجه إليه أنظارنا المدح ونفخر بشخصه ونزهى بوجوده، ولكن الرجل المجهول الذي أجاد التفكير وأحسن العمل دون أن يدمغ الأشياء باسمه، أو دون أن يتهافت على مراسلة الجرائد ويتمسح بها، لا يلبث أن يهمل أمره، ويعرض عن ذكره، ومن دأب الناس أنهم عندما يحاولون العبادة يتمثلون بصورة، ويتصورون إنساناً، والرجل الذي أتم عملاً وأجاد صنعا لا تستطيع الناس أن توجه إليه

أفكارها، أو أن تختصه بالقليل من فائض حماستها، ما داموا لا يعرفون اسمه ولا ملامح وجهه، والشك الذي تمكن من نفوسنا وغلب على تفكيرنا هو الذي أنسانا «الرجل المجهول»، مع ما له على الإنسانية من أياد بيض منذ أقدم الأزمنة ولسوء الحظ لا نزال نرى في مياديننا العامة أنواعاً مختلفة من التماثيل، ما بين فارس وراجل لرجال مختلفين، كل ما لهم من فضل هو تأليف مأساة مملّة، أو الانتصار القائم على المصادفة في معركة من المعارك، ولقد كان اليونانيون أعمق منا تفكيراً وأصحّ تقديرًا عندما أقاموا محراباً للإله المجهول، أليس من واجبنا في العصر الحديث أن نشيد نصباً تذكاريًا «للرجل المجهول»؟

تشاؤم ليوباردى

جياكو ليو باردى علم من أعلام الأدب الإيطالى، وأكبر شعراء إيطاليا الغنائيين فى القرن التاسع عشر، وقطب من أقطاب فلسفة التشاؤم، وعجيبة من عجائب النبوغ المبكر، والعبقرية التى لا يقف فى سبيل إنتاجها الوافر الممتاز عقبات المرض الملازم، والهموم المتكاثرة، وقلة الضعف والتشجيع، والإخفاق فى كل ميدان من ميادين الحياة سوى ميدان السبق والإجادة والتبريز فى الشعر والنثر والفلسفة.

وقد أثار ليوباردى قبل أن تبلغ سنة العشرين إعجاب العلماء الراسخين فى معرفة اللغة اليونانية واللاتينية بمواهبه اللغوية النادرة، ودعاه كبير نقاد عصره - بييترو جوردانى -: «الكاتب الإيطالى الكامل».

وقد ولد جياكومو عام ١٧٩٨، وتلقى دروساً خاصة إلى السنة العاشرة من عمره، وبدأ بعد ذلك دراسته معتمداً على نفسه، واستولى عليه فهم شديد للقراءة والاطلاع، فتعلم اليونانية بنفسه فى أربعة أشهر، وأضاف إلى معرفته باللاتينية دراسة اللغة الفرنسية والأسبانية والإنجليزية والعبرية، وكان يقرأ ويبحث ويترجم شروحات وتعليقات قيمة، ويعقد موازنات بارعة، وهكذا ظل ينتقل من مجد أبنى سام إلى مجد أسمى، ويحلم الأحلام العظيمة، ويراسل مشاهير عصره، وثقات الباحثين فى اللغات والأدب، حتى شاع اسمه، وطارت شهرته.

ولكن الطبيعة التى كان يسئ بها الظن انتقمت لنفسها من هذا النبوغ المبكر، والمجهود الجبار، والإنتاج المتواصل، فى مطالع الحداثة وربعان الشباب، فأصبح فى العشرين شيخاً قانئاً متهدماً، قد تقوس ظهره وأحدوب، وبرزت وجنتاه، وحال لونه، وضعف بصره، وكان قد ورث من أسرته الاستعداد لمرض الكساح والاضطرابات العصبية، وكانت مقاومة هذه الحالة تستلزم العناية بالتغذية الصالحة، والحياة الرياضية، ولكن سنوات الإجهاد الشديد فوتت عليه فرصة العلاج، ففاضت نضارته، وجاوزته فترة الشباب وأصبح خليفاً بقول المتنبى.

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى

شيئا نقيمه عين ولا جيد

وكان أبوه الكونت موندالو ليوباردى رجلاً شديد المحافظة، ميالا إلى الرجعية، ولوعاً بجمع الكتب، فخوراً بما عنده من وشل المعرفة، وأعجبه إقبال ابنه على الدرس، ورجا أن يكون له

مستقبل زاهر بين رجال الكنيسة، وحماة الدين، وأن يصبح من الكرادلة، ولم يلتفت إلى أن هذا الإفراط في الدرس والاطلاع هادم للصحة، متلف للأعصاب، ولما اكدوب ظهر جياكومو استبشره أبوه خيراً لأنه اعتقد أنه قد أصبح أليق بخدمة الكنيسة وأصلح لها!

وكان أبوه متلاًفاً فلما أحس بمواجهة الإفلاس أسلم إدارة ضيعته لزوجته الكونتس أديليد، وكانت امرأة صارمة، أشرب قلبها القسوة، واستعصت على كرم السجية، وصرفت همها إلى جمع من طريق الشح الشديد، والتضييق البالغ، وكانت لا تعطى أولادها نصيباً من عنايتها، ولا تظللهم بشيء من رعايتها، فلم يسمعوها منها كلمة عطف وحنان، ولم يظفروا منها ببسمة رضا وتشجيع، وقد أهملت جياكومو في طفولته، ولما بذل البقية الباقية من صحته الواهنة في صباه ليعول نفسه، ورشق طريقه، رفضت أن تعينه، ونكرى الوالدة في حياة أكثر الناس ملاذ يفتنون إلى ذاره، ويأوون إلى حماه، في دنيا بانسة حزينة، وعلاقة ليوباردى بأمه ترينا باعثاً من بواعث يأسه المرير، وحزته المظلم.

ولم يكن على علاقة حسنة بأهل بلده، فقد كانوا يخالونه متكبراً تياهاً، ولما انحنى ظهره، وهزلت صحته، سئحت لهم الفرصة للنيل منه، والاستهزاء بعقيرته التي لم يحسنوا فهمها.

وبعد أن ظل غارقاً في البحوث اللغوية اتجه إلى الشعر وأولع بجيده، ثم عالج قرض الشعر فنبغ فيه وأجاد، ونظم شعراً وطنياً ضائق والده، فرفض رجاءه له في أن يسمح له بمفادرة ركاناتي والشخوص إلى روما، واعتزم ليوباردى الهرب من منزل أبيه، وحاول الحصول على جواز سفر، ولكن والده كشف الأمر، وتلا هذه المحاولة المخفقة عهد استسلام وخضوع لما ابتلاه به القدر، وهم بالانتحار، ولكن عقله تغلب وانتصر، ولعل الأعجب من إحجامه عن الانتحار قدرته على احتمال هذه الظروف القاسية المحدثه به، والصبر على الآلام الشديدة التي كانت تنتابه، وأعجب من ذلك كله وأغرب متابعته الإنتاج في وجه هذه المثبطات والمضايقات والأحزان، فقد ظل يسبح ويهضب بالشعر، ويوالي كتابة الفصول الثرية المجودة الممتازة، ويبحث الأدب واللغة والفلسفة، وتحسنت صحته قليلاً، فضاغف نشاطه فزاد بصره ضعفاً حتى كتب إلى صديقه جورداني: «لقد جعلتني عيناى بومة تكره ضوء الشمس».

وأخيراً في عام ١٨٢٢ سمح له أبوه بزيارة خاله في روما، فسافر إليها، ويحث هناك عن عمل، ولقى العلامة الألماني نيبهر، وكان حينذاك وزير بروسيا المفوض في البلاط البابوي، وقد كتب نيبهر إلى صاحبه بنسن. من رسالته: «تصور ما أخذننى من العجب والدهشة حينما أبصرت أمامى شاباً ضعيف البنية، يبدو عليه أنه معتل الصحة، وهذا الشاب هو أول العارفين باللغة اليونانية في إيطاليا، بل هو العالم الوحيد باللغة اليونانية في إيطاليا جميعها، وله ملاحظات انتقادية تشرف أعظم اللغويين الألمان، وستة لا تتجاوز الثانية والعشرين، وقد

بلغ هذا المبلغ وتعمق هذا التعمق بلا مدرسة ولا مدرس ولا مساعدة ولا تشجيع من ناحية أسرته»

وبرغم مساعدة نيبير لم يوفق في إيجاد عمل له، فعاد إلى راكاناتي، ودعى بعد ذلك إلى ميلان ليشرف على طبع مؤلفات سيشرون، وليشارك في أعمال أدبية أخرى، فغادر راكاناتي وممر ببولونا واجتمع بجورداني وأصدقائه، وراقته الإقامة هناك، فعاد من ميلان إلى بولونا، واستقبل فيها استقبالاً حسناً، وذاق شيئاً من طعم السعادة الدنيوية، وأحب بعض النساء، ولكنه أخفق في حبه، ولم تبادله إحداهن الحب، واستطاع بعد عناء أن يقيق من إحدى الأزمات الغرامية الشديدة، وأخذ بعد ذلك يتنقل بين راكاناتي وبيزا وفلورنس وروما، حتى استقر به المقام أخيراً في نابولي، وكانت صحته تزداد سوءاً وهو مع ذلك مثابر على الإنتاج الممتع الفائق، وظل مريضاً لا يرجى حتى أراحه الموت في عام ١٨٣٧.

وبرغم ذلك كله كان ليوباردى يخالف الذين كانوا يعززون تشاؤمه إلى سوء الصحة وقسوة الظروف، وقال في ذلك: «سأظل أحارب قبل أن يمضى بى الموت هذه الفكرة الواهنة العامة، وأطلب إلى قرائى أن يلتفتوا إلى ملاحظاتي وما أقدم من أسباب بدلا من أن ينحوا باللائمة على أوجاعي وعلى» ولكن الذين يزنون أفكار ليوباردى مضطرون إلى أن يدخلوا في حسابهم وتقديرهم حياته الخاصة وما عاناه من الأوصاب والآلام.

وليوباردى يخالف أرسطو والمفكرين الذين تبعوه في أن الإنسان مدنى بالطبع، والإنسان في رأيه أقل الحيوانات ميلا إلى الاجتماع، وهو أكثر حيوية من سائر الحيوانات، وهو لذلك أشد منها حبا لنفسه، ومن ثم كان أكثر منها كراهة للاجتماع، وبراء الدوافع الإنسانية جميعها غريزة المحافظة على الذات وتكديدها، وهى القوة الدافعة والنشاط المحرك، وحرصنا على سعادتنا يجعلنا نكره الغير، ورغبتنا في المتعة ليس لها حدود، على حين أن الاستمتاع محدود، ولذا لا مفر لنا من خيبة الأمل، وكلما كانت رغبات الإنسان أقوى كان الشفاء أكثر، وليس هناك أمل في المستقبل لأن الحضارة وما يسمى بالتقدم يضاعفان رغباتنا، ويزيدان أثره الناس، ويرى ليوباردى أن السيد المسيح قد أدرك ذلك، ولذا قال: «مملكتى ليست في هذه الدنيا» فالإنسان غارق في أثره الفارغة التافهة ويأشئ شرير.

والشباب الناشئ ينهض من بين كتبه، وفي مأموه أن سيعيش عيشة سعيدة فاضلة راضية، ولكن سرعان ما تعلمنا الحياة جميعاً درسها المر القاسى، فنرى الأثرة الكالحة التي لا تلين ولا ترحم، والعداوة والحسد، والسباب والغيبة والخداع والغش، فتتبدد أوهامنا، وتتجلى غيابة أحلامنا، ونفقد الطمأنينة، ونسلب الراحة والتسلى، ويبدو لنا أن العدالة والوطنية والمجد واليقين والحب جميعها أوهام وأضغاث أحلام، ونرى أننا ننشد سعادة

لا تتى تقر منا، وتبعد عنا، ونضطر إلى أن نعتزف بأن منزل السعادة قائم على الرمال. وفكرة وجود غناية مشرقة على أحوال الدنيا فى رأيه وهم من الأوهام وقد ظن الإنسان أنه غرض الوجود، وتاج الخليقة، وأن كل ما فى الوجود قد خلق من أجله، "ألامنا ومتاعينا وشقاؤنا، ونحن لسنا سوى بضعة من المادة المفكرة طافية فى تيار العدم؛ وشقاء الإنسان فى رأى ليوباردى لا دافع له، ولا نجاة منه، وليس من الميسور تهوين وقعه، وإنقاص مقداره، وحياتنا يلفها الغموض، ويغطي عليها البؤس والشقاء.

ولكن هل الإنسان جدير بأن يرثى لحاله بعد ذلك كله؟ كلا لأنه متوحش هدام بشع، يدينه الحقد والحسد والبغضاء، فلماذا يصنع الإنسان إذن فى عالم تافه فاسد شرير لا قيمة له، ولا خير فيه؟ من الواضح أن أمه قد يترامى إلى عالم آخر وراء الموت وأحسن من هذا العالم الأرضى، أو ربما أصابه التبدل وفقدان الحس، أو انقلب كارهاً للبشر، ساخرأ من آلام الإنسانية، أو ربما لجأ إلى الانتحار، وقد رأى ليوباردى هذه الطرق ولكنه أعرض عنها جميعها.

وحقيقة أنه لم يظهر بحب النساء، ولكنه برغم ذلك لم يصبح كارهأ للبشر، والدليل الواضح على ذلك حب أصدقائه له وعطفهم عليه، والمعروف عنه أنه كان صريحأ فى غير تبجح ولا قحة، ولم تعرف نفسه الحقد ولا الضغينة، قال عنه أحد أصدقائه: «أخلاقه أخلاق ملك هبط الأرض».

وقد كان عقله يقدم له الأدلة المقنعة القاطعة على أن الحياة أكنوبة وضلال، ولكن خياله الوثاب المرح كان يعلو فوق هذه الحياة ويشع فيها الضوء، ويحبوها الطرافة، ويلاغة تعبيره عن أن الحياة لا قيمة لها، وبراعته فى عرض مساوئها، وقدرته على تقصى عيوبها، كل ذلك يشعرونا بأن للحياة قيمة أو على الأقل يخلق لها قيمة، ويخلق عليها حلة من البهاء والجمال، ويشعل فى نفوسنا الحماسة، ويثير الأمل، والشاعر الكامن فى نفس ليوباردى كان ينقذ الفيلسوف، وينتقل به من مغاور الظلام إلى معارج النور، والفيلسوف عند ليوباردى لا يكمل إذا كان فيلسوفاً فحسب، لأن العقل فى حاجة إلى الخيال، والحقيقة أن ليوباردى يثير مشكلة عميقة بعيدة الأثر وتستحق أن نقف عندها، فقد استطاع عقله أن يواجه حقيقة أن الحياة لا قيمة لها، ولكنه صادم لغزأ لم يدرك كيف يعالجه، وهو أن الحياة لو كانت تافهة ولا قيمة لها— كما يقنعنا العقل— أكان يمكن أن يعبر عن تفاهتها وإقفارها بتلك البراعة البارعة والبلاغة البالغة والتفوق المطلق الذى نعهده فى كبار الشعراء والكتاب والفلاسفة؟ وهل الحب والجمال والفضيلة والعدالة والمجد والحق جميعها أوهام قد أبدع وصفها الخيال وأجاد تصويرها؟

ولعلنا نسئ فهم فلسفة ليوباردى إذا اكتفينا بأن نسلكه فى عداد المتشائمين الناقمين، وقد

أُلح إلى ذلك الناقد الإيطالي الكبير فرانشيسكو دي سانكتيز في قوله عن ليوباردى: «يحدث ليوباردى تأثيراً مناقضاً لما كان يقصد إليه، فهو لا يعتقد بالتقدم، ولكنه يجعلك ترغب فيه، ولا يؤمن بالحرية ولكنه يحبها إليك، وهو يسمى الحب والمجد والفضيلة أوهاماً ولكنه يثير فى نفسك الحنين إليها والحرص عليها، وتشعر بعد مغابرتة أنك خير مما كنت قبل أن تلقاه، ولا تقترب منه دون أن تستجمع أفكارك وتطهر نفسك حتى لا يستولى عليك الخجل فى حضرتة، وهو لا يرى إمكان أن يكون مستقبل وطننا أقل حلوكَة وظلاماً، ولكنه مع ذلك يحرك فى نفوسنا بواعث حبه، ويحفزنا إلى النهوض بنبيل الأعمال، وهو سيبى الظن بالطبيعة الإنسانية، ولكن روحه السامية العذبة المهذبة النقية الزكية تشرف الإنسانية وتسمو بها» فواء يأس ليوباردى قلب ينبض بالأمل، وعقل حافل بالأفكار الكبيرة، وقوة مبدعة تخلق الصور النابضة بالحياة والشباب والجمال، وتعمر الديمومة الفقر، وتؤنس الوحشة الرهيبة، والمحاورَة الآتية تزيّننا لوباً من أدبه، ونمطاً من تفكيره ومذهبه:

محاورة بين روح الهواء وروح الأرض

روح الهواء:

ما هذا! أنت هنا؟ وإلى أين تقفزين؟

روح الأرض:

أرسلنى والذى لأبذل الجهد فى الوقوف على ما يكيده لنا هؤلاء الأدميون الفجرة، وهو يرى بثاقب فطنته أنهم يبيتون لنا الشر فقد غبر عليهم زمان طويل وهم فى سكون مطبق مما أثار دهشتنا، ولم يظهر أحد منهم فى العالم السفلى، ووالدى يستريب بهم، ويرى أنهم عاكفون على ابتداع حيلة لإيذائه، إلا إذا كانوا قد عادوا إلى عاداتهم القديمة فى المقايضة بالسائمة بدلا من الذهب والفضة، أو ربما اكتفى المتحضرين فى هذه الآونة بالحوالات والسندات، واستغنوا بها عن النقود كما كانوا يفعلون، أو اعتاضوا عنها بحبات الخرز كما هى الحال عند المستوحشين.

روح الهواء:

عبيثاً تحاولين البحث عنهم، فقد هلكوا وبادوا.

روح الأرض:

بالله ماذا تعنين بذلك؟

روح الهواء:

أعنى أنهم انقراضوا جميعاً.

روح الأرض:

هذا هراء، ولو حدث شئ مثل هذا لذكرته الجرائد، وأنا لم أسمع شيئاً قط عن هذا

الحادث.

روح الهواء:

الجرائد! أأنت غبية إلى حد أنك لا تعرفين أن الجرائد لن تظهر ما دام الإنسان قد هلك؟

روح الأرض:

نعم هذا حق، ولكن كيف نقف الآن على أخبار الدنيا

روح الهواء:

أى أخبار تريدان سماعها الآن؟ أغريت الشمس أم أشرقت؟ وهل الجو حار أم بارد؟ وهل أمطرت السماء وتساقطت الثلوج وهبت العواصف الشديدة؟ والآن وقد انقضت السلالة البشرية استراح العظم، وأزاح العصابة عن عينيه، واستعاض عنها بنظارات، وريط عجلته إلى أحد الأبواب، وجلس مضغوط النراعين، يتأمل أحوال الدنيا دون أن يشترك فيها، فليس الآن ثمة من ممالك ودول تنتفخ وتتضخم، ثم تختفى اختفاء فقاقيع الصابون، ولقد اندثر أثرها وطمست معالمها، فلا حروب ولا جهاد، وكل سنة الآن تشبه سابقتها كما تشبه البيضة البيضة.

روح الأرض:

ولكننا لا نستطيع أن نعرف أيام الشهر إذ لا نتائج الآن.

روح الهواء:

ولكن ما خطر ذلك! إن القمر سيتابع سيره دون أن يعوقه عائق:

روح الأرض:

ولكن الأيام ستفقد أسماها.

روح الهواء:

ماذا! أتظن أن الأيام تقف عن دورتها إذا نحن لم ندعها بأسمائها؟! وربما دار في خلدك أنها إذا مرت مرة يمكن إرجاعها بالنداء!

روح الأرض:

ولكننا لن نستطيع عد السنين.

روح الهواء:

فى هذه الحالة يمكننا أن نعد أنفسنا صغيرات السن بعد أن يطول عمرنا، وفوق ذلك فإننا حينما نعجز عن قياس الماضى يقل اهتمامنا به، وإذا بلغنا الشيخوخة لا نظل نترقب الموت من يوم لآخر.

روح الأرض:

ولكن كيف كانت خاتمة هؤلاء المناكيد؟

روح الهواء:

لقد أبادتهم الحروب المتوالية، وبعضهم غرق فى الأسفار البحرية والرحلات البعيدة، وفريق آخر منهم هلكوا لأنهم أكل بعضهم بعضاً، وانتحر منهم فريق، وبعضهم أنهكوا أنهانهم بإدمان المطالعة، والبعض أودت به البطنة، وقصارى القول إنهم هلكوا بإتيانهم كل ما فى طاقتهم لإغضاب الطبيعة وجلب الهلاك.

روح الأرض:

لم أستطع أن أفهم من مضمون كلامك كيف أن شعباً من الحيوانات ينساق برمته إلى الهلاك والانتقراض على هذه الصورة العجيبة.

روح الهواء:

لقد كنت أظن أن من كان مثلك «جيوولوجياً» محنكاً لا يرى في هذا شيئاً غير مألوف، وأنواع كثيرة من المخلوقات التي غشيت الأرض غير موجودة الآن، ولا يوجد لها أثر إلا في حفريات الأرض، وهذا بالرغم من أن هذه المخلوقات التعسة لم تلجأ إلى حيلة من الحيل العديمة الحصر التي كان يلجأ إليها الإنسان لطلب الهلاك.

روح الأرض:

أظنك على حق، ولكني أريد أن أقول إنني أود لو أنه أتيح لحشرة أو لحشرتين من هؤلاء الادميين أن تعودا إلى الحياة، ولو لم يكن ذلك إلا لنعرف ماذا يقولان عند ما يجدان أنه بالرغم من هلاك النوع البشرى فإن كل شيء لا يزال سائراً في مجراه، كما كان الأمر من قبل في هذه الدنيا التي كانوا يظنون أنها خلقت من أجلهم.

روح الهواء:

إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا أن الدنيا خلقت من الحقيقة لأجل هوام الهواء.

روح الأرض:

اسمحي لي أن أسترعى نظرك إلى ما في كلامك من الخطأ إذا كنت تجددين.

روح الهواء:

ماذا تعنين بذلك؟ أنا أجد في كلامي.

روح الأرض:

أصلح الله حالك أيتها الهازلة الصغيرة، إن صبية المكاتب يعلمون أن الدنيا لم تخلق إلا لحشرات الأرض.

روح الهواء:

حقيقة لحشرات الأرض التي تعيش على الدوام تحت الأرض! هذا هزل، ماذا تستفيد حشرات الأرض من الشمس والقمر والهواء والبحر والسهول؟

روح الأرض:

وأنا أريد أن أعرف ما الذي تستفيده حشرات الهواء من مناجم الذهب والفضة وسائر محتويات باطن الأرض؟

روح الهواء:

سواء استقانت أو لم تستقد فلنترك الخلاف في هذا، وإننى متأكدة أن الضب والبعوض وسائر الحشرات تتصور أن الدنيا بأسرها خلقت من أجلها، فلندع كل مخلوق يستمسك برأيه إذ لا يستطيع أحد أن ينتزعه من رأسه، وأنا أقول بالأصالة عن نفسى أننى لو لم أولد من حشرات الهواء لا نفطر قلبى.

روح الأرض:

وأنا كذلك لو لم أولد من حشرات الأرض، لو بدت أن أعرف ماذا عسى أن يقوموا الآن فى ادعائهم ملكية الأشياء، ذلك الادعاء الذى كان يستحثهم على بسط أيديهم فى كنوز الأرض وانتهابها زاعمين أنها من قبثهم، وأن الطبيعة إنما خبأتها فى باطن الأرض لتختبر قدرتهم فى التنقيب عنها وإخراجها.

روح الهواء:

هذا حالهم، ولست أدري لماذا بلغت بهم القحة إلى حد أنهم لم يكتفوا بأن يتصوروا أن كل شيء على الأرض إنما جاء لمنفعتهم فحسب، بل توهموا أن الخليفة بأسرها ليست إلا سفاسف إذا قيست بهم، ولقد كانوا يسمون الانقلابات الضئيلة التى تنتاب أحوالهم ثورات عالمية، وأطلقوا على تاريخ أقوامهم وأممهم اسم «تاريخ الدنيا» مع وجود أنواع كثيرة أخرى من الحيوان على الأرض- بغض النظر عن الحشرات- تعادلهم فى الكثرة، ومع هذا كله فإن هذه الحيوانات التى كانوا يظنون أنها لم تخلق إلا لمنفعتهم لم تحس بهذه الثورات العالمية.

روح الأرض:

وهل استيقنوا أن البعوض والبراغيث خلقت لمنفعتهم؟

روح الهواء:

أى نعم، لأجل أن يتعلموا الصبر!

روح الأرض:

فكانتهم لولا وجود البراغيث لما وجدوا شيئاً يجربون به صبرهم.

روح الهواء:

ولقد وصلت الغلظة بأحدهم- وهو المدعو كريسيبس- إلى حد أن يقول إن الخنازير ليست إلا بضعة من اللحم جهزتها الطبيعة لياتهمها الإنسان، وأن الحياة لم تمنح لها إلا لحفظها من التلف مثمناً نضع البهارات والتوابل فى الطعام خشية العفن والفساد.

روح الأرض:

لو كان فى ذهن كريسيبس المذكور نرة من الملح بدلا من هذا الخيال اليقظ لما فاه بمثل هذا الكلام.

روح الهواء:

وهناك فكرة أخرى ممتعة، وذلك أنه يوجد عدد لا نهائى من المخلوقات الحية لم ينظرها هؤلاء الذين ادعوا السيادة وظهروا بمظهرها، بل إن وجودها نفسه كان مجهولاً عندهم، إما لأن هذه المخلوقات تعيش فى أماكن لم يطرّقها الإنسان، وإما لأنها من الضئيلة بحيث لا تراها العين العارية، والآلاف المؤلفة من هذه المخلوقات لم تعرف إلا فى الأزمنة الحديثة، ويصدق هذا القول على النباتات، وليس هذا كل ما فى الأمر، لأنه بعد أن مرت أجيال وأخترع المنظار المكبر واطرد رقيقه فاهتدوا به إلى مواقع عدد قليل من النجوم والأجرام التى كانوا يجهلونّها منذ آلاف السنين، أسرعوا فأدرجوها فى قائمة ممتلكاتهم، متوهمين أن هذه الأجرام السماوية ليست سوى مصابيح وشموع قد زينب بها السماء لترسل الضوء إلى حضراتهم، إذ من الضرورى لهم أن يشغلوا أنفسهم حتى فى أثناء الليل.

روح الأرض:

هذا حق، ومن هذا القبيل أيضاً أنهم حينما يبصرون فى ليالى الصيف النيازك تترق فى عرض السماء، أظنهم يقولون إنها أرواح صاعدة إلى السماء لتصلح الشموع حرصاً على راحتهم.

روح الهواء:

صحيح، ولكن الآن وقد عفا أثرهم، فإن الكون لم يحفل بهم ولم يشعر بحاجة إليهم، فالأنهار لا تزال تجري كعادتها، والبحر وإن لم يعد يستخدم للملاحة فإن مياهه لم تغض، وهذا لعمرى مما يدهش.

روح الأرض:

ولا تزال النجوم والأفلاك كدأبها تشرق وتغرب، ولم تلبس عليهم ثياب الحداد.

روح الهواء:

والشمس لم يعل صفحتها الصداً كما قطعت يوم مات قيصر فى زعم فرجل، ومن رأى أنها لم تحفل به متقال نرة أكثر مما حفلته بتمثال بومبى.

بين التردد والعزم

يعجب الناس بالرجل القليل التردد، السريع البت في الأمور، الذي يصدق فيه قول شاعر الحماسة:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه

وأعرض عن ذكر الحوادث جانباً

ويستخفون بالرجل الهياة المتردد، كأن سرعة إدراك الطريق السوى والخطأ الموفقة، والانفعال إلى العمل، بين ثوائر الظنون ومختلف الشكوك، هي وحدها الصفة الخليقة بالتمجيد والإطراء، وقد اخترعوا أسطورة طريفة لبيان مساوئ التردد، وعزوها ظلماً إلى العالم الفرنسى بيريديان، وهي أسطورة ذلك الحمار المسكين الذي وجد نفسه واقفاً على مسافتين متساويتين بين حمل من القرطم ودلو من الماء، وقد نال منه السغب، ويرح به الأوام، وظل تتجاذبه الدوافع، ويتنازعه سعار الجوع، وحرقة الظمأ، حتى نفق دون أن يرثى له أحد، وبقي مصرعه الفاجع أمثلة الضعف والفشل، وأضحكة الأجيال المتوالية.

والتردد في رأى أكثر الناس مدعاة الإخفاق وإضاعة الفرص، وفي التردد فساد الرأى وإحباط التدبير كما في قول الشاعر:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة

فإن فساد الرأى أن تترددا

بل في التردد ما هو أدهى من ذلك وأشد، فقد يميئ التردد الإنسان حزناً وغماً، كما قال سلم الخاسر في ذلك المعنى الذى سلخه من بشار بن برد:

من راقب الناس مات «غماً»

وفاز باللذة الجسور

ودواوين الشعر ومبونات الأدب وأقوال الحكماء حافلة بإطراء العزم الماضى والهمة التى لا تنتنى، والضرية التى لا تعاد، على أن الأدب— كما هو معروف— يصلح لتزكية كل رأى وتزيين كل خطة، وفى الأدب ما يبين قيمة التردد والتروية وسياسة الأمور فى رفق وأناة وتقليبها على وجوها المتخلفة، وقتلها بحثاً وعلماً، ولكن النغمة الغالبة على الشعراء والكتاب هي إثارة الهمة التى لا تتراجع، والعزم الذى لا يكل، وينصح الأخلاقيون بها؟ إحاطة تامة،

فإذا انتهوا في أعقاب ذلك إلى رأى واطمأنوا إليه بادروا إلى تنفيذه فى غير روية ولا تردد، ونحن جميعاً نعجب بمواقف الرجال نوى المبادئ الثابتة والعقائد المتينة، الذين لم يترددوا عند استهدافهم لكيد المستبدين وقسوتهم، ولم تثن قناتهم، وظلوا أوفياء لما يعتقدونه حقاً.

وجمهرة الشعراء والروائيين والمؤرخين لا يرتضون أن يصوروا بطلهم فى صور الحائر المتردد، فإذا عرض فى تاريخ حياة البطل الذى يكبرونه موقف من مواقف التردد حاولوا إخفاء أو تهوين أمره وتلطيف وقعه، واستنبطوا منه حكمة سياسية أو عظة أدبية، وفى عصرنا الحاضر شكت بعض الأمم فى قدرتها على تفريج الأزمات الاقتصادية وحل المشكلات السياسية، ولم تحتمل مع ذلك عبء التردد فى تناول المشكلات وإبرام الأمور، وأولت أن تستمد العون من قوة خارجية، وهذا من أقوى الأسباب التى مهدت السبيل للديكتاتوريات الحديثة.

فالتردد مكروه ومنبوذ من الناس، ولكنه فى الواقع عنصر من عناصر تكوين العزيمة، وعامل من عوامل إمضاء الأمور، وبرغم ما وجه إليه من المطاعن ورمى به من المثالب، لا نستطيع أن ننكر الدور الهام الذى يلعبه فى خلق طرف الفن، والاهتداء إلى ابتكارات العلم، وفى مختلف فصول الحياة وأنوار العمر.

وكبار الفنانين وأعالى المفكرين أدرى بالتردد وأعلم به لما عانوه منه، فطالما ترددوا بين قمم الأمل وهاويات اليأس، وطالما ذاقوا لذة التوفيق والانتصار، وتجرعوا مرارة الترقب وذل الانتظار، فأتى تردد يعانیه الفنان قبل أن تسعفه عبقريته وتتبعث عزيمته؟ وأى شك يساور المفكر قبل أن يسعده الإلهام ويتسق له الرأى؟ وكل فنان مطبوع قد عانى تردد الضعيف وإقدام القوى، وعرف رعدة الخوف ويرويته، وهزة الأمل وحرارته، وكبار الفنانين ونوابغ المفكرين وعباقره العلماء لم يكونوا رجالاً قد صيغت نفوسهم من الحديد وقدت من الصخر، فهم يتجهون إلى أغراضهم بلا تردد، وينجزون أعمالهم بغير أناة، وطالما أعياهم التردد بين مد الأمل وجزره، شأن القوة الخالقة المبتكرة فى هبوطها وتساميتها، وإقبالها وإدبارها، وقد عرف عظماء رجال الدين ومشاهير القديسين تلك الأزمات المؤلة الرهيبة التى غام فيها الشك على نفوسهم، ودب اليأس إلى قلوبهم قبل أن يهتدوا إلى الطريق ويعمر قلوبهم الإيمان، ولو تحرى المؤرخون الصدق، وتجاؤوا عن المبالغة، واخترقوا ببصيرتهم ما وراء المظاهر الخادعة للمحوا فى حياة جبابرة الفاتحين من طراز أتلا، وجنكيز خان، وتيمورلنك، ونابليون، وقيصر، والإسكندر أثر التردد بين مختلف البواعث، ولاكتشفوا خلف ما يبدو عليهم من صلابة العزم، وعدم المبالاة بالعواقب، تلك الحرب الخفية المحتدمة بين الإقدام والإحجام والعزم والتردد.

وقد فطن لذلك جياكومو ليوباردى أعظم شعراء إيطاليا فى القرن التاسع عشر، فصور

حالة التردد وانكسار العزم التى أملت برجل من أمضى من عرفت الدنيا عزيزة وأصدقهم إقداماً، وهو كريستوف كولب، فى محاورة خيالية بينه وبين أحد أتباعه فى رحلته التاريخية الماثورة، وسيبرى القارئ فى هذه المحاور الخيالية فى الوضع والتصوير والحقيقة فى الجوهر واللباب كيف لعب التردد والشك دوراً ظاهراً فى حركة من حركات الكشف الخالدة، وفى رحلة من الرحلات البليغة الأثر، الخطيرة النتائج، وقد استنجد فيها ليوباردى خيال الشاعر الملهم، وإحساس الفنان المرفه، وصور ما تردد فى نفس كولومب من الشكوك صورة شعرية رائعة مقنعة.

والى القارئ المحاور المذكورة وقد اخترتها من «محاورات ليوباردى» التى نقلها من الإيطالية إلى الإنجليزية باتريك ماكسويل:

كولب: إنها ليلة غراء يا صاحبي!

جوتيريز: حقاً أنها كذلك، وستزداد جمالاً لو أبصرنا الأرض!

كولب: أقسم أنك على حق، وأنت كذلك أدرك الإعياء من هذه الرحلة؟

جوتيريز: لم أسأم مجرد الرحلة، ولكن رحلتنا هذه قد أخذت تطول أكثر مما كنا نقدر، وأقل ما يقال فيها إنها أصبحت مملة، ولكنى برغم ذلك لن أشارك مع الآخرين فى لومك وتعنيفك، وثق بأتى سأنصرك كما فعلت من قبل بكل مافى من قوة، وبكل ما ملكت يميني، مهما كان الأمر، وما دمت قد تطرقتا فى الحديث إلى هذا الموضوع فإننى أرجو أن تصارحنى: ألا تزال متأكداً من وجود أرض فى هذه الناحية أم أن الشك قد أخذ يتسرب إلى نفسك بعد خيبة الأمل المستطيلة؟

كولومب: إذا شئت الصراحة، وهى ما أستطيعه فى الحديث مع صديق راجح العقل مثلك، فإننى أعترف بأن الشك قد دب إلى نفسي من هذه الناحية، ويزيد فى الشك أن علامات خاصة أثارت فى بادئ الأمر كبير أملى قد أخلفت رجائى وعكست ظنونى، منها أسراب الطيور البحرية التى مرت بنا طائرة مقبلة من الغرب، بعد أن برحنا جوميرا بأيام قلائل، فقد خلقتها علامة دالة على قربنا من الأرض، ولكنى خدعت فى ذلك، وهكذا كل يوم أرانى واهماً مخدوعاً فى علامة من العلامات التى اعتقدت من قبل أنها ستبىو لنا فى أثناء الرحلة، ومن ثم قد بدأت أقول لنفسى إنه ما دامت تلك التقديرات المنظورة التى كنت واثقاً بها ومتأكداً من صحتها قد غررت بى، فإنه من المحتمل أنى قد خدعت فى تقديرى وجود أرض فى الجانب الآخر من المحيط، ومع ذلك فإن هذا التوقع قائم على أساس هو من القوة والمتانة بحيث إنه إذا ثبت أنه خاطئ فإننى لن أعتد بعد ذلك على أى استنتاج إنسانى لا يقوم على البرهان المنظور والملمسة المحسوسة.

وإنى مضطر في الوقت نفسه إلى التسليم بأن الحقيقة كثيراً ما تبعد بعداً شاسعاً عن تصورنا لها، وأنا أسأل نفسي: كيف نستطيع أن نتق بأن كل جزء من أجزاء الدنيا يشبه الأجزاء الأخرى، أو أن النصف الغربي منها يلزم أن يكون به يابس وماء لجرد كون القسم الشرقي منها كذلك؟ ونحن لا ندري، فربما كان إقيانوسا متسعاً مترامياً، وربما كان مكوناً من عنصر آخر غير الماء واليابس، وإذا كان به أرض ومياه فلسنا ندري أعمارة هي بالسكان أم خالية منهم، وإذا كانت عامرة بالناس مثل بلادنا فليست أدرى أسكانها قوم لهم عقول مثنا أم هم نوع آخر من أنواع المخلوقات، وربما كانوا يتفوقون علينا في الطول والقوة ورشاقة الحركة، وربما كانوا أرقى منا عقلاً وأسمى روحاً وأعظم حضارة وأسبق في مضممار العلوم والفنون.

وقد ملأت عقلي هذه الشبهات والظنون، والحق أن قوى الطبيعة كثيرة متنوعة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يكون أفكاراً مقطوعاً بصحتها عن مدى تصرفاتها وأعمالها في الأصقاع المجهولة، والأكثر تمشياً مع العقل أن نفترض أننا عرضة للتورط في الخطأ عندما نقبس ما لا نعلم، فقد يكون ما نهمله مختلفاً في طبيعته كل الاختلاف عما نعرفه، مثال ذلك أننا في هذه المياه قد رأينا بعيوننا أن الأبرة المغطسة تتحرف عن ناحية نجم القطب وتميل ميلاً إلى ناحية الغرب، وهذا شيء جديد بالنسبة لنا، وغير معروف عند الملاحين، وكلما فكرت فيه عجزت عن تعليله ومع ذلك فإنني لا أرى قيمة لتلك الخرافات التي ردها القدماء عن عجائب العالم غير المنظور، ومن أمثال تلك الخرافات الأوهام المفزعة التي ملأت عقول زملائنا في هذه الرحلة، وكل ما أريد أن أوضح لك هو أن تقديراتي - ولو أنها قائمة على احتمالات دقيقة - لا في رأيي وحدي وإنما في رأي صفوة الجغرافيين والفلكيين والملاحين الذين تحدثت إليهم وناقشتهم - أقول إن تلك التقديرات قد ثبتت بطلانها، لأننا وجدنا أن كثيراً من النتائج المستنبطة من مقدمات سليمة في ظاهرها قد زيفتها التجربة.

جوتيريز: موجز القول إذن هو أنك قد خاطرت بحياتك وحياة رفقاءك في مشروع ليس له سند من الحق أكثر مما لأية فكرة نظرية محضة!

كولومب: نعم؛ هذا هو الواقع الذي لا أستطيع إنكاره، ولكن إذا طرحنا من فكرنا أن الناس في كل يوم يعرضون حياتهم للخطر من أجل أشياء زائلة، وأغراض تافهة، أو لغير غرض على الإطلاق، فإنني أريدك أن تفكر قليلاً في هذه المسألة، وهي: إذا لم تكن جميعاً على ظهر هذه السفينة وفوق متن المحيط في هذه العزلة المحفوفة بالشكوك والأخطار، ففي أي أحوال أخرى كنا نكون؟ وما الذي كان يشغلنا ونزجي به الوقت؟ أترانا كنا نكون سعداء! يبدو لي أنه من المحتمل - إلى حد كبير - أننا كنا نكون في خطر أعظم وهم أقدم مما يحيط بنا

الآن؟ وربما كان استولى علينا الملل الذي لا يطاق ولا يحتمل، وما معنى حالة الانطلاق من إيسار الشكوك والأخطار! إذا كان معنى ذلك نيل السعادة والاستمتاع بالقتاعة وراحة البال فإننى أسلم بأنّها أفضل جميع الحالات، ولكن إذا كانت هذه الحالة اسماً آخر للرتابة المملة والسأم المضوى فإننى أصّر على أن أية حالة أفضل منها.

ولا أقول شيئاً عما تناله من المجد، وما يعود على غيرنا من النفع لو نجح مشروعنا كما نؤمل، وإذا لم نجح من رحلتنا هذه ثمرة فيكفى أنها أماطت عنا غبار الكسل وصدأ الضمول، وعلمتنا كيف نقدر النعم السابقة التي كنا نسترخسها ونستهين بها.

ولعلك قرأت أو سمعت ما كتبه القدماء عن المحبين الذين فشلوا في حبهم، وكيف كانوا يلقون بأنفسهم من فوق صخرة سانتامورا، وكان في اعتقادهم أن الذي ينجو من هذه الوثبة اليائسة يبرأ من علل الحب اليائس ببركة الإله «أبولو». ولست أدرى أكانوا بعد ذلك يتقلبون في أعطاف النعيم أم لا، ولكن الذي أعلمه أنهم لو نجوا من الموت لحرصوا على الحياة التي نبذوها من قبل أشد الحرص دون أن يستعينوا على ذلك ببركة «أبولو» وأنا الآن أشبه رحلتنا هذه بوثبة من تلك الصخرة، وهي تحدث نفس التأثير، وسيكون تأثيرها أبقي وأنوم.

ومن المعتقدات السائدة أن الملاحين والجنود لا يحرصون على الحياة لكثرة استهدافهم للأخطار، وطول تعرضهم للموت، ولكن الأمر على نقيض ذلك. فهم من أجل ذلك يقدرّون الحياة ويحرصون عليها، ونحن ننظر بدون اكتراث لكثير من النعم التي في متناول الأيدي، ولكن الملاح يحسن تقديرها لأنه قد حرم منها، ونبشني، من من الناس يرى أن الوقوف على قطعة من الأرض اليابسة نعمة سابقة غير الملاح؟.. أليست رؤية اليابس هي الآن أول فكرة تملأ نفوسنا عندما نستيقظ من النوم، وآخر فكرة تمر بخاطرنا عندما يغشانا النوم! ولو أبصرنا يوماً قمة جبل أو شاهداً منظر غابة لاستطارنا الفرح، ولو لمسنا أقدامنا الأرض فإننا سنظل زمناً شاعرين بالغبطة والسعادة.

جوتيريز: كل هذا حق، وإذا كانت فروضك النظرية قائمة على أساس مكين مثل تسويقك لها ودفاعك عنها فسوف نظفر ببغيتنا، ونحظى بهذه النعمة.

كولومب: أما من ناحيتي فإننى أشعر شعوراً قوياً باقتربنا من الأرض ولو أنى لا أستطيع أن أثق الثقة كلها بهذا الأمل، ومنذ أيام لس جهاز سبر الأعماق مادة تدل دلالة واضحة على ذلك، وقد بدا لى فى المساء أن ألوان السحب الحافة بالشمس وأشكالها مختلفة عما كنت أعده من قبل، وقد رق الهواء واعتدل، وهذا عصف الريح، كئن عائقاً مادياً يعترض هبوبها، وقد شاهدنا أمس قصبة طافية على سطح الماء، وقد حفر عليها رسم، وقد بدأت أسراب الطيور تكثر يوماً فيوماً، وقد خدعتنى من قبل، ولكن مظهرها فى هذه المرة يبعث على الأمل،

ويزيدنى ثقة بذلك الأمل أننى رأيت بينها طيوراً لا تدل أشكالها على أنها طيور بحرية،
ويا لاختصار برغم عدم ميلى إلى الإسراف فى الأمل قد أخذت هذه الدلالات تملؤنى ثقة
ورجاء.

جوتيريز: أرجو من الله أن يحقق آمالنا هذه المرة.

فلسفة مازاريك

لم يكد ينقضى شهران على الأزمة العصبية العسراء التي عانتها الجمهورية التشيكوسلوفاكية الأخيرة في سبتمبر عام ١٩٣٨ حتى مضى الموت بكاتبها الكبير كارل كابك بعد أن ذاعت شهرته، وعرف له نقاد الأدب فضله واعترفوا بمكانته، ونقلب كتبه ورسائله إلى مختلف اللغات، وصادفت رواجاً وإقبالا في شتى البيئات، وقد كان كابك مقرباً من زعيم تشيكوسلوفاكيا الكبير مازاريك، وقد تولاه بالرعاية وكفله بالتشجيع، وأنزله من نفسه أسمى منزلة، ولم يمت كابك عن سن عالية، فإنه لم يتجاوز الثامنة والأربعين، وقد هدمت منه الأحداث التي نزلت بأتمته، وضاعفت علته، فلم يثبت للمرض ولم يكن كابك صديق مازاريك وحده، وإنما كان كذلك من أوفى أصدقاء الجمهورية، ومن أشد الناس تعلقاً بها وأقوم حماسة في نصرتها، وكان أكبر ممثلها والذائدين عنها بين رجال الأدب وحملة الأقلام، وقد كادت حياته أن تكون متصلة بحياتها مستمدة من أصولها، وذلك برغم أنه لم يشترك في السياسة اشتراكاً فعلياً ولم يشهد مشاهدتها ولم يتعرض لأخطارها، وكان يعتبر لسان حال الشباب الطامح المرجو، والمعبر الأمين عن سريرة قوية، والممثل لتقاليدهم الأدبية وملكاتهم الفنية، وهو في كتبه يعطيك صوراً بديعة لحياتهم من الطفل الغرير إلى الشيخ المجرب ومن الفلاح الكادح في حقله إلى الفتاة البوهيمية المزهوة بجمالها، وكابك ساخر ممتاز يلطف من وقع سخريته روح العطف الفاضل في كتابته.

وقد كان الرئيس مازاريك يستزيره في قلعته وفي قصره الخلوي ليقضى عنده أمسيات أيام الجمعة، وكانا يديران الحديث على مسائل الفلسفة وشئون التفكير العالي في السياسة والأدب والتاريخ والدين، وقد جمع كابك بعد ممات زعيمه خلاصة ما دار بينهما من حديث في كتاب حفيظ، يعد من أمتع كتبه وأبقاها، ولعله كان آخر ما أصدره من المؤلفات، وقد بدا لي أن أختار منه المحادثات الآتية لدلائنها على فلسفة حياة رجل عظيم من رجال هذا القرن البارزين.

كابك: أترى أن يكون النظرى مرموقاً على خدمة العلمى؟

مازاريك: نعم ولكنى أرى كذلك أن يكون العلمى موقوفاً على خدمة النظرى، والفكر النظرى له قيمته حتى عندما يصعب نقله إلى عالم الواقع، وأهمية الفهم لا تقل عن أهمية العمل، وفى أثناء الإقبال على العمل نحصل المعرفة الموفق، وإذا نشأ فى بعض الأحيان تضارب بين النظرى والعلمى فلا بد من وجود خطأ وسوء فهم من ناحية من النواحي، فيما أن النظرية غير صحيحة وإما أن التنفيذ لم يصحبه التوفيق، وفى الأغلب يحدث الاثنان معاً، وطبيعتى العملية تحدونى فى كل وقت إلى التماس المعرفة العلمية والدراية الفلسفية، ولست أطلب التفكير العقيم أو اللعب بالألفاظ، كما لا يروقنى المجهود الضائع عبثاً، وكما أن النظرية قد لا تثمر ولا تؤتى أكلها، فكذلك العمل قد لا يسفر عن شئ ولا يأتى بنتيجة، ومعنى الحياة ليس مقصوراً على العلمى والنافع، فإن الشيطان جد مجتهد، وهو عاكف على الاحتيال ليلاً ونهاراً، ولكنه مع ذلك غبى أحمق، وأنا على أى حال من طلاب المعرفة الموضوعية للأشياء المعينة.

كابك: وهل ترى إخضاع العلم والأخلاق؟

مازاريك: إنى أقول: العالم لا العلم، وكل إنسان خاضع للأخلاق، وكل ما نعمله ونحاول فهمه واقع تحت سيطرتها، وتعرف الأشياء نفسه واجب أدبى مثل حيناً لجارنا وحيناً عليه، ونحن لا نكرم مواهب العلماء والفلاسفة، وإنما نكبر جهادهم الهائل لأجل الحق، وهو عمل أخلاقى، ولذا نشعر بأن سوء استعمال العلم جريمة، وأخلاقية العلم وفائدته هى فى أن يعمل بنية خالصة لأجل المعرفة والاهتداء إلى الحق، والحق بطبيعته صالح للحياة عائد عليها بالخير.

كابك: نعم ولكن ربما توقف الأمر على الأسلوب الذى نجرى عليه فى استعمال الحق.

مازاريك: تريد أن تقول إن الإنسان فى بعض الأحيان يسئ استعمال العلم ويخطئ فى الانتفاع من المعرفة، وهذا حق، ولكنى مع ذلك أرى أن الحق قليل كل شئ، والحق لا يناقض الأخلاق، ولا دوام لنفع يجى من وراء الباطل أو ينجم من الكذب، وليس الكذب من صفات الرجولة، وإنما هو سلاح العاجز، وقد يركن إليه الرجل الفظ العاتى، أما الرجال الأقوياء فإنهم يتجافون بأنفسهم عنه، والحق الأمين والمعرفة الصادقة لا يجى من جرائهما شر ولا ضرر.

كابك: وما رأيك فى العلم الذى يخدم الحرب ويعين على إشعال نارها؟

مازاريك: إن العلم لا يثير حرباً ولا يهيج شراً، وإنما يعزى ذلك إلى نقائص الإنسان وعيوبه وضنه بأن يبذل للعلم كل ما يستحقه. ولو كانت الدنيا تهتدى بهدى المعرفة وتسترشد

بالحق لبطلت الحروب وانتفت بواعثها، ومن الجائز للإنسان أن يتخذ العلم وسيلة للدفاع وتوقي الأخطار، ولكن تسخير العلماء واصطناع القسوة والأخذ بالعنف جريمة منكرة، ويلزم أن نفرق في النهاية بين الحق والقوة، والصادق والزائف، والحقيقة والوهم، وقد وضع لكل عيّن سوء أثر الحرب السالفة، وما أصاب العالم من كوارثها، ولا تزال معرفتنا للعالم وللناس بعيدة البعد كله عن الكمال، ولزام علينا من أجل ذلك أن نجد في طلب المعرفة والبحث عن الحق بآمانة وإخلاص، ولابد من انتصار الحق في النهاية.

كابك: إنك مؤمن بالله مصدق بوجدانيته، ولكن ما سبب إيمانك؟ أصادر هو عن الشعور، أم عن العقل أم عن اليقين؟

مازاريك: إن إيماني قائم على العقل وقد استخلصت عقيدتي من التجارب والعقل معاً.
كابك: وما دليلك على ذلك؟

مازاريك: أقوى دليل في رأيي هو الدليل الغائي، لأن التسليم بوجود غاية للعالم والحياة وحوادث التاريخ والمجهود الأدبي يفرض بي إلى الاعتراف بوجود خالق مهيم الكمال من أسمائه، والله نفسه هو العقل، وقد أدرك اليونانيون ذلك عندما انقشعت من فوق أبصارهم غشاوات الخرافات وتحررت عقولهم من أسار الأساطير والأوهام، فقد قال أناكسجوراس: إن العقل هو مبدع الكون، ونال بذلك ثناء أرسطو الذي قال عنه إنه مثل المفيق بين السكارى.
كابك: وكيف تثبت وجود تلك الغاية؟

مازاريك: بطريق العقل والتجربة، وحقيقة أن أكثر الناس لا يؤمنون بالإيمان كله بوجود غاية، ولكن كيف يعيش الرجل الذي ينكر الإنكار كله وجود نظام في الدنيا وما يترتب على ذلك من وجود غاية لكل شيء، بل هو إلى حد ما ينشئ هذا النظام المعقول في الأشياء، والعقل بطبيعته موكل بالنظام وطلب الغاية، وهو نفسه يصوغ الغاية وينشئ الغرض، والقول بالمصادفة وانتفاء الغاية يناقض العقل ولا يجري على سنته، والعقل نفسه هو عامل النظام وموجد الغاية، فوجود النظام الذي يتوخى القصد أمر يؤيده العقل ويشد دعائمه، ومعرفتنا في صميمها غائية.

كابك: وكيف تفسر وجود الألم والشر والشقاء والحروب والكوارث؟
مازاريك: ليس من همي تفسيرها، وإنني أعرف عجزى عن ذلك، ولكن الفلسفة المادية، ومذهب وحدة الوجود، ومذهب المثنوية، وسائر المذاهب المناهضة لمذهب الوجدانية، ليست جميعها أقدر مني على تفسيرها، وإنني أستمسك بتلك العقيدة لأننا لو عرضنا جميع الغروض الخاصة بمادة الدنيا وأصلها لوجدناها أبسطها وأبعدها عن التعقيد.. وخبرني لماذا نحن نعتد بالمؤلم ونحصى الشر والفوضى، ولا نقيم وزناً لجوانب الحياة الباسمة السليمة ونواحيها

الخيرة الصالحة؟ أن نظام الدنيا به نصيب أوفر من الخير، ولكن الإنسان يحس أن الشر أقوى مراساً وأعظم صولة، وإنى لا أستطيع أن أفسر بأمانة ما الذى ينتفع من النقص والشر وما إليهما، ولكنى أرى أن الإنسانية تستطيع مواجهة نقائص الحياة ومساوئها، ولا تكون الحياة حياة كاملة إذا خلت من محاولة التغلب على العقبات العارضة والاستعلاء على الظروف القاسرة، ولست أعتقد أن الفلسفة فى حاجة ماسة إلى تزييف مذهب التشاؤم والدفاع عن الله، وليس الله فى حاجة إلى مدره، والمرض والشقاء والجريمة لا تنفد بالكلام، ولا تظن أنى أغمض الطرف عن متناقضات الحياة وما بها من دواعى الشقاء وأسباب الألم، وعندما زرت لعهد قريب زيدليكوفايش فى مورافيا كان يتقطر فى مسمعى تقريد العنادل الشجى المستطاب، وعلمت هناك أن العنادل كانت تكثر من التقريد لتوفر البعوض فى ذلك العام، وخطر ببالى أن ذلك التفريد شكر لله لأنه هباً لها هذا البعوض، ونفس طنين البعوض ضرب من ضروب التسبيح لله لأنه أتاح له العنادل لتتغذى به فى طيرانها وتحويمها، والعقيدة الغائية مثل البندقية الصلبة الجامدة إذا أعياك كسرهما فهى أسهل فى راحة يدك من المذاهب التى ترى الكون خاضعاً للمصادفة نهياً للفوضى ويطلان الغاية.

والدليل الثانى على وجود الله هو الدليل الكونى، وذلك أننا لا نستطيع أن نتصور الكون بدون خالق، ولا نستطيع أن نفهم منشأه وحركته وتقدمه بدون محرك أول، ومن وجهة النظر السببية يقتضى الأمر أن يكون هناك بدء لهذه الحلقة من الأسباب، ولا أعتبر اللا أدريه التى تقول باستحالة المعرفة تفسيراً للكون والحياة.

كابك: وهى حتى من الوجهة النفسية غير مألوفة، وكيف لا نسمح لأنفسنا بالبحث عن الأسباب الأولى؟ إن ذلك يذكرنى بأقصوصة القصر ذى الحجرات التسع المسموح بدخولها والحجرة العاشرة المحرم فتحها والدخول إليها، فإن ذلك يثير الطلعة، ويوقع فى الروع أن الحجرات التسع لا أهمية لها، أو ليس فيها ما يشوق الخاطر، وأن الحجرة العاشرة المحرمة هى بيت القصيد ومطلع الأسرار.

مازاريك: لقد أصبت الحقيقة ولمست صميم الأمر، وقد أخطأ هيوم وكونت عندما نبذا كل محاولة للبحث عن السبب الأول، وقد غالى كونت فى محاولة منع مثل هذا البحث حتى انعكست معه الآية وغاص فى الأسطورة إلى أنثيه.

كابك: وهل تكفى فى الاستدلال على وجود الله بهذين الدليلين؟

مازاريك: نعم، ويتعبير أدق أقول: «فرض وجود الله» والاعتقاد بوجود الله فرض أبسط وأكثر تمشياً مع المنطق من الفروض الأخرى مثل المادية وما إليها من المذاهب، بل إنى أذهب إلى مدى أبعد من ذلك، فإنى - موحداً - أعتقد بوجود الروح وخلوبها، ومع استيقانى من ذلك

ليس عندى براهين دامغة تخرس كل إنسان، ولكن ألا ترى إلى هؤلاء العلماء الذين يناقحون عن المادية وعن مذهب وحدة الوجود وأمثالهما من المذاهب؟ وما أحسبني أكثر منهم عصمة وتوقياً للخطأ ولا أحسن منهم إلماماً بأطراف المعرفة، ولا أظن أن فرض خلود الروح يناقض علم الحياة ويخالف حقائق علم النفس، ولقد مرت بى أوقات وأنا فى مستهل الشباب كان يقلقنى ويهمنى ويقض مضجعى عجزى عن إقامة دليل لا يمكن تقييده ولا نقضه، ولكنى اليوم أقول لنفسى أفى استطاعتنا أن نعرف الأشياء معرفة لا يخالجهما شك ولا يطوف بها تردد؟ وماذا تكون الدنيا لو خلت من الأسرار وانكشفت مجاهلها؟ ولو أننا اعتقدنا أننا أوتينا علم كل شيء لنفخ فينا الغرور ومشينا فى الأرض مرحاً، وعندما كنت أستاذاً للفلسفة كان يجئ إلى الطلبة ويسألوننى عن هذا وذاك من الأشياء، وكانوا لا يتصورون كيف أقول لهم: لا أدري، وكانت تأخذهم الدهشة من هذا الفيلسوف الذى لا يملك الجواب عن كل شيء.

كابك: ولكن إذا كان يعجزك إثبات خلود الروح فيلزم أن يكون عندك على الأقل بعض الأسباب التى تدعم بها اعتقادك.

مازاريك: نعم! إنى لا أستطيع أن أتخيل أن المعرفة والفكر وإدراك الجمال والثقافة جميعها ضائعة فانية، والعالم الطبيعى يقول إن الطاقة لا تفنى، فما مصير الطاقة التى فى نفوسنا؟ إن الروح تحرك المادة، والعقل يهبها الصورة والشكل، ويرسم لها الغاية ويستوعب الدنيا فى كليتها الشاملة، فهل تخلد المادة وتبقى على حين تفنى الروح وتتلاشى! ألا يكون هذا المادة وتبقى على حين تفنى الروح وتتلاشى! ألا يكون هذا من الغرائب؟

كابك: ولهذا الاعتبار ترى أن الحياة نفسها حجة على الموت، حقيقة إن كل الأشياء الحية سيدركها الموت، ولكن كل الأشياء الحية كذلك بها دافع قوى غلاب إلى طلب الحياة، وإلى أن تعمر وتمتد حياتها، وإلى أن يطول أجلها دون أن يطرأ عليها تغيير، والنبات يعيش حياة ثانية فى بذوره ولا يفقد شيئاً من مميزاته وخصائصه، فكيف لا ترث الروح وحدها نفسها ولا يتاح لها البقاء والاستمرار؟ لا ريب أن هذا غير طبيعى.

مازاريك: فى وسعك أن تقول إن أعمالنا تحيا بعدنا، ولكن كم من الناس هؤلاء السعداء الذين يخلقون أعمالاً جلية وماتر باهرة للأجيال اللاحقة؟ فالبعض يفتخر فى باكورة الشباب، والبعض لا تتاح له الفرصة لإظهار مواهبه، ولا أعتقد أن القوة الكامنة فيهم تذهب عبثاً وتتبدد هباء، لأن هذا ظلم جائر وغبن شديد.

سياسة فيلسوف

العصر الحاضر من العصور التي اشتدت فيها العناية بدراسة السياسة والوقوف على مذاهبها المختلفة واتجاهاتها المتعارضة، وقد كان هذا الإهتمام المتزايد نتيجة مرتقبة لذلك القلق العميق والاضطراب الداخلي المستولى على الروح الإنسانية في هذا العصر، وقد قام كثير من الأمم بعد الحرب واتبعت أساليب مستحدثة تحدث بها النظم القديمة التي ظلت زمناً فوق منازع الشك، وقد رأيت من المناسب أن نقف في تلك الفترة على آراء زعيم خطير وسياسي منجذ مثل توماس مازاريك، ويزيد في قيمة آرائه أنها لم تستمد من حفير الكتب ولم تتكون في أهباء المطالعة وحجرات الدراسة وإنما تكونت في ضوء الحوادث الجسيمة، وهي ثمرة تجربة طويلة وخبرة عريضة، وسيتبين القارئ من معارض أحاديثه أنه لا ينتسب إلى مدرسة مكيافلي المعروفة، ولا يرى ذلك التفريق بين السياسة والأخلاق الفاضلة الذي يبلو العالم اليوم المر من ثمراته، ويذهب بعض المفكرين السياسيين إلى أن السياسة فرع من علم النفس لأننا إذا عرفنا الكثير من الحقائق عن الطبيعة الإنسانية أمكننا أن نستنبط النظم الملائمة لها، ولكن مازاريك يرى أن الدراسة التاريخية لها المكانة الأولى لأن التاريخ هو سجل الحقائق وهو زاخر بالحقائق النفسية القيمة لمن يعرف كيف يقرؤه، وإذا جهلنا التاريخ فإننا لا نستطيع أن نتبين الأثر العملي للدوافع والمحركات النفسية وألتبس علينا تقدير نتائجها، والنظرية السياسية التي تكفي بالبحث عن الطبيعة الإنسانية وتتخذها أساساً لاختيار القوانين والنظم تعنى في أغلب الحالات بالفشل والاختفاق، وعلم السياسة إنما هو ضرب من فلسفة التاريخ، وكبار فلاسفة العالم السياسيين كانوا يستمدون فلسفتهم السياسية من التاريخ مثل هوبز ولوك وروسو وكارل ماركس، فالسياسة عند مازاريك يلزم أن تدرس في ضوء التاريخ وأن تقوم على أساس تنظيم نتائج تجارب الحكم عند الحكومات والدول المختلفة، وقد بسط جانباً من هذه الفلسفة في المحاوراة الآتية - وهي مختارة من أحاديثه مع صديقه الكاتب الكبير كارل كايك - وقد استطاع كايك - قبيل وفاته بقليل - أن يقدم للعالم بهذه المحادثات خلاصة وافية لآراء زعيم بلاده في السياسة والاجتماع والفلسفة وأن يرسم لنا خلالها صورة دقيقة الملامح، ناطقة السمات، قوية الأثر، لذلك الزعيم النابه والمفكر الممتاز: كايك: هل تعتقد أن شريعة الحب تصلح في السياسة وفي الحياة الخاصة على السواء.

مازاريك: نعم هي بلا ريب صالحة للحياة على اختلاف ألوانها، وللأعمال والأفعال جميعها، وكل سياسى أمين راجع التفكير يعمل على تقوية الروابط الإنسانية فى داخل بلاده وفى خارجها، ويجاهد بلوغها مرتبة الكمال، والسياسة كسائر الأعمال التى تصدر عن الإنسان يلزم أن تكون خاضعة لنواميس الأخلاق، وأنى أعرف أن هناك فريقاً من السياسيين يخالون أنفسهم عمليين وجد حصفاء فلا يحفظون بهذا المطلب ولا يتوخون تلك الغاية، ولكن التجربة - ولست أتحدث فى هذا المقام عن تجربتى الشخصية وحدها - ترينا أن السياسيين الأمناء ذوى الأفكار الثابتة هم الأبلغ تأثيراً والأقدر على النهوض بالأعباء ومواجهة الحوادث، وهم يؤدون لوطنهم وحكومتهم أعمالاً ينكل عن القيام بأمثالها الساسة الذين يسمون أنفسهم بالعمليين البارعين، ومرور الزمن كفيل بإظهار غباثهم وقصر نظرهم.

كابك: ولكن السياسيين المثاليين قد يخطئهم التوفيق.

مازاريك: فى بعض الأوقات يصيبون وفى أوقات أخرى يخطئون، وإذا كنت أتحدث عن الأخلاق فى السياسة فإننى واضح نصب عيني فى أول الأمر الأساليب السياسية والمناورات الحزبية والأعمال الإدارية على وجه الإجمال، وممارسة السياسة نفسها يجب أن تكون عملاً أخلاقياً، والبرنامج السياسى يجب أن يكون متمشياً مع قواعد الأخلاق، وفى مستطاع كل إنسان أن يضع برنامجاً سياسياً محترماً سامى المبادئ، ولكن معرفة الأعمال الإدارية شىء والعمل على مزاولتها فى رفق واعتدال شىء آخر، ومعرفة مصلحة الدولة ومنفعة الوطن فى أوقات الأزمات المتحرجة والمواقف الفاصلة تختطف عن ذلك كل الاختلاف، ولذا يتحدث الناس فى مناسبة ذلك عن مسائل السياسة العليا، ويفرقون بين رجل الدولة والسياسى الحزبى، والسياسة فى هذا المعنى قائمة على أن يحسن السياسى أدراك الطرف المناسب الذى يخدم فيه أمتة خلال تدفق التاريخ وتوالى الحوادث، ومما يعين السياسى على أدراك ذلك وقوفه على تاريخ بلاده ومعرفة لحاضرها وعنايته بمستقبلها، ولقد عالجت تلك الحياة وتمرست بصروفها، وأنا رجل سياسة كما قدمت لك، وقد همتنى المسائل السياسية منذ كنت غص الشباب، وأنت تعلم أنى فى عام ١٨٩١ كنت نائباً ثم تنازلت عن النيابة، وكان الدافع الحقيقى لذلك شعورى بعدم نضجى السياسى، وذلك لأننى عندما وقفت على سياسة فينا وعلاقاتها بأوروبا وجدت أنني برغم ما حصلت من علم غير متأهب تمام الأهبة، فبدأت من جديد دراستى السياسية فى دقة وتمحيص، وحاولت أن أجلو لنفسى مشكلة العصر، وكان تاريخ أمتى فى نظرى جزءاً لا يتجزأ من تاريخ العالم، ولم يقتصر عملى خلال تلك الفترة على تأليف الكتب.

كابك: كنت تعتقد فى ذلك الوقت أن السياسة يجب أن تقوم على أسس علمية فهل لا تزال

مستمسكاً بهذا الرأي بعد تجربتك الطويلة؟

مازاريك: نعم أن السياسة علم ويجب أن تكون كذلك على الدوام، حقيقة أن جامعاتنا ليس بها أساتذة لتلقين السياسة، والسياسة عندنا تدرس من حيث هي فرع من علم الاجتماع وناحية من نواحي القانون وجانب من جوانب الفلسفة، وقد خصصت لها في بعض الأمم الأخرى مناصب وكثرت فيها المؤلفات واتسعت بحوثها، وأمامتنا مرحلة لابد لنا من اجتيازها قبل أن نعمل على إنشاء منصب أستاذ لدراسة السياسة في جامعاتنا.

كابك: وهل ترى أن اليون شاسع بين السياسة العلمية والسياسة العملية البرلمانية؟

مازاريك: نعم وكيف لا يكون الأمر كذلك؟ ولكن يوجد كذلك خلاف بين آراء الجماهير التي تؤم الكنائس وآراء المستنيرين من رجال الدين، وليس الفرق بين الرجل العادي والمحامي الذي درس القانون بقل من ذلك، ولكنني إذا كنت أقول بالسياسة النظرية العلمية فإنني لا أنسى الفرق بين العملي والنظري، ومما يسترعى النظر في تقدمنا السياسي أن بعض رؤساء الحكومة وقادة الأحزاب وأعضاء البرلمان لم يتلقوا تعليماً جامعياً، ولكنهم برغم ذلك قد تزعموا الأحزاب وألقيت إليهم مقاليد الأمور، وأنى أعتقد أن السياسة العليا تستلزم إعداداً نظرياً، ولكنني أصرح مع ذلك بأن حزمة من الإجازات العلمية لا تغني عن المواهب الطبيعية، ولا تنس كذلك الناحية الأخلاقية لأن الإطلاع والعلم واجتياز الامتحانات والحصول على الإجازات والألقاب والدرجات ليس دليلاً على الشرف والشجاعة والاعتدال.

كابك: اسمع لي بسؤال لا أريد به شخصك، عندما تتكلم عن السياسة من حيث هي علم ما هي علاقة السياسة بالفلسفة؟

مازاريك: تريد أن يكون سؤالك غير شخصي، ولكنك في هذا السؤال شخصي إلى أقصى حد لأنك تريد أن تقول إنني قد انتقلت من منصب أستاذ في الجامعة إلى مسند رئاسة الجمهورية، وسأحاول في الإجابة عن سؤالك أن أتجرد من شخصيتي، ولعلك تذكر أفلاطون وأرسطو والقدّيس أغسطين وتوما الاكويني وأمثالهم، ولقد كان الفلاسفة على الدوام معنيين بالمسائل الفلسفية، والنظريات السياسية هي صورة من صور التفكير الفلسفي، وقد كان ذلك نتيجة لتلك العلاقة الأكيدة بين الأخلاق والسياسات، ولقد كانت الأخلاق على الدوام جزءاً من الفلسفة، وفي العصور الحديثة استقل علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وهما علمان سياسيان وكل علم يعتمد في ناحية من نواحيه على الفلسفة، ويستند من ناحية أخرى إلى الحياة العملية.

والفلسفة علاقة مباشرة بالأخلاق لأنها تحاول أن تكون صورة عامة للحياة والدنيا، والحكومة في العصر الحاضر تستغرق جميع فروع الإدارة الاجتماعية فهي من ناحية عملية

تجاهد وراء ما تقصد إليه الفلسفة، وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم ما رمى إليه أفلاطون الذى أراد أن يكون الحكام فلاسفة، والسياسى الحديث يلزم أن يكون قوى الناقدة غزير العلم صادق الحكمة، والسياسى الذى يتصدى للقيادة يلزم أن يكون خبيراً بالرجال طبعاً بأسرار الزعامة، وما معنى الزعامة إذا أعجزه النفاذ إلى قلوب الناس والولوج إلى سرائرهم؟ ولا تنس أن الفلاسفة أو العلماء قد يتورطون فى الأخطاء وأكرر أن الكتب أو الأجازات ليست كافية لأن الرجل السياسى فى حاجة إلى التجربة، والبراعة وحدها ليست مجدية.

كابك: أراك تؤكد العلاقة بين التاريخ والسياسة.

مازاريك: نعم وأنت تعرف اهتمامى بمادة التاريخ، ولقد كنت على الدوام معنياً بالدروس التى تقيدها سياستنا من التاريخ، ولست أدعى أنني مؤرخ ولكن عقيدتى الغائية كانت تستحثنى لتبين معنى الدنيا وفحوى أعمالنا، وكما أجهدت فكرى فى ذلك، وأنا ألتمس المعرفة من المؤرخين، ولكنى فى الوقت نفسه أراقب سير الحوادث فى بلادى وفى غيرها، وفى مدى يجاوز نصف قرن يستطيع الإنسان أن يرى كثيراً وأن تتسع أمامه مناح التفكير وتتكاثر موضوعاته، وقد طالما رددت أن سياستنا يجب أن تقوم على أساس عالمى، وأن يكون اتجاهنا دولياً.

كابك: وهل ترى أن السياسة الخارجية أجل شأنًا من السياسة الداخلية؟

مازاريك: فى بعض الأوقات ترجح كفة السياسة الداخلية، ولكن فى المدى المتطاوّل ستلتقى السياسات الداخلية فى الأمم والسياسات الخارجية، وسياستنا تفرض علينا أن نكون يقظين لما يحدث حولنا، وتحتم علينا مراقبة الاتجاهات والتيارات، وأنا أتصور السياسات العالمية تصوراً عملياً فهي يلزم أن تقوم على دراسة الدنيا وتاريخها، وهى تقتضى أن نكون واقفين على ما يحدث حولنا وما يتصل بشؤوننا ولا يهولك ذلك فإننى لا أوصى بالابتداء من عهد آدم ولا أقول بالانغماس فى تاريخ الدنيا بأسره إذ يكفينى تاريخ أوروبا وذلك الجزء من آسيا وأفريقية الذى ارتبط تاريخه بتاريخها.

كابك: الحدود الذى نكرتها على وجه التقريب حدود الجنس الأبيض.

مازاريك: نعم على وجه التقريب ولنترك آسيا الآسيوية، وآسيا الأوروبية أو أوروبا الآسيوية، أن جميع الأمم القائمة على شواطئ البحر المتوسط قد امتزجت ثقافتها وكثرت العلاقات بينها، وفى هذا الجزء من الكرة الأرضية بدأ التوفيق بين مختلف المذاهب واللغات والسكان.

ومن المظاهر الباهرة أنه فى ذلك الجزء نهضت الحضارات من أقدم الأزمنة وجاء تبعاً البابليون والآشوريون والإيرانيون والدول المصرية، وقد انقسم الإغريق شيعاً وأحزاباً، ولكن

الأتينيين حاولوا أن يوحدوا الأمة الهيلينية بعد أن نجحوا في رد غارة الفرس، ويظهر الإسكندر جاء إلى عالم الوجود امبراطورية ضخمة تضم اليونان ومصر وجميع الأجزاء التي كانت معروفة في آسيا لذلك العهد، وبعد عهد الإسكندر انهارت دولته وتصدعت أركانها، ولكنها لم تتحطم ثقافياً، وقد غزت الثقافة اليونانية روما وأوغلت في الغرب، وقامت بعد الإسكندر دولة الرومان وقد شملت اليونان ومصر وشمال أفريقيا، واستولت في الشرق اليونان ومصر وشمال أفريقيا، واستولت في الشرق على الولايات التي ضمها الإسكندر إلى امبراطوريته، وانتزعت في الغرب إيبيريا وبلاد الكلت والألمان، ثم انشطرت الدولة الرومانية شطرين وقد بقي القسم الشرقي في بيزنطة بعد انهيار القسم الغربي، ثم قامت في الغرب دول عظيمة منها دولة الفرنك، والدولة الرومانية المقدسة ودولة إسبانيا والنمسا.

كابك: ودولة الإسلام ومحاولة السويديين إخضاع شمال أوروبا.

مازاريك: نعم، وفي العصور الحديثة نهض نابليون وظهرت قوة الإنجليز والولايات المتحدة والروسيا وتمت الوحدة الإيطالية، وأصبحت إيطاليا تحاول بسط سيادتها على البحر المتوسط، وهذا الدافع إلى طلب القوة السياسية ظاهر كذلك في تاريخ الولايات الصغيرة، فدولتنا البوهيمية القديمة كانت إلى حد ما قوة عالمية، ومن الجائز أن يقال مثل ذلك عن بولندا وبلاد الصرب والبلغار، ففي كل زمان ويكل مكان نلتقى بهذا الدافع الذي يسوق الأمم إلى التوسع خارج نطاقها وإلى أن تضم دولا أخرى، ولقد كان للعوامل الجغرافية أثر كبير في نشوء الدول العظيمة مثل الجبال والأنهار الكبيرة كالنيل والدانوب والراين وعلى الأخص البحر، وفي تاريخ الغرب كان للبحر المتوسط شأن سياسي بارز، ونفس اسمه يدل على ما كان له من أثر في ربط الأمم القائمة على شواطئه وبخاصة الإغريق والرومان والفينيقيين، ولم تتقدم الملاحة في المحيط الأطلسي إلا في العصور الحديثة وهو الصلة بين أمريكا وأوروبا، وقد علت منزلة المحيط الباسيفيكي وهو اليوم الصلة بين أمريكا والشرق الأقصى، وبذلك أصبحت الصين واليابان والهند مرتبطة بأمريكا وأوروبا.

ولقد نشأت تلك الدول العظيمة مدفوعة بدافع الرغبة في التملك وحب الغزو، ولكن التفاهم المتبادل بين الأمم الغالبة والأمم المغلوبة كان لازماً، ومن ثم نشأت الروابط الثقافية، وبذلك بلغت الروح ما لم يبلغه حد السيف، ولقد كان اليونان من أكبر دعاة الثقافة وحاملى لوائها، وفي عهد الإسكندر وبعده صارت اللغة اليونانية لغة علمية في أوروبا وآسيا وأفريقية، وإذا تأملنا الحركة التاريخية وجدنا أن الأمم لا تستطيع أن تعيش في عزلة، والجنس البشري منذ أقدم الأزمنة يتجه تدريجياً في سبيل الوحدة، وتاريخ الفتوحات والثقافات والدول الخوالي يرينا ذلك في صورة واضحة، ولقد كانت الحرب الكبرى هي المرحلة الأخيرة في سبيل هذا التقدير.

والمسألة الآن هي أَيْتَم تنظيم قوى الحكومات والأمم بالغزو والإخضاع أم بالسلام والتحالف والاتفاقيات الاقتصادية والسياسية والثقافية؟

لقد وضعت عصبة الأمم بعد الحرب الكبرى برنامج التنظيم السلمي للعالم وقامت حركات كبيرة وعقدت اجتماعات جمة لتقريب العلاقات بين الأمم، ويجوز لنا أن نقف الآن على أبواب التنظيم العالمي الصادق، ولقد أطلت عليك الحديث ولكن نظرة إلى الماضي تزودنا بالكثير مما ينفع في الحاضر والمستقبل.

بين متزنى ومسز كارلايل

متزنى فى طليعة قادة الوطنية ومن أوفى أصدقاء الإنسانية فى القرن التاسع عشر، وقد نشأ فى إيطاليا، ولما تنبه وعيه ووجد أوطانه مفككة الأوصال مصنوعة القوى ساءه أن يسوم النمساويون أبناء وطنه الهوان وهم سلالة الرومان الأمجاد ويحجبوا عنهم ضوء الحرية المقدس ونور العلم والعرفان فامتشق سيف الجهاد وظل طوال حياته مكافحاً من أجل إيطاليا وتحريرها واتمام وحدتها، وكان ثابتاً فى جهاده لا يستهويه النجاح ويبطره ولا يكسر من عزيمته الإخفاق ويقعد به.

وقد كان فى متزنى بشر سكان الجنوب وتفاؤلهم، ولكن السنوات الطويلة الموقرة بالأحزان والهموم التى قضاها فى سويسرا وتحت سماء لندن الفاتمة المريدة بعيداً عن سماء إيطاليا الطلقة الصافية قللت من بشره، فكان لا يزاله اكتئاب صامت شجى كالقيمة الرقيقة الشفافة التى تعلق صفحة القمر الباهر، وكان هذا الحزن يزيد نفسه الطاهرة الصافية ملائكية وسموا، ويث فى تضاعيف كلامه وكتابات رنة مؤثرة تجذب نحوه القلوب، وكان يزيده هذا الحزن انكاراً لذاته وتغانياً فى السعى لتحقيق مطلبه الأسمى ومثله الأعلى.

وقد تعرف متزنى أثناء أقامته بلندن بطائفة من كرام الأسر الإنجليزية واتصلت بينه وبينها الأسباب، ومن تلك الأسر أسرة كارلايل، وقد ظلت العلاقات الودية بينه وبين تلك الأسرة حتى فرق بينه وبين كارلايل المشكلات السياسية والإجتماعية، وقد ظلت مسز كارلايل تختصه بعطفها وودها المصفق برغم الجفاء الذى وقع بينه وبين زوجها، وقد أرسل إليها الخطابين الآتين فى أزمة من تلك الأزومات التى كانت كثيرة الوقوع فى حياتها الزوجية، وقد كانت مسز كارلايل شاعرة أدبية وامرأة موهوبة سامية اللب كبيرة الروح، وكانت معاشرة زوجها كارلايل من الأمور الشاقة لوعورة أخلاقه وتسخطه الدائم وتعلمه المستمر؛ صديقتى العزيزة:

قضيت سحابة الأمس خارج المنزل فلم أتلق كتابك إلا فى المساء، وكان الوقت جد متأخر، فلم أجد نهضة للكتابة إليك، وقد تبينت أثر الحزن العميق فى كلماتك القليلة، ولا أقول الحزن الذى ليس لصده رُب ولا لدائه طباب، وأسوأ ما فى الأمر أنه ليس فى طاقة أحد أن يسعدك ويأخذ بيدك، أنت وحدك فى وسعك أن تبددى تلك الخيالات التى تزورك والأشباح التى تطرقك إذا أعدت النظر الهادئ الخالص من الأهواء فى حياتك الماضية، وأنت وحدك تستطيعين أن تبصرى نفسك أن الحاضرة مهما يكن فلا تنصرف لك عن أن تلاقيه بنفس موفورة الكرامة، عارفة تمام المعرفة

بواجباتك، معتزة بروحك الخالدة، مؤمنة ايماناً دينياً بتلك الأيام القادمة التى ستشرق فى سماءها شمس لا تحجبها الغيوم والسحب، وكل ما تحويه قدرتي هو أن أشير عليك بالقيام بالواجبات التى لا أقول بأنّها تجعل الحياة سعيدة - فذلك أمر ما إليه سبيل - وانما تجعلها مقدسة جديرة بالعناية وتهون علينا الاستسلام للمقادير، ولكنى واثق بأنك ستضيقين بذلك أو تحقرينه، أنا كلينا يحمل فى مخيلته صورة الحياة جد مختلفة عن الصورة المرتسمة فى ذهن الآخر، وقد كتب لنا فى لوح المقدور أن نسير فى طريقين متوازيين، ولكن عرفاني بقيمة تلك الواجبات مازال هو الدافع الصادق الذى يتجافى بنفسى عن مزالق الكفر والإلحاد، وينأى بى عن مهاوى اليأس والقنوط، ويحثنى على المسير متلفعاً برد الهدوء فى طريق حياة تزداد على تسلسل الأيام اقفاً، ويتكاثر حملها على توالى الأعوام ثقلاً، وأن أشعر كل منا بشيء خالد فى نفسه لما يتطلب منا أن نسير هذه السيرة، وأنى لأعترف إليك الآن وأنا هادئ النفس وعلى بينة من أمرى أنني بما استقر فى علمك عنى ولأشياء ستظل مجهولة إلى الأبد أضطلع من الأيام بأعباء يرق عنها احتمالك، وقد لقيت من مؤلم الخدع ومرير الشكوك ما لم يعرض أمثاله لك، ولكنى جاعل قيد عياني أن لا سعادة تحت السماء، وأن حياتنا تضحية مقصود بها غاية أسعد، وحسبى أن يكون لى أحباب أقلاء، وإذا لم يكن ذلك فيكفينى أن تكون لى والدة ترصدنى رعايتها وتكولنى عنايتها من نواحي إيطاليا أو من السماء، وعلى أن أقنع بذلك ليحمينى الوقوع فى الشرك والارتطام فى الوهدة وما يفرض إليه من التفرق والانتشاع، ويكفينى ذلك لانصلت فى طريقى مجتمع القوة مثابراً على السعى ما وسعنى الجهد حتى أصل إلى حافة القبر - القبر الذى ستوجف إلى ساعته وإن لم أكن فى طلبه دائم الالاحاح على الصوت.

فانهضى أيتها العزيزة، وانشطى من عقال الأحزان، وانفضى عنك غبار الهموم، واعلمى أن مسيرنا ضربة لازم، سواء أرمضنا الألم أو لم يرمض، ذلك المسير الذى تجل وجوهنا فيه الإبتسامة الحزينة وتناقض فيه كلمات التشجيع، واننا نحمل بين جنوبنا سرّاً مقدساً لا يجب أن نزيل مصونه لمخلوق مهما تعاضمت قدرته وتعالى كلمته، وتزعمين أن حياتك فارغة خاوية فلا تجدهى! ألم تصنعى خيراً؟ أكانت حياتك ناصبة من الحب لا تذكرى والدتك وأفعلى الخير وارتضى عناية الله، وأعلمى أن وجودنا ليس سخرية من الله، وأنه لم يرسل فى نفوسنا عبثاً ذلك النزوع إلى الكمال، ولم يلهمنا ضلة ذلك الطموح إلى السعادة الذى نشقى منه الآن، وثقى بالله الأيام الباقية.

صديقك الدائم
يوسف متزنى

وفى ١٥ يوليو ١٨٤٦، أرسل إليها الخطاب الآتى

صديقتى العزيزة:

لم أجد سبيلاً إلى الكتابة إليك أمس كما كان فى نيتي لوفاة زوجة سشيونى بيتروكشى، ولقد كانت حزينه عند الموت ولكنه حزن معافى من العيوب برئ من النقصان، وهكذا ينبغي أن يكون حزنك وهذا ما أريده لك، بل هذا ما يستبِقُ إليك لو فكرت لحظة واحدة تفكيراً جدياً وقد انبعث فى صدرك الإيمان. أن الأفراح والآلام وإيماض الآمال ببروق النجاح أو انقشاع غبرتها عن الخيبة هى - كما تعودت أن أقول - مثل الأمطار وضوء الشمس لا بد للمسافر أن يتعرض لهما فى طريقه، فلنحمد الله ولنشكره إذا أطلع علينا أضواء الشمس، ولنشتغل فى بردتنا ونوثق عواويتها ونضم أزرارها إذا أرسلت السماء أمطارها، ولكن لنبعد عن تفكيرنا أن لسقوط المطر أو شروق الشمس أئنى تأثير على نهاية الرحلة المنشودة، ومثل هذا لا يغرب عن علمك ولكنك يعوزك يقين يعمر قلبك ويهيك القوة على النهوض بما يوحى به إليك فكر، وكذلك تمنحك الإيمان قوة العطف واليقين الدينى وذكرى الراحلين لو أحسنت الاستعانة بها، وأنا أعرف عطفك على، وتعرفين كذلك عطفى عليك، فلا تصوحى منى أزهير اليقين، ولا تتضبى فى ينابيع الرجاء، ولا تكونى على حرباً، فكفانى مساوره تلك الأضاليل التى تحف بى من كل جانب وتطالعنى من كل مرقب، وتميل بنفسى إلى ناحية الهاوية السحيقة، ولا تزيد نفسى حزناً، ولوعتى ايقاداً بسوء أسوتك، وظهورك بمظهر الشديدة الأثرة، المادية النزعة، وعهدى بك تؤمنين بالله، فلماذا لا تحضرك خاطرة أن الله أراد بهذه الحياة الفانية أن يبلونا، وأنه عما قليل سيقميننا فى ظلال رحمته ويبسط فوقنا جناح حنانه؟ لك والد ولك والدة ولو أنهما الآن غائبان عن عيني الجسد، ألا تستطيعين الاتصال بهما والإقضاء إليهما بما فى نفسك؟ إنى أعرف أن لحظة واحدة تستغرقينها فى مناجاتهما أجدى عليك من كلماتى برمتها وأجمل أثراً فى نفسك من نصائحى بجملتها، ولو كان والداك الآن فيما تسمينها الحياة أما كنت تفزعين إليهما وتلوذين بجوارهما وتخشين رأسك فى صدريهما فيزول همك وينفجر كريك وتحسين بأنك مدينة لهما بالقوة والاحتمال حتى لا يستشعرا منك الخجل؟ ولماذا يدور فى خلدك أنهما فى عداد الموتى وحيز الهلكى، وأنهما سلكا طريقاً لا رجعة منها، وأن روحيهما الخالدتين الفياضتين بالحب قد انتثر عقدهما وانحل نظامهما فليس لهما أبد الدهر ناظم؟ أيقدر فى معاهد حبك لهما ويقلل من فرط إجلالك أن غيبتهما المقابر ونصبت عليهما الصفائح؟

وطالما جال بفكرى أن ذلك النظام الذى بموجبه يغشى الموت المحبوبيين والمحبين هو آخر تجربة يتمتع بها الله قوة الحب، وإنى كثيراً ما أشعر بأن مناجاتى لأرواح أصدقائى الذين

مضى بهم الموت كانت لى مصدر قوة غير منتظرة تجيش فى نفسى غواربها وأنا هنا فى الأرض، ألم تتفق آراؤنا على تلك اللمحات الكاشفة التى توضح لنا العلاقة بيننا وبين الحياة الأسمى؟ أتودين الآن أن تفرقى شملنا المجتمع وتصدعى منا متلائم الشعب؟ كوني وكونى صديقة العهد لمن وقفت لهم حبك، وحبست عليهم إعجابك، وكونى ملء عيون أصدقائك مهابة، وقلوبهم جلالة، فإن أكثرهم يلقى من عاديات الزمن ونكبات الدهر ما يحل من بأس الأقوياء، ويوهن من عزائم الأشداء، بل تكاد نفسه تسيل على نصال الألم فى صمت وسكون، وتعوزه كلمة منك ترفه عن نفسه، وتخفف من جواه. وتبعث فيه القوة والعزيمة، فانهضى إلى العمل، ولا تنتبذى منا مكاناً قصياً، واعلمى أن الشيطان لما أراد أن يغوى المسيح زين له العزلة وحبب إليه الخلاء.

صديقك الدائم

يوسف مزينى

استشراق لا فكاديوهيرن

من أسباب تعقد الأحوال العالمية فى العصور المتأخرة وتكاثر المشكلات التى استأثرت بالنصيب الأوفر من مجهودات سياسة الأمم وأقطاب الحكومات الاحتكاك الدائم بين الشعوب المختلفة والأجناس المتباينة والقوميات المتناحرة، وقد يسرت الحضارة الحديثة وسائل النقل، ومهدت أسباب التقرب بين الأمم المنتشرة فى نواحي الكرة الأرضية، ولكنها لم تستطع مع ذلك التغلب على العزلة الروحية، وتلطيف أثر الفوارق الجنسية، والخلافات القومية، ويبدو ذلك فى صورة بارزة عند احتكاك الشرقيين بالغربيين، وقد كان أكبر عائق فى طريق التفاهم المتبادل وتهوين أسباب الخلاف وتقريب وجهات النظر قوم من الأوروبيين وكدهم أن ينظروا إلى الشرقيين نظرة ازدراء وتنقص، وهمهم استغلالهم، والانحاء عليهم، وإذلالهم، والتنديد بعيوبهم، والتشهير بنقائصهم، وتعرف مقاتلهم، وكان يزين لهم جهلهم المطبق، وغرورهم الصفيق، أن الشرق عاطل من كل فضل، ومجرد من كل مزية، وأن أمره لا يستقيم وفساده لا يصلح إلا إذا احتذى الغرب فى كل جليل ودقيق، وأدار الطرف نحوه فى كل خطوة من خطواته، وتنازل عن شخصيته، ونفذ تقاليده.

ويمكن أن نعدد ثلاثة أنواع من أنواع التفوق كان يكثر من ترديدها الغربيون فى مجال المفاخرة والإدلال بمحاسنهم، ويعلنونها فى ثقة عمياء، وادعاء عريض، كأنها حقائق مقررة لا يأتيتها الباطل، ولا يتسلل إليها الشك، أولها إدعاء التفوق الشعبى، وذلك الاعتقاد الوهمى بمزايا الجنس الأبيض - وبخاصة الجنس الأبيض النوردي - وتفوقه على سائر الأجناس، وقد طهر فى أوروبا بعض المفكرين اشتطوا فى تلك النظرية وأسرفوا فيها إسرافاً ينم على التعصب للذميم، وضيق العطن، فضلاً عن المغالطة وسوء القصد، ومنها الاعتداد بالسيادة القائمة على تفوق الغربيين فى العلوم الطبيعية ومظاهر التقدم الذى أوجدته والاعتقاد بأن تخلف الشرقيين فى أمثال هذه المسائل المادية المحضة أوضح دليل على تحلل أخلاقهم، وانثالهم عزيمتهم، وهبوط مستواهم العقلى، وثالثها الاعتقاد بالتفوق الدينى واعتبار الشرقيين الذين لا يدينون بالدين المسيحى، قومًا وثنيين لا قيمة لعقائدهم، ولا غناء فى دينهم، وأن معتقداتهم أن دلت على شئ، فإنما تدل على ضعف الحاسة الأخلاقية وضيق الخيال، والتعلق بالأوهام والخيالات.

وقد أظهر الشرقيون من ناحيتهم أنهم مبالون إلى الاستفادة من حضارة الغرب الصناعية المادية، وأبوا أن يسلموا بتفوق الغرب الأخلاقي، وكان هذا من أسباب الكراهة المتبادلة، والنفور المشترك.

وقد كانت اليابان من أسبق الأمم الشرقية إلى اقتباس أساليب الغربيين والاعتراف من حضارتهم، ولكنها ظلت مع ذلك محافظة على شرقيتها مستمسكة بقاليدها، وللشرقيين كما للغربيين اعتداد بأنفسهم، واعتزاز بإمضيتهم، فبعض الهندوس مثلاً يعتقدون أن حضارتهم هي أرقى حضارة.

وقد نشأت إلى جانب الحضارة الأوروبية الحضارة الأمريكية، وهي ولو أنها مستمدة من الحضارة الغربية وقائمة على أساسها ولكنها مع ذلك لها مميزاتها وخصائصها، وهي تمثل في مجموعها نظرة نفعية للحياة وتؤمن بالقوة الآلية والقدرة الصناعية، وقد جعل ذلك بعض الأوروبيين الذين تبرموا بمادية حضارتهم يتجهون صوب الشرق، وقد رأى هؤلاء أن أوروبا قد بالفت في العناية بحقائق الطبيعة وأهملت حقائق الحياة الداخلية حتى تمكن منها مرض القوة وداء المادية.

والعلاقات بين الغرب والشرق في العصر الحديث أكثر تعقيداً وتشعباً مما كانت في عهد الدولة الرومانية، لأن الشرق الآن لا يشمل الشرق الأدنى وحده وإنما يشمل كذلك الشرق الأقصى، وقد أخذ الشرقان يرفعان رأسيهما ويظهران الأنفة، من الخضوع والاستسلام، وكان ذلك نتيجة محتومة لما عانياه من غنت الاستعمار وأخطاء سياسة بعض الأمم الغربية، وفي طليعة الأمم التي ثبتت للغربيين حب التغلب والرغبة في السيطرة ويسط النفوذ مزوداً بالأسلحة الحربية الحديثة والوسائل العلمية فلم يكن لليابان بد من اتخاذ هذه الأسلحة نفسها لتدفع عن حوزتها غائلة الفقر المادي والمطامع الأوروبية.

وقد عمل فريق من الغربيين نوى العقول الراجحة والقلوب الكبيرة والإنسانية السامية المتعالية فوق الفوارق الجنسية والمذهبية على تقريب وجهات النظر بين الشرق والغرب، وبذلوا جهوداً موفقة لفهم العقلية الشرقية عن طريق الدراسات اللغوية والتاريخية، وقد أثارت بحوثهم أفكار الغربيين وصححت الكثير من مقاييسهم وقد شوه من جمال هذه الحركة بعض التشويه أن فريقاً من الذين انتظموا في سلكها كان يكمن وراء محاولاتهم العلمية غايات سياسية خفية وتعصبات مذهبية دينية، شأن كل حركة كبيرة تختلط فيها النزاهة بالمصلحة، ولهذا الحركة فضل كبير في إحياء الحركات الفكرية في الشرق وتعويد الشرقيين أساليب البحث الحديث وطرائقه العلمية.

على أن هناك لوناً آخر من ألوان الاستشراق، وأقصد به مجهود هؤلاء الكتاب الأوروبيين

الذين أعجبوا بالشرق إعجاباً عظيماً، وأشادوا بمتآثره، وتفنوا بحاسنه، واستطاعوا بلطف حسهم وصدق طبعهم أن يشخصوا الكثير من خصائص الشرق، ويدركوا جانباً من حكمته ويلموا بنواح مختلفة من عقائده، وأساليب تفكيره، وقد فسر بعض هؤلاء الكتاب الروح الشرقية فى بادئ الأمر تفسيراً خيالياً ملوناً بألوان غريبة، وكان هذا التفسير الخيالى يعنى بالمظاهر، ولا يتجه إلى ما وراءها، فالشرق كان فى نظر بعض هؤلاء الكتاب مهبط السلام والسكينة، ومسرح الجمال والبهجة، ومستردام الحياة السهلة المترفة، والأحلام الذهبية، ولكن سرعان ما ظهر فى آثار هؤلاء الكتاب طبقة أخرى أصح تقديراً، وقد عرف كثير من أفراد هذه الطبقة الشرق معرفة دراية وخبرة ودراسة عميقة منظمة، وفى طليعة هؤلاء الكاتب الكبير لافكاديوهيرن.

ولد لافكاديوهيرن فى ليكايا بالجزر اليونانية فى ٢٧ يونيو عام ١٨٥٠، وكان والده طبيباً أرلندياً فى الجيش الإنجليزى، وكانت أمه يونانية، ومات أبواه فى صغره، فتبنته إحدى عماته وأنشأته نشأة دينية، ولكنه سرعان ما أدرك أنه لا يصلح ليكون من رجال الدين لميله إلى التفكير والشك ولما كان يقلب على طباعه من المرح وحب الحياة والحركة، وفى التاسعة عشرة من عمره رحل إلى أمريكا ليجرب حظّه ويكون مستقبلياً، وزاول الصحافة، مرة مصححاً فى إحدى الجرائد وأخرى مخبراً لجرائد شتى، ثم التحق بهيئة تحرير إحدى جرائد مدينة أورليان الجديدة، وبدأت تظهر مواهبه، وينضج فنه، وظل بها حتى عام ١٨٨٧، ثم رحل إلى جزائر الهند الغربية التابعة لفرنسا، ولم تطل بها إقامته، فقد ارتحل منها إلى اليابان فى عام ١٨٩٠، وهناك شعر بتقارب فى المزاج والنظر إلى الحياة دينة وبين اليابانيين، فتزوج من يابانية، ودخل فى الديانة البوذية، وتجنس بالجنسية اليابانية، وتسمى باسم «ياكوموكويزومي» وعين أستاذاً للأدب الإنجليزى فى جامعة طوكيو، وظل بها حتى أدركته الوفاة فى ٢٦ سبتمبر عام ١٩٠٤.

وإقامته الطويلة فى بلاد اليابان ومرونة عقله وشفوف أسلوبه وخياله الشعرى مكنته من أن يكون من أقدر مفسرى الروح اليابانية للغرب، وقد ألم بالحياة اليابانية من جميع نواحيها الاجتماعية والسياسية والدينية، وقد ترجم إلى الإنجليزية الكثير من الأمثال اليابانية والأساطير والأشعار، ووصف المناظر الطبيعية والحفلات الدينية والعادات المألوفة والتقاليد المتبعة وصفاً شائقاً، وكتبه العديدة عن اليابان مراجع ثمينة ووثائق قيمة لمن يريد أن يعرف اليابانيين معرفة عميقة ويلم بعقائدهم إلاماً واسعاً، ومن أمتع كتبه كتابه الذى سماه «كويدان Kwidan أو الأقاصيص العجيبة»، وهو مجموعة من الأساطير اليابانية أضفى عليها من فنه وبث فيها من روحه ما زادها تعبيراً ودلالة على النفسية اليابانية وطبيعة معتقدات اليابانيين، وقد اخترت من كتابه الأساطير الآتية وتحريت فى اختيارها الإيجاز.

١ - أقصوصة أوشيدورى

كان فى ناحية تامورانوجو من أعمال مقاطعة متسى صياد ومربى بزاة اسمه سنجو، ففى ذات يوم خرج يصطاد قلم يصبب شيئاً، وفى أثناء عودته إلى منزله رأى عند مكان اسمه أكانوما زوجامن البط ذكراً وأنثى - اسمه باليابانية أوشيدورى - سابحين معاً فى النهر الذى كان يهيم بإجازته، وكان قتل هذا النوع من البط مكروهاً، ولكن سنجو كان قد بلغ منه السغب مبلغاً كبيراً، فرمى زوجى البط فأصمى السهم نكر البط، وفرت الأنثى إلى الحلفاء النابتة فى الشاطئ الآخر، واختفت، وحمل سنجو الطائر القاتل إلى منزله وجهزه لطعامه، فرأى فى نفس الليلة حلاً مفزعاً، فقد خيل إليه أن امرأة حسناء جاءت إلى غرفته ووقفت إلى جانب وسادته وأخذت تبكى بكاءً مرّاً حتى شعر بأن قلبه يكاد يتقطع حشرات لبعائها، ثم صاحت به: «لماذا قتلت؟ أى ضرر أصابك به؟ لقد كنا سعيدين معاً فى أكانوما فجئت وأرديته! أى إساءة بدرت منه إليك؟ أتدرى ما فعلت وأى جرم وحشى نعيم ارتكبت؟ لقد قتلتنى معه لأننى لا أرغب فى الحياة بعده، ولقد أتيتك لأخبرك بذلك».

ثم عاودت البكاء والنحيب، وكان نشيجها يخترق عظامه، ثم قالت له بعد أن أنشدت شعراً فى رثاء عظامه، ثم قالت له بعد أن أنشدت شعراً فى رثاء زوجها: «أنت لا تدرى ماذا صنعت، ولكنك عندما تذهب فى الصباح إلى أكانوما سترى» وبعد أن قالت ذلك عادت أدراجها وهى باكياً. ولما استيقظ سنجو فى الصباح بقى هذا الحلم ظاهر المعالم فى ذاكرته، وأخذ يفكر فى كلماتها وقولها: «عندما تذهب فى الصباح إلى أكانوما سترى» وصمم على أن يقصد إلى هناك توأً ليدرك حقيقة ما رآه فى الحلم، ويعرف أكان ذلك حلاً أم أكثر من حلم، ولما اقترب من شاطئ النهر أبصر أنثى البط سابحة فى الماء متجهة نحوه وهى تحلق إليه تحديقاً غريباً، ثم شقت صدرها بمنقارها وماتت إزاء عينيه. بعد ذلك حلق سنجو شعر رأسه وصار كاهناً.

٢ - أقصوصة جى روكى زاكورا

فى ناحية واكيجورى من مقاطعة آيو شجرة كرىز عتيقة مشهورة اسمها جى روكى زاكورا أو شجرة كرىز اليوم السادس عشر، لأنها كانت تزهر وتتفتح فى اليوم السادس عشر من الشهر الأول فى كل عام، وكانت لا تزهر إلا فى ذلك اليوم على خلاف عادة سائر أشجار الكرىز التى لا تزهر ولا تتضرر إلا فى الربيع، وكانت جى روكى زاكورا تستمد الازدهار والنضارة من حياة ليست فى الأصل حياتها إذ كانت تقيم فى تلك الشجرة روح إنسان.

كان هذا الرجل من طبقة المحاربين وكان اسمه ايو، وقد نمت الشجرة فى حديقة منزله ، وكانت تورق وتزهى كل عام فى الوقت العادى أى فى أوائل الربيع، وقد لعب تحت ظلها وهو طفل، وقد علق أبائؤه وأجداده بفروعها الغنيانة شرائط بيضاً من الورق الملون مكتوبة بها أشعار مدح فصلاً بعد فصل وجيلاً فى إثر جيل، وهو نفسه قد أوغل فى الشيخوخة وعاش بعد أولاده، ولم يبق له فى الدنيا شىء يعزه ويؤثره بحبه سوى تلك الشجرة وحل الصيف فى عام من الأعوام فذبلت الشجرة وماتت، فاشتد عليها حزنه، وطال جزعه وتقجعه، فبحث جيرانه المشفقون عليه عن شجرة كرز أخرى صغيرة وجميلة وجاءوا بها وغرسوها فى حديقته ظانين أنه سيتسلى بذلك وينسى مصابه ويسلو الشجرة القديمة فشكرهم وتظاهر بالسرور، ولكنه كان يخفى فى قلبه ألماً دامياً، فقد كامن حبه للشجرة الميتة حباً لا ينسى ولا تعفى عليه الأيام.

وأخيراً خطرت له خاطرة سعيدة، وتذكر طريقة نعيد إلى الشجرة الذابلة حياتها «وكان ذلك فى اليوم السادس عشر من الشهر الأول» فذهب منفرداً إلى حديقته وجثا أمام الشجرة الذاوية، وأخذ يناجيها قائلاً: «أتوسل إليك أيتها الشجرة أن تقبلى دعائى وتعودى إلى الحياة والنضارة لأنى ساقديك بروحى» (وكان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يهب حياته إلى أى شخص آخر أو أى مخلوق كائنًا ما كان ولو كان شجرة وذلك بإرادة الآلهة) ثم نشر تحت الشجرة قطعة من القماش الأبيض عليها مطارف عدة وجلس فوقها وانتحر على طريقة المحاربين عند اليابانيين «هاراكيرى» فحلت روحه فى الشجرة وجعلتها تزهر فى التواللحة ولا تزال تزهر فى كل عام فى اليوم السادس عشر من الشهر الأول فى فصل الشتاء.

٣- أقصوصة اوتىي

من أزمان طويلة خلت كان يعيش فى مدينة نيجاتا بمقاطعة اشيزين رجل اسمه ناجاوشوزى، وكان والده جراحاً، وقد تعلم مهنة أبيه وخطبت له وهو فى نعومة أظفاره ابنه أحد أصدقاء أبيه واسمها اوتىي، واتفقت الأسرتان على أن يكون الزفاف بعد أن يتم ناجاو دراسته، ولكن صحة اوتىي أخذت فى الضعف وفى الخامسة عشرة من عمرها أصابها سل مميت، ولما شعرت بدنو الأجل أرسلت إلى ناجاو لتودعه الوداع الأخير.

ولما ركب أمام فراشها قالت له: «يا خطيبى ناجاو ساما لقد كنت خطيبتك منذ طفولتك، وكنت سأنكو زوجتك فى ختام هذا العام، ولكنى ساقضى الآن نحبى والآلهة أرى منا بما ينفعنا، ولو أننى استطعت أن أعيش أعواماً لكنت مبعث آلام وأحزان لغيرى إذ لا أستطيع بهذا الجسم الواهن الضعيف أن أكون ربة منزل، وحتى لو أردت أن أحيى من أجلك لكان ذلك

منى محض أنانية، فلما مستسلمة للموت راضية بحكم القضاء، وأريد أن تعدنى بأن لا تحزن من أجلي وأن أفضى إليك بأن أكبر ظنى هو أننا سنلتقى ثانية». فقال لها ناجاو بإهتمام: «حقيقة سنلتقى ثانية هناك فى تلك الأرض الطاهرة النقية حيث لا يروعا الفراق».

فأجابته فى رقة: «لا ، أنا لا أعنى تلك الأرض الطاهرة النقية، أنا أعتقد أننا مقدر لنا اللقاء ثانية فى هذه الدنيا ولو أننى سادفن غداً».

فنظر إليها ناجاو نظرة تعجب وذهول، ورأها تبتسم لتعجبه، واسترسلت تقول فى لهجتها الرقيقة الحاملة: «نعم أنا أعنى هذه الدنيا- فى حياتك الحالية يا ناجاو ساما على شريطة أن تريد ذلك، ومن أجل أن يتم ذلك يجب أن أولد طفلة من جديد، وأتدرج فى النمو حتى أصبح امرأة، ولذا عليك أن تنتظر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً، وأنه لوقت طويل أيها الزوج الموعود، ولكن سنك لا تتجاوز تسعة عشر عاماً».

فقال لها فى لين ورفق وهو يحاول أن يهون عليها ساعتها الأخيرة: «إن الانتظار من أجلك يا خطيبتى واجب أستعذب القيام به وأجد فيه سروراً أيما سرور وسنبقى مرتبطين بعضنا ببعض حتى وجودنا للمرة السابعة».

فأجابته وهى تراقب وجهه: «ولكنك تشك فى الأمر».

فأجابها: «إنى أشك يا عزيزتى لأنى أخشى أن أعجز عن معرفتك وأنت فى جسم آخر وباسم غير اسمك، خبرينى عن علامة أو إشارة أعرفك بها».

فقالت له: «لست أملك ذلك ولا يدرى إلا الآلهة واليوذات أين نلتقى ولكنى واثقة كل الثقة بأننى سأعود إليك إذا كنت لا تزال راعياً فى لقائى، فتذكر هذه الكلمات جيداً».

ثم سكتت عن الكلام وأطبقت جفניה.

وكان ناجاو يحب أوتى حياً خالصاً فحزن عليها حزناً عميقاً، وصنع لوحة صغيرة ونقش عليها اسمها وحفظها فى داره، وكان يقدم لها القرايين كل يوم، وأطال التفكير فى الحديث الغريب الذى حدثته به قبيل مماتها ولكى يسر روحها الراحلة كتب وعداً خطيراً بأنه سيتزوجها إذا عادت إليه فى جسد آخر، وختم هذا الوعد المكتوب بختمه ووضعته إلى جانب اللوحة.

وكان ناجاو الابن الوحيد لأبيه، ولذا كان من اللازم أن يتزوج، ووجد نفسه مكرماً على طاعة أمر سرتة، ومرغماً على قبول الزوجة التى اختارها له أبوه، وبعد زواجه منها بقى على عادته فى تقديم القرايين إزاء اللوحة، ولم ين عن ذكر أوتى ولم يفتر حبه لها، ولكن على توالى الأيام أخذ حبه لها يضمحل فى ذاكرته حتى صار يشبه حلماً من الصعب استحضاره واستعادة معالمة، ومرت على ذلك السنون.

وفى غضون تلك الأعوام أصابته أرزاء وخطوب، ففقد والديه، ثم فقد زوجته وفجع فى ابنه الوحيد، وألقى نفسه فى الحياة وحيداً فهجر داره الخالية ليقوم بسياحة طويلة ينسى بها آلامه ويطفى وقدة أحزانه.

فى يوم من الأيام وقد أفضت به الأسفار إلى مدينة أكاو المشهورة بينابيعها الحارة وجمال مناظرها دخل فى خان للمبيت فجاءت إليه فتاة صغيرة لتقوم بخدمته فشعر عندما وقعت عينه عليها بأن قلبه ينبض نبضاً ويثب وثباً لم يعهده من قبل، فقد كانت الفتاة تشبه أوتىي شبةً غريباً إلى حد أنه شك فى وجوده، واتهم حواسه، وخال نفسه فى حلم، ولما تولت عنه لإعداد الطعام والوقود وتنظيم الغرفة كانت كل حركاتها تعيد فى نفسه ذكرى عذبة شهية، ذكرى تلك الفتاة المحبوبة التى عقد له عليها فى صباه، فطارحها الحديث فأنجابه بصوت واضح رقيق أحزنته رفته وذكرته حزن الأيام السالفة.

فقال لها فى تعجب ودهشة: «أيتها الأخت إنك تشبهين فتاة عرفتتها فى الأيام السالفة»، وقد دهشت عند دخولك الغرفة فى أول مرة فسامحى فضولى إذا سألتك عن موطنك وعن اسمك». فأنجابه فى الحال بصوت خطيبته الميتة غير المنسى: «اسمى أوتىي وأنت ناجاوساما زوجى الموعود، وقد مت منذ سبعة عشر عاماً، وكتبت أنت وعداً بأنك تتزوجنى إذا أنا عدت إلى الحياة فى هذه الدنيا بجسم آخر، وختمته بختمك ووضعت فى بيتك إلى جانب اللوحة المنقوش عليها اسمى، ومن أجل ذلك عدت إليك ثانية». ولما فاهت بهذه الكلمات سقطت مغشياً عليها.

تزوجها ناجاو وكان زواجهما سعيداً ولكنها لم تتذكر بعد ذلك ماذا قالت له رداً على سؤاله الذى وجهه إليها فى أكاو، ولم تتذكر شيئاً عن حياتها السالفة، ونسيت مولدها السابق الذى أشعلت ذكراه الخابية ساعة اللقاء القريبة، وأخذت هذه الذكرى فى الغموض والخفاء وبقيت كذلك غامضة مبهمة.

ولزومصيرالعالم

المستر ولز كاتب ضليع وروائي معتمز وأمام كبير من أئمة الاستنارة فى العصر الحاضر، وما دمت فى صحبته فإنك فى جوار رجل خالص النية، راجع العقل منسرح الخيال، يحاول جهده أن يصورك تيارات العصر الحديث المختلفة ويضع يدك على صميم مشكلاته، وهو أخو فكرة وصاحب عقيدة، وهو يؤمن بالعلم إيماناً شديداً، ويعتقد بمذهب النشوء والارتقاء اعتقاداً لا كفاء له، وعنده أن الإنسان مثل سائر المخلوقات، تسرى عليه قوانين علم الحياة، وتتناوله سنة بقاء الأفضل والأصلح للحياة، وإنسان العصر الحاضر - كما يروى المستر ولز فى كتابه^(١) عن مصير الجنس البشرى - إنسان مدخول العقل، سقيم الفهم، قد رين على قلبه وطمست بصيرته، يكاد يئس المستر ولز على عميق تفاؤله، وضخامة أمه، وقوة إيمانه، وليس سبب ذلك أن تدهوراً فجائياً قد اعتور العقل الإنسانى، وإنما سببه أن المشكلات قد تكاثرت عليه، وأحاطت به العضلات من كل ناحية، حتى كل عن علاجها، وناء تحت وقرها، وضل فى تيهها.

ومما يستوجب الأسف أن عقل الإنسان إزاء هذه الصعاب الملمة، والطوارئ الحازية، ينقصه المران والصقل والتربية والتعليم، وفى اعتقاد المستر ولز أن هذا العجز الواضح والقصور المعيب يمكن علاجهما بالتربية الملائمة والتعليم الصالح، ولكنه يشك فى تحقيق ذلك، وهو يؤكد لنا أن هذا العلاج يستلزم حشد القوى الإنسانية جميعها، وتعبئة الكفايات كلها، وأنه جدير بأن تصرف فى سبيله همة كالهمة المبذولة فى تقوية روح الحرب وإيقاظ عوامل الشر، وهو يرى أن الإنسانية إذا أخفقت فى هذا العلاج الوحيد الناجع فإنها هالكة لا محالة. ولو بذل المجهود اللازم، واقترن بالتوجيه الحازم، والقيادة البصيرة، فستفسر حالة القوضى السائدة والاضطراب المستحكم عن الوحدة العالمية، وهى أمل المستر ولز المنشود، وهو لا يقتنع ولا يرضى بأقل من نظام عالمى جامع شامل.

ويرى المستر ولز أن مصير الإنسانية لم يكن فيما تقدم مما يعنى به الناس، فقد تعود الإنسان أن يعيش فى حاضره، وبخاصة فى عصرنا الحديث، ويحاول ولز أن يوجه النظر إلى

(١) ظهر هذا الكتاب فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ واسمه بالإنجليزية The Fate of Homo Sapiens وقد كتب هذا الفصل عن ولز بعد ظهور هذا الكتاب.

التفكير فى المستقبل، وإلى أن يعمل الإنسان على تغيير أسلوب حياته وطريقة تفكيره، تحقيقاً لمصلحة النوع الإنسانى الحيوية، وهو يحاول جهده أن يهيب بالإنسانية من الخمول الذى غطى على بصرها، وينبهاها من غفوتها، ويربها طريق الخلاص وقوارب النجاة قبل أن تقع الواقعة ويأتى الطوفان.

والمستر واز لا يخفى علينا طريقة تفكيره، ولا يحاول أن يدعى لنفسه براعة ليست فى طوقه، ولا أن ينقلها رقة ليست فى مزاجه، فهو يقول عن نفسه فى صراحة مستحبة: «إن عقله عقل مستقيم شديد الإستقامة لا يحسن اللف ولا الدوران، ولا يجيد الانسلال بين الظلال الخفية والأضواء الواهية، وأنه يطرق أفكاره طرقاً ربما أساء إلى ذوى الأمزجة الرقيقة، وأنه يدعو الأشياء بأسمائها ويسمى الباب غير المفتوح باباً مغلقة».

والفكرة التى يصر عليها، ولا يفتأ يريدها فى هذا الكتاب عن مصير الإنسانية هى فكرة الحاجة الماسة السريعة إلى إعادة تنظيم التربية على أسس تؤدى إلى أن ننظر إلى الحياة «الكون نظرة علمية خالصة، ويتضمن ذلك إيجاد عقلية عالمية، وعمل موسوعة جديدة تكون بمثابة عقل مفكر للعالم، والإنسان تواجهه الآن مشكلتان وهما: «إعادة إصلاح التربية» أو «الهلاك» ومن دواعي الأسف أن الاحتمال الثانى أقرب إلى الواقع، ولو تحقق إصلاح التربية لخرج من الفوضى الحالية مجتمع واضح التفكير بين الأغراض، قادر على الخلق، مقدر لما فى الحياة من جمال ومتع ومسرات ولقد أصبحت الإنسانية جسداً واحداً، ولكنها لم توفق بعد فى تكوين عقل متحد يهيمن عليها ويهدهيها سواء السبيل، وولز يحاول استدراك هذا النقص، والعمل على إيجاد عقل عالمى، وهو مشروع كبير، ولكنه ليس بالعزيز على مقدرة الإنسان إذا أتاحت له الظروف الموفقة لتلقى التعليم الصحيح والتربية الحقّة.

ويتابع واز فكرته فى هذا الكتاب متابعة رجل يرى نفسه فى عالم مشرف على النهاية إذا لم يعتصم بالروح العلمية، عالم متدهور وضيع كما يؤكد لنا مستر واز، وإن كان من حقنا أن نشك فى صحة هذا التاكيد، فما دام فى العالم بقية من أمثاله فإن فيه صبابة من الخير وإثارة من النبيل.

وفى الكتاب عرض بارع للنظم والثقافات والعقائد الراهنة فى الشرق والغرب، وكلها فى رأى واز مستهين بقوانين علم الحياة، منحدر بالإنسانية إلى الهاوية السحيقة.

ويرى واز أن الكون قد بدأ يتنكر للإنسان ويسخطه ويجتوى أساليبه، وأن عقل الإنسان قد أخذ يعزوه الوهن وتتراكم عليه أسداف الظلام، وأن الأمل الواهن الباقى هو محاولة تنظيم الحياة العقلية، وكتابه عن مصير الإنسانية محاولة لاستدراك الأمر قبل فوات الفرصة ووقوع الكارثة.

والعقل الجديد الذى يرمى ولز إلى ايجاده هو النظرة العلمية للحياة والوجود، وهو ينبذ كل نظرة للحياة والكون قائمة على الدين أو نظريات ما وراء الطبيعة، ويود أن تسود الروح العلمية التى لا تصدر حكماً إلا بعد الاتاة والتثبت والتخلص من الأهواء، ولا تحاول أن تثير أسئلة يعجزها الجواب عنها، أو تؤكد لنا أشياء لا يمكن القطع بصحتها، وتصر على أن كل ضروب المعرفة والمعتقدات مهما سمت وعزت علينا يجب أن تطرح على بساط البحث، وتعرض على محك النقد، وهذه الروح العلمية تمكن الإنسانية من أن يكون مصيرها بيدها، وهى تقدم لنا صورة جديدة لطبيعتنا وأصلنا ومكاننا فى الكون والحدود المضروبة على المعرفة الإنسانية، والإنسان فى رأيها ثمرة الانتخاب الطبيعى مثل سائر الخليفة.

والتربية هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه النظرة العلمية، ولكن الصعوبة التى تعترض آراء ولز هى نفسها الصعوبة التى طالما حار فى التغلب عليها أنبياء الأفكار الجديدة، وطالبوا تغيير العقل أو القلب أو الروح، وذلك أن الإنسان يعتمد على عقليته القديمة فى تحصيل وسائل العقلية الجديدة، وهذه العقلية القديمة بدلاً من أن تساعد على إيجاد العقلية الجديدة تقيم فى طريقها الحوائل، وقد يكون من الميسور اقناع النوع الإنسانى بأن الأحجام عن تغيير عقليته القديمة قد ينجم عنه الهلاك المحقق، ولكن القيام بعمل التغيير نفسه هو ما يقاومه العقل القديم وما لا يريده وما لا يستطيعه، وطالما أثبت الإنسان نقص عقله وسوء إدراكه وتعاميه عن الحقائق الواضحة عندما طلبت إليه الظروف أن يستبدل بعقله القديم عقلاً جديداً. والمستر ولز فى كتبه السابقة أكثر إيماناً بالطبيعة الإنسانية، فهو يقول فى روايته «تونيانجى»: «ليس القلب الإنسانى شريراً إلى حد يبعث على اليأس، بل هو على نقيض ذلك قابل للإصلاح والتهذيب، ويمكن أصلحه بخلق البيئة المناسبة والمران اللائق والتربية قبل كل شئ، ويمكن صوغه إلى حد إيجاد دنيا حافلة بالمحتملات والجمال الذى لا يمكن تصوره والذى يستطيع حتى الرجل الذى لم يصقل إحساسه أن يلمح سناه ويحس روعته».

فالحياة يمكن أن تكون أسعد وأرقى وأجمل وأروع فلماذا هى مريرة نكدا؟ سبب ذلك كما لا يفتأ يكرر لنا ولز هو «سوء التربية» ولأننا لم نزود للحياة السليمة.

ولكن لماذا كل هذا الإيمان الفائق الحد بالتربية؟ وهل للتربية قدرة سحرية على خلق الناس خلقاً آخر؟ الواقع أن ولز يحس إحساساً قوياً بغرابة الدنيا وروعة الحياة، ويرى أنه ليس فى ميسور إنسان أن يتملى جمالها ويستغرق فى روائعها إلا إذا تنقذ عقله واستنارت بصيرته، ولذا المخاطر فى عالم الفكر هى أعظم ما فى الوجود، وأمتع وأطيب ما تقدمه لنا الحياة، فالبحث وكشف الأسرار الكونية وتسجيل النتائج هى فى نفسها غايات، والتربية الحققة هى التى تنير لنا الكون، وتعالج سخافة النظم السياسية والاقتصادية والمصالح القائمة عليها والمرتبطة بها.

ويرى ولز أن سبب بقاء الإنسانية هو أن الإنسان إلى عهد معين في تاريخه قد استطاع إنماء عقله وتكييف نفسه وفق مقتضيات الظروف تكييفاً يكفل له البقاء، ولكن في العصر الحاضر بفضل العلم والاختراع ترامت حدود عالم الإنسانية وتشتعت وجوه الحياة دون أن يحدث مثيل لذلك في نمو العقل واتساع الإدراك لتيسير السيطرة على هذه الأحوال الجديدة الشديدة التعقيد، وقد سارت قوة التكيف ببطء شديد وعجزت عن مسايرة خطوات التغير في العالم الحديث، ولذا أصبح موقف الإنسان غريباً متناقضاً، وليس عند الطبيعة لمن يخالف أحكامها ويشذ عن سننها سوى عقاب واحد هو الموت.

ويسترعى نظر ولز نظر المؤرخين وعلماء الاجتماع إلى عامل من العوامل المهمة في الشؤون الاجتماعية لم يأخذ قسطه من عناية الباحثين والمفكرين، وهذا العامل هو عنصر الشباب، وهو يرى أن في شباب كل أمة مقداراً زائداً عن الحاجة من الطاقة والنشاط الوثاب والحيوية المتدفقة، وأن الحياة العصرية لم تنظم بعد تنظيماً صالحاً بحيث تستطيع أن توجد منسباً لهذه الحيوية المحبوسة والنشاط المكبوت، فهو يظل يظلي ويفور حتى يجد متنفساً في الحرب، ومثل هذا النشاط الفائض المهمل الذي يعمل للخراب والهدم والتدمير كان يمكن أن يتحول إلى قوة نافعة تحول دون وقوع كارثة حيوية، ولو كان العالم قد نظم تنظيماً عقلياً ملائماً للموقف الحاضر لما وجد هذا العدد العديد من الشباب العاطل ليكون مشكلة اجتماعية عسيرة الحل في الدول الديمقراطية، أو ليكون المورد الرئيسي للجيش الجرارة التي تهدد كيان الحضارة في الدول الديكتاتورية، وهذه الجموع الكبيرة من شبان قد استحوذ عليهم الملل وأحالت نفوسهم البطالة وهيأتهم لتلقى المبادئ المنحرفة ومهدت لهم سبيل الأجرام، دليل واضح على وجود ذلك النشاط الزائد عن الحد الموضوع تحت تصرف الإنسانية، والذي لم تستطع أساليبها المعوجة ونظمها العقيمة أن تستثمره وتحسن توجيهه.

ولا يعفى ولز العلماء أنفسهم من اللوم والتقريع، فهو يعترف لهم بالبراعة والمعرفة، ولكنهم بدلاً من أن يعلموا على استنقاذ العالم من الورطة التي ارتطم فيها ينفضون أيديهم وينسحبون إلى مكبتهم أو معلمهم أو إلى الرواق بينما روما تحترق، وينتقل من جراء ذلك تدبير الأحوال الإنسانية إلى أيدي هؤلاء الذين لا يحسنون الفهم ولا يجيدون السيطرة، فنرى من ناحية طائفة العلماء المتخصصين ولا حول لهم ولا قوة، ومن ناحية أخرى نرى السياسيين وفي أيديهم مقاليد القوة، ولكنهم تنقصهم المعرفة التي تمكنهم من الانتفاع بالقوة الميسرة لهم. وعقل المستر ولز من المعقول الموكلة بالمستقبل المشغوفة باستطلاعها، وعهدى به كبير الأمل في مستقبل الإنسانية، ولكنه في هذا الكتاب - كما قدمت - يبدو كثير القلق والتوجس سيئ الظنون، فهل لعلو السن وامتداد العمر أثر في ذلك؟ أو أن الأحوال العالمية قد ساءت إلى الحد

الذى جعل المستر ولز المتقاتل الكبير يذهل عن تفاؤله وينسى أحلامه الحسان وأمانيه العذاب؟
الواضح من هذا الكتاب أن المستر ولز لا يزال عنده بقية من الإيمان بالتربية، وكل مرب
بطبيعة الحال متفائل، لأن اليأس من الحياة يستتبع اليأس من أساليب إصلاحها، والأمل فيها
يستلزم الإيمان بطرائق تحسينها والسمو بها، ولعل المستر ولز قد أخذ بالحكمة القائلة: إنك
إذا أردت أن تكذب نبوءتك فاعلنها بين الناس، وإذا أردت أن تصدق فأسررها فى نفسك، وقد
أذاع المستر ولز نبوءته بصوته الممتلئ وبيانه العالى.

بين كارلايل الشاب وجيتى الشيخ

الشباب هو ربيع الحياة وعصرها الذهبى، تتراعى لنا الدنيا خلاله مسفرة زاهية كالحلم اللامع الوضى، يزدهينا رونقه، ويملاً نفوسنا بهجة وأملًا، وفى الشباب ظل من الأبدية، ونفحة من الخلود، تقوى فينا الثقة بالنفس وتهون علينا احتمال ما يعترض طريقنا من العقاب، وتدفعنا إلى ركوب الأخطار واقتحام المجهول، وفى الشباب لا يحد الطموح ولا تنتهى الرغبات، ويمتد أمامنا المستقبل منبسط الأفياء، حافلاً بالاحتفالات، ويخيل إلينا أننا نستطيع مسابقة الأيام ومسايرة حركة التقدم، وهذه الغرارة البريئة تقربنا من الطبيعة وتذهلنا عن آلام الحياة وغير الدهر، فلا نفكر فى الفناء وسطوته، ولا فى الموت ورحاه الدائرة، ولكن أن كان الشباب هو عصر الآمال الزاهرة، والأحلام الحسان، والطموح الوثاب، فهو كذلك عصر يقظة المدارك، وتفتح الملكات، وفيه يبدأ الإنسان يفكر تفكيراً جدياً فى علاقته بالكون، ويحاول أن يتعرف أسرار الحياة المغمزة، وغوامضها المستبهمة، ومصيره وغايته، وقد يفدحه العجز عن أدراك خفايا الكون وحل مشكلاته، ويضل فى تيه التفكير، وتشبه عليه الطرق، وتتكرر له المعالم، ويخيم على نفسه الشك، فتتسلب الدنيا فى نظره من جمالها، وتأفل طولاعها، وتخور هزيمته، ويحتارز اليأس المضيض، وفى هذه الأزمة العسراء قد يفيد الشباب من حكمة الشيوخ وتجاربهم، ويرى فيها ما يرد عليه عازب ثقته بنفسه، ويعيده إلى الحياة والجهاد وقد تجلى هذا الموقف فى صورة جديرة بالتأمل، خليفة بالدرس، واستخلاص العبرة، فى علاقة الكاتب الكبير توماس كارلايل فى مقببل شبابه بجيتى كبير شعراء اللان فى شيخوخته، فقد كان كارلايل كسائر الشبان يبعثه توفز الشعور، ويقظة النفس، إلى محاولة رفع النقاب عن الحقيقة الخالدة، وحل لغزها الأبدى، ليضع لحياته أساساً مستقرّاً، ويحدد لنفسه غاية يتجه إليها، ويقصد لها، وكان يجهل استعداداته ولا يدري غايته، لأنه لم يكن قد اختبر بعد قدرته، وهنت عقيدته، وفقد اليقين، وأخذ يسائل نفسه: من هو؟ ومن أين أتى؟ وهل يذمن التفكير فى ذلك ثم يقبل على العمل أو يعمل فى بادئ الأمر ويستمد من العمل فلسفة حياة؟ هذه المسائل كانت تشغل باله، وتتفى عنه الراحة والطمأنينة، كما تشغل بال كل مفكر شاب دائم التفكير فى نفسه، والتأمل فيما حوله، وهى من الأهمية عند أمثال هؤلاء الشبان بحيث يرون ضرورة علاجها على وجه من الوجوه قبل التوفر على أى عمل.

وقد شك كارلايل فى نفسه وقدرته، وأخذ شكه يقوى وتتوشج أغراسه، وتمتد فروعه حتى شمل كل شىء، وتراعت له الدنيا ميتة شوهاء، وراع إلى فكرة الخلاص من الحياة، وأخذ يفكر فيها تفكيراً جدياً، وقد أدركته وهو يتخبط فى هذه الحيرة العمياء حكمة جيتى، فنقلته من أغوارها المظلمة، ودياجيرها المتراكبة، إلى أفاق مشمسة ضاحية، وكان جيتى قد عالج هذه الحالة ووصفها وصفاً دقيقاً فى أحزان ورتز وعرف منشأها وأعراضها ودواها، وسببها النزوع إلى غير المحدود الكامن فى نفس الإنسان، وصراعه مع المحدود الذى يحدق بنا، ويعترض سبيلنا، وليس غريباً أن يغلبنا الملل، ويهزمننا اليأس، عندما نرى أن آمالنا المعلقة لا سبيل إلى تحقيقها فى نطاق الواقع الضيق ومجاله المحدود، ولكن لا خلاص من الشك إلا بالعمل، وهذا هو الدرس الخالد الذى تعلمه حكيم شلسى من حكيم ويمار.

وإعجاب كارلايل بجيتى من طرائف الأدب، وناصع صفحاته، وشائق قصصه، فقد كانت ظروف حياتيهما مختلفة كل الاختلاف، وكان بينهما الكثير من تباين الشخصية، وتغاير المزاج، فقد كان جيتى قبل كل شىء رجلاً بلاط، وسيداً بارزاً فى المجتمع، وكان كارلايل شاباً رقيقاً فقير الأبوين، شاذاً عزوفاً عن الناس، يأس بالوحدة، ويستريح إلى الخلوات، وكان نجيتى فى أوج الشهرة، وقمة المجد، وهداة الشيخوخة وكان كارلايل فى ريعان الشباب، وفورة ثورته، خامل الذكر، مجهول القدر، وكان جيتى شاعراً خالقاً، وكاريل ناثراً لا يجيد التغنى بالشعر، ولا يحسن خلق الشخصيات الروائية، وتقلب عليه النزعة الانتقادية، والنظرة التاريخية، وكان جيتى وثنى النزعة الانتقادية، والنظرة التاريخية، وكان جيتى وثنى النزعة، مدرسى الثقافة، على حين كانت الوراثة الدينية البيوريتانية شديدة التفلغل فى نفس كارلايل قوية الأثر، وكان جيتى بطبيعته أولبياً يقيم فى الأعالى، ويسكن الفراديس، أما كارلايل فكان بمزاجه الحزين ونفسه القلقة من أهل الجحيم المتسعة، والهوايا الفائرة، ولست أحسب تفسيرنا لتلك العلاقة بميل النقيض إلى نقيضه كافياً، فإنما سر هذا الإعجاب العميق، والتقدير الرفيع، هو عناية كليهما بأعظم الفنون المعروفة وأجلها خطراً وهو فن الحياة، والدرس الذى تلقاه كارلايل عن جيتى هو خلاصة الآراء الأخلاقية التى انتهت إليها جيتى فى شيخوخته، وتعلق بها كارلايل فى بواير حياته الأدبية، وظل مخلصاً لها طوال حياته، مقدرها من أجلها حسن صنيع جيتى، مثباً عليه فى كتبه وفصوله ورسائله وأحاديثه، ولقد وصف جيتى تلميذه الشاب بأنه «قوة أخلاقية ذات شأن» وقد صدق حدسه فقد أثر كارلايل فى الأدب الإنجليزى تأثيراً بعيداً، وأطلع الإنجليز من كتابات جيتى وشرلورختر ونوفاليس على أفاق واسعة، وعوالم جديدة، وكان قوة عظيمة فى إيقاظ الشعور الدينى، والإحساس الأخلاقى، لا من ناحية التقاليد، وحرفية العقيدة، وإنما من ناحية تأمل النفس، والنظر إلى الحياة، والتمرس بتجاربها.

وقد تعلم كارلايل فى شبابه اللغة اللاتينية والفرنسية وتوسع فى الإطلاع عليهما، وفى عام ١٨١٩ وهو فى الثالثة والعشرين من عمره أخذ يدرس الإيطالية والألمانية، وكانت رغبته فى دراسة الألمانية لها بواعت كثيرة، فقد سمع باسم جيتى فى طفوته، وظل هذا الاسم يدوى فى نفسه دويًا غامضًا، وزاد فى توجيه التفاته إليه وعنايته به اطلاعه على كتاب مدام دى ستايل عن ألمانيا، وقد حمضه صديق من أصدقائه الواقفين على حالته النفسية على دراسة الفكر الألمانى لأنه سيجد فيه طلبته، وتقدم فى دراسة الألمانية تقدمًا كبيراً حتى استطاع فى عام ١٨٢٠ أن يعلن أنه قد كشفت له سماء لم يرها من قبل، واهتدى إلى أرض ليس له بها سابق عهد، وقد عام ١٨٢٣ عرف بعد مدى عبقريّة جيتى، وفرط اعتلائها، وشرع يترجم روايته العظيمة «ولهم مايستر».

وقد استمر إعجابه بجيتى ملازمًا له طوال حياته وأن كان قد انتابه فى خلال تطوره نوبات من الضعف، وظلال خفية من الشك، ففى أثناء ترجمته لرواية ولهم مايستر كان يقول أنه كان يود لو أن جيتى كتبها بطريقة أخرى، وقال أنه فى بعض الأحيان يجثو على قدميه ويعبد جيتى، وفى أوقات أخرى يود أن يطرده من حجرته، ووصف مرة نفس رواية ولهم مايستر بأنها «أكوام مركومة من التراب والقش والريش ولكن هنا وهناك درة يتيمة» وكان يقول عن جيتى: «إنه عقل كبير راجح ولكنه كثير العيوب والمتناقضات» وفى عام ١٨٢٨ أثناء تبادل الرسائل بينهما طلب إلى أخيه «جون» أن يمر فى طريقه بومار ويرى أى نوع من الرجال جيتى لأنه من أمره فى لبس، وفى عام ١٨٣٦ لما قرأ محادثاته مع اكرمان خاب ظنه وقال عنه: «إن كثيرا من معايير الأشياء والأشخاص خاطئة» وفى العام التالى كتب يقول: «لقد فرق الدهر بيتنا ولكن ذكراه ستظل فى نفسى ناضرة فينانة لأنه أنقذنى من الهلاك المحتوم» أذكر ذلك لأبين أن إعجاب كارلايل بجيتى لم يكن إعجاباً مطلقاً، ولا حباً أعمى، وإنما كان اعجاباً مشوباً بعرفان الجميل، الحرص على رعاية العهد، لأنه أدى إليه خدمة كبيرة، وخيراً عميماً، يضاف إلى ذلك بطبيعة الحال اعترافه بعبقرية جيتى، واكباره للمكاته الأدبية، وقدرته الفنية، وقد عبر كارلايل عن تقديره لهذا الجميل فى مناسبات شتى، ففى عام ١٨٢٧ كتب إليه ضمن رسالة «إن إنقاذى من الهاوية، وهدايتى فى الظلمة الحالكة، ومعرفتى لنفسى، وتبصرى بواجباتى، ووقوفى على غايتى، كل ذلك إنما استمدتته من كتبك، ولك - أكثر مما لاي إنسان آخر - أتوجه على الدوام بشكرى وإجلالى، وشعور التلميذ نحو أستاذه بل شعور الابن نحو أبيه الروحي» وفى سنة ١٨٢٢ كتب إلى أخيه جون يقول: «إنى لا أفتأ أشكر الله الذى قبض لى رجلاً من طراز رختر وشر وجيتى وبخاصة الأخير لأنه كان إنجيلى الهادى» وفى سنة ١٨٦٦ كتب فى ذكرياته: «أما ما غمر نفسى من السرور وعرفان

الجميل فلاترك لكل روح تقية صالحة تقديره، فقد أصبحت وأنا الفقير المجهول الذى لا ييسم له أمل، ولا ترفه عنه تعلقة مستقلاً عن الدنيا غنيًا عنها، وقد شعرت حينذاك - وما أزال أشعر - بأنى مدين لجيتى فى هذا الصدد، فقد تسلق قبلى الطريق الوعر، وقد صرح لغير واحد من خاصة أصدقائه أنه لولا أن أدركه جيتى فى أزمته لكان وضع حدًا لحياته، ومقالاته عن الأدب الألماني وعن جيتى خاصة كلها تؤيد ذلك، ومراسلاته لأصدقائه كلها حض على دراسة جيتى والاغتراف من ينبوعه، والاسترشاد بحكمته، وقد ظل إلى آخر حياته وأحب الكتب إلى نفسه الكتاب المقدس ومؤلفات شكسبير وجيتى.

وقد رأى بعض من كتبوا عنه أنه تأثر بالفيلسوف فخت أكثر مما تأثر بجيتى، ولكنى أشك فى صحة هذا رأى لأن المعروف عن كارلايل أنه كان يضيق ذرعًا بالدراسة الفلسفية المستقبضة، ولا صبر له على التفكير المجرد ويحوت ما وراء الطبيعة، لأنه كان كثير العناية بالاشخاص والحوادث، وكان اشتغاله بهما أكثر من اشتغاله بالأفكار والنظريات، والجانب الفنى فى نفسه أرجح بكثير من الجانب النظرى، والنظرة الأخلاقية عنده أقوى من النظرة الفلسفية، وقد اقتصر من فلسفة فخت على كتبه السهلة التناول التى توجه بها فخت إلى عامة الشعب، وهذه الكتب قرأها كارلايل فى شغف وعناية وقدرها وأعجب بها، واقتبس بعض أفكارها فى كتبه، ولكنها لم تؤثر فى تفكيره بوجه عام تأثيراً عظيماً كتأثير جيتى.

وكان الشك قد غمر نفس كارلايل، وتمشى فى عقيدته، فأسقمه ذلك وأتلف صحته، وظل إلى آخر حياته يعاني عقابيل تلك الأزمة، وقد علل بعض مترجمى حياته فساد صحته بنقص التغذية فى طفولته، وعزاها البعض إلى شدة انكبابه على الدرس وإجهاده عينيه فى الاطلاع، ولكنه هو نفسه كان يعزو عسر الهضم الذى لازمه طول حياته ونقص عليه عيشته إلى الحيرة التى تغشت نفسه فى ذلك الوقت، والمعارك الروحية الحامية التى خاض غمارها، والثورات النفسية العنيفة التى اصطلى بنارها، وقد كتب عن ذلك فى ذكرياته يقول: «إن صحة الجسم كانت كل ما فقدته فى هذه المعركة الرهيبة التى خرجت منها ظافراً». وقد أوجدت كتابات جيبون عنده الشك فى المعجزات، وقوى ذلك الشك اطلاعه على فلسفة هيوم، ومن غريب الحوادث أن هذا المتحمس الدينى والواعظ الأخلاقى قد وجد الخلاص فى رواية عن جماعة من المثلثين والمثلثات المنتقلات.

وقد كان جيتى روحاً شاملة واسعة الإحاطة، الشعر فى صميمها، وكانت حكمته ثمرة حياة حافلة، وحصاد تجربة متنوعة كثيرة الجوانب. وقد اكتسب كارلايل فى غضون ترجمته لبعض كتبه ودراسته لمؤلفاته الكثير من كلماته وتعاييره، كحديثه عن السر المكشوف، ورأيه فى أن التجربة خير معلم وأن كان ثمن الدرس غالياً، وأن الجمال أسمى من الخير، ولكن هذه

أشياء كان يتخذها كارلايل حيلة لأسلوبه، وفريد أن نلم ببعض الوصايا والحكم التي اتخذها قاعدة لحياته وأساساً لتعاليمه وظل يبشر بها ويرفع صوته عالياً بالدعوة إليها حتى طواه الموت وأسكت نغمته.

وقد كانت رواية «ولهم ما يستر» هي المنجم الذي استقله كارلايل واستخرج منه حكته، وعندما يقرأ الإنسان هذه الرواية تخالجه أول وهلة الدهشة لإعجاب كارلايل بها، والواقع أنه استخلص من هذه الرواية العناصر التي تلائم شخصيته، وتحل مشكلاته، وتفتح عينه على الحياة الصالحة، وقد أصاب فيها حكمة جيّتى الأساسية، وهى أن الإنسان سيد نفسه، وفى وسعه أن يصوغها على مشيئته، وأن الحياة الأخلاقية إن هى إلا جهاد مستمر، وتطور دائم، وأن طريق الخلاص هو العمل، فهو الذى يطلق الإنسان من الأسر، ويحل عقال استعداداته ومواهبه، ورأى كارلايل أن أكبر درس يتعلمه الإنسان من ولهم بطل الرواية هو أن على الإنسان أن يحدد وظيفته، ويطرد الأوهام، ويثابر على العمل، ولم تغب عن عينه البصيرة وذوقه النقاد عيوب الرواية، ونواحى ضعفها، وخلوها من المشاهد الحية، واقفارها من روح الفكاهة المستعذبة، وكانت تستهويه منها شذرات منتثرة، وفصول قائمة بذاتها، فيها إشارات موحية فى جلاء غرائب الحياة، وعلاج مشكلاتها، ودراسة عالية لفن الحياة.

وقد ورد فى هذه الرواية: «إن الخطة المثلى هى أن أعمل الواجب القريب منى». وجاء فيها: «ما أؤمن وما أوفر أهمية الواجب القريب منى» وبها «لايزول الشك مهما يكن نوعه إلا بالعمل» وعاد جيّتى فأكد ذلك فيها بقوله: «دع هذا الذى يتحسس طريقه فى الظلام والضوء المرتجف ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص، وهى أن يعمل الواجب القريب منه، فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذى يتلوه أوضح طريقاً وأبين مظهراً» وقد كانت فكرة الواجب عند جيّتى حكمة عملية تسيطر على أكثر أعماله ونواحى نشاطه، وقد وجد الخلاص فى العمل المستمر سواء فى العلوم والفنون والآداب أو فى واجباته الرسمية فى وِمار، وكان فى أوقات صفائه يشكر الله لتنوع تفكيره الذى مكّنه أن يقسم يومه إلى أقسام عدة ويجعل منه أبدية مختصرة، وعندما كان يطفئ عليه الحزن، كالحزن الذى تولاه فى عقب موت صديقه شلر، كان يعترف فى مرارة بضرورة عمل ما بين يديه دون أن يفكر فيما هو أبعد من ذلك، ولما فجع فى ابنه الوحيد لم يتوقف عن العمل يوماً واحداً، وهكذا فى كل الظروف كانت نصيحته أن نرقب الطريق ونعمل، والعمل يحمل فى طيه مثوبته، أليس هو إيماء لقوى الإنسان إلى أقصى حدود استعداداته وخير ضمان لخلود ذكره؟ وكان موقف كارلايل مخالفاً تمام المخالفة لموقف جيّتى، فقد درج كارلايل فى ظلال عقيدة بليت وأخلقت جدتها، ولكنه كان ولوعاً بها، شديد الحنين إليها، وكان مستغرقاً فى تفكير مؤلم

يبحث عن الخلاص، ويلتصم شاطئ النجاة، ونور الهداية، حتى وقف على عمق حكمة جيتى فى قوله «اعمل الواجب القريب منك»، وهى عند جيتى سياسة عملية حكيمة أكثر مما هى حكمة نظرية، وفكرة دينية، وقد صارت هذه الكلمة البسيطة فى ظاهرها إنجيل العمل عند كارلايل، ذلك الإنجيل الذى يبشر به ويعمل بما فيه حتى قال عنه تددال: «لم يتكلم أحد عن الواجب ومقتضياته والعمل وجلاله بمثل ما تكلم به هذا الرجل».

وهناك فارق كبير بين فهم كل من جيتى وكارلايل لفكرة الواجب، فقد كان جيتى يرى الواجب حكمة عملية تعينه على استجاشة قواء وإنماء مواهبه، وتسمنه أعلى مراتب الثقافة. أما عند كارلايل، فقد أخذت الفكرة لونا دينيا، وكان فى قيامه بالواجب كأنه يستمع إلى صوت مقبل من العالم غير المنظور، انظر إلى قوله فى مقالة «الخصائص» وهى من أروع كتاباته: «هنا فى هذه الدنيا إنما نحن جنود نحارب فى أرض غريبة ولا نفهم خطة القتال، وليس بنا من حاجة إلى فهمها ما دما نرى جيدا واجبا القريب منا، فلنقم به كالجند فى خضوع وشجاعة وسرور ينم على البطولة».

ولم يكن غرضه من وراء أداء الواجب تحصيل العلوم، وتوسيع آفاق الثقافة، وإنما كان يرمى إلى تعميق اعتقاد راسخ فى نفسه، وهذا الاعتقاد هو أن كل شيء فى هذه الدنيا تسيطر عليه القوة والحكمة والحب.

والنظرية الثانية الهامة التى تعلمها كارلايل من جيتى هى نظرية الاحترام فى مظاهره الثلاثة: احترام من هو «أسمى منا»، واحترام من هم حولنا، واحترام من هم دوننا، وقد تفرع من نظرية الإحترام هذه رأى كارلايل فى الأبطال وعبادة البطولة، لأن هذه العبادة قائمة على احترام من هو أسمى منا، وفكرة احترام من هو دوننا قوت فى نفسه العنصر المسيحى، وجعلته يقول بعبادة الحزن وإكبار الألم والشقاء.

وتعلم منه كذلك نظرية الاستسلام وإنكار الذات، ومعناها عندهما قصر الجهود على ناحية معينة، وحصرها فى أضيق نطاق ممكن، لأن توجيه الجهود فى متجه واحد معناه التغلب على الأهواء والنوازع، والخلاص من أسر الرغبات، والارتفاع من الأنانية والأثرة إلى حب التضحية، وهو من قوة التأثير على الحياة بحيث أن جيتى عده بعد العمل أهم مبدأ من مبادئ الحياة، وكان إنكار الذات عند جيتى يبدو فى مظهر تجرد الرجل الذى ينشد الثقافة من الأهواء، وتخلصه من القيود، أما كارلايل فقد فسره تفسيراً يلائم حياته الروحية، ونشأته القاسية، ونزعته الرواقية وما كابده فى حياته من البأساء والفاقة.

وتعلم كارلايل من جيتى أشياء أخرى كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها، وأقف منها عند هذا الحد وأرجو أن يجد القارئ فى تأمل العلاقة بين هذين الرجلين عبرة صالحة ودرساً نافعاً.

رثاء كارلايل لجيتى

لما مات جيتى فى عام ١٨٣٢، كتب كارلايل هذه الكلمة ينعيه إلى قرانه ويرثيه.. بين أخبار الوفيات التى أذاعتها الصحف فى هذه الأيام نعى له منزلة خاصة، فإن زمانه ومكانه وسائر أخباره وتقاصيله ستعاد كتابتها، وتكرر تلاوتها، وسيبقى ذكرها منتقلاً على هام العصور القادمة، وأعنى بذلك وفاة جيتى بومبار فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٨٣٢، ولقد أصدع آخر أنفاسه فى الساعة الحادية عشرة من الصباح، ولم تلح عليه لوائح مقاساة ألم وشدة، فقد استندى قبيل وفاته بدقائق قرطاساً للكتابة، وأعرب عن ارتياحه لإقبال الربيع، وإنها لمبة جميلة كميتة الجندى الذى يتأويه المنون وهو ثبت فى موقفه ولا تزال يده التى سرت فيها برودة الموت قابضة على السلاح، وأن آخر كلمات ذلك الشاعر لنعم التحية للأرض وقد استعادت جمالها الملهود، واستردت شبابها المفقود، وكان فى آخر ما صدر عنه من الحركات يحاول معاودة العمل الذى اصطفته له الطبيعة، فهى ميتة عليها من الحسن رونق، ويمكننا أن نصفها بأنها ميتة كلاسيكية مقدسة، إن لم تكن نقلة كنقطة^(١) إيليا لا فى مركبة من النار وعاصفة مجلجلة وإنما فى مركبة من الأمل وأشعة شمس الربيع اللينة المطمئنة، ولقد جاء هذا الرجل إلى الدنيا فى الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٧٤٩ بمدينة فرانكفورت الواقعة على المين، والآن وهو يستقبل فى رفق مقدم ربيع الثانى بعد الثمانين يقمض عينيه ويودعنا الوداع الأخير.

وهكذا قد رحل عنا أعظمنا وأجلنا شأناً، وسكنت نائمة تلك الحياة، ولانث بالصمت أنفاسها الساحرة التى كانت قيد القلوب، وعقلة الأذان، وارتفعت عنا تلك القوة السماوية التى عاشت هنا متوجة بأكاليل انتصاراتها فى معارك كثيرة، ولن يعبر بعد الآن هذا الرجل الحكيم عن نفسه بالقول أو بالعمل.

النهاية! أى معنى جليل ينطوى فى ثنايا تلك الكلمة وهى ترن رنيناً محزوناً فى جنبات الروح حينما يمضى الموت بصديق لنا من الأحياء! لقد طويت الصفحة، وأسد الستار، وصورة الحياة الدائمة التغير والتبديل والتى يتألف كل يوم شتاتها وينتظم شكلها تحت أصباغ طريفة ونقوش مستحدثة قد تكاملت فجأة، ولن يطرأ عليها بعد ذلك تبديل، وستظل كما هى الآن

(١) يشير كارلايل هنا إلى مسافة صعود إيليا فى العاصفة إلى السماء الواردة فى الجزء الثانى من سفر الملوك «الإصحاح الثانى»

مغمورة فى أثير السماء، ينبعث منها الضوء، وستلوح هكذا إلى الأبد، فواعبجاً من الزمن ودولة الزمن! ذلك العبوس الصارم الغرثان الرحيب الجوف، ولكنه مع ذلك له جلاله وروعته! وهذا الرجل الذى كان بيننا بالأمس قد تردى ثياب الأبدية وأصبح مشرقاً يطل علينا من سماء انتصاره، ولقد صار الحاضر ماضياً، وانقطع الأمل بغته، ولم تبق فى الذاكرة سوى مشاهد الذكريات تنيرها أنوار ليست من تلك الشمس الأرضية ووفاة جيتى لأصدق خلصائه ليست خطباً تراق فيه سواكب الدموع، ويكثر فيه العويل والنحيب وإنما هى حادث حافل بالعظمة والقداسة، لأن الموت حتم فى رقاب العباد، وقد منح جيتى حياة كاملة، وأتيح له عمل لم يتح مثله إلا لأفراد قلائل فى تاريخ العالم بأسره، فالموت هو ما كنا نتوقعه له وقد أتم عمله وأكمل واجبه.

وإذا كان يصدق قولنا عنه من بين الآخرين أن مسيره فى حياته كان مثل يسر الشمس فكذلك كان مغيبه عنا، وكما أن الشمس تجلو للعيون الأشباح والصور فكذلك الشعر فى مدلول اللفظ الروحانى، وإذا تدبرنا حياة جيتى وجدناها شبيهة بيوم مشمس مؤتلق، ففى جمال رفاف ارتفعت شمس صيفنا رائعة باهرة فى المشرق ذى اللون الأرجوانى المشتعل صادعة لشمل الخيالات، متفردة لسرب الأوهام والخزعبلات، «وكان هناك الكثير منها» وافرة القوة جمة المبرة فى وقت الظهيرة، متنقلة وهى ترفل فى حلل الفخار بالآفاق العالية، فانظر الآن كيف تقرب! وهكذا يودى المنون بالبطل، ولعمري إنه لمنظر جدير بالعبادة!

حينما تقرب الشمس وتغيب - وهى تلك المادة غير الحية - قد يحدث أن نقف ونرسل الانظار إلى نواحي الغرب التى لا تزال متوهجة، وهناك ترتفع سحب ورساء مسلوية الحركة كأنها أستار ترخى على مسرح ذلك اللهب، وفى هذا الموقف والنهار مودع محتضر يلم بنا شعور يعقد الألسنة، ويملك علينا البيان، وكأن أصوات الزمن التعسة - أصوات مطارق العمل على سنادينه وقد نمسه اللغوب، أصوات هؤلاء القوم البسطاء - قد أصبحت رهيبة تسمو على المألوف، وكأننا فى الأصغاء إليها نستطيع أن نسمع اختلاطها بصوت الأبد القديم الدائم الدوى، وفى مثل تلك الأوقات نكون أقرب إلى استجلاء أسرار الحياة، وتزخر نفوسنا بالفوامض والأسرار، وتبدو الحياة أقدس وأغرب، وأروع وأرهب، وكم سيكون التأثير فى نفوسنا أقوى وأبلغ عندما يكون المنظر منظر غروب شمس حية، وليس موعد طلوع غرتها المشرقة وضيائها الباهر صباح الغداة ولكن لا مطلع لها أبد الدهر، وإن يعادلها شروق مهما تطاول الزمن، وامتدت الأيام! وإزاء مثل هذا المنظر الصمت أليق بمن كانت عنده إثارة من شعور كالصمت الذى يستولى علينا حيال السر الجليل الخافى، ولكن الصمت برغم ذلك لا يقرب منا البعيد، ولشعور كل منا صدى فى قلب أخيه، وموجود الآن ما لم يكن له وجود منذ

أعوام قلائل، وأقصد بذلك أن هناك الآن فريقاً من الرجال تعى قلوبهم معنى هاتين اللفظتين: «موت جيتى»، ولهؤلاء أسوق كلمتى إلى جانب خواطرم العديدة عن الحادثة، تلك الخواطر التى لم يعبر عنها اللفظ، وأرجو أن تصادف منهم قبولا.

يقول الفيلسوف: «الموت هو امتزاج الأبدية بالزمن، وفى موت الرجل الصالح نرى الأبدية مطلة من خلال الزمن»، وليس من المستنكر حيال جلال كهذا ممنوح للقلب والعين أن ننظر برغبة حافزة وإهتمام مجدد إلى الأمام وإلى الوراء وأن يعن لنا أن نسأل عن مدى التأثير الذى تحدثه جهود مثل هذا الرجل فى تلك السنوات والقرون العديدة، وعن علاقة هذا الذى أصبح فى عداد الخالدين بعالم التغير والفناء الذى نسميه الحياة، وماذا سيكون من أمرها فى المستقبل.

ومن الألفاظ الدائرة على الأفواه أن جيتى بدأ عهداً جديداً فى الأدب، وأن عصرأ من عصور الشعر جاء معه، ونهاية ذلك العصر أو ما أسفر عنه ليست الآن ظاهرة جلية، وهذا القول السائر حق صراح، بل أن فيه من صميم الحق أكثر مما يتبادر إلى نفوس الكثيرين، ولو كان الشاعر نغمة عذبة رقاقة ومغنيا يمتع أذان الخلى بالأغاني التى ترفه عن النفس وكان الشاعر الجديد هو الذى يسمعا تلك النغمة فى لحن جديد لكننا نعد الأمر هينا، ونعتبر ما جاء به شيئاً صغيراً ضئيلاً، ولكن هذا الرجل كما يعرف الكثيرون كان شاعراً لم يشهد المتأخرون له ضريباً، وأنه لنوع من الامتياز والتفوق فى هذا الجيل أن نعتقد بوجوده بل بإمكان وجوده، وما زال الشاعر الحق من مؤتنت الأجيال هو الرائي الذى رزق من نفاذ النظر ما يمكنه من استشفاف لغز الكون الإلهى، وجل رموز كتاباته السماوية، ولا نزال نستطيع أن نسميه «بالرائى» لأن بصره يجتلى أعظم الأسرار، ألا وهو «السر الجلى» وتتضح له الخفايا، وترفع الحجب والاستار، ويرى كيف أن المستقبل ليس سوى وجه من أوجه الحاضر «كلاهما قائم على الأبدية» ولذا تجى كلماته نبوءات صابقة كاشفة، وما ينطق به لايد من عمله.

وقد بدأ يعرف فى هذه الآونة بكل مكان أن القوة الحقيقية التى يجب أن تعنوا لها جميع الأشياء وتطيعها هى قوة البصيرة والمشاهد الروحية، وقوة العزم والتصميم، وأن الفكرة هى أم العمل أو هى روحه الحية، وهى المحركة له، وهى الدائمة والباقية منه، وهى الأساس والبداية والجوهر واللباب لوجود الإنسان فى هذه الأرض، وقد قيل فى هذا المعنى أن كلمة الرجل «أبى فكرته التى نطق بها» لا تزال صيغة سحرية سيطر بها على الدنيا، أو ليست تطيعه الرياح والأمواء والقوى الصاخبة الثائرة من الأحياء والجمادات؟ وأن كلمات قليلة تنبعث من فم ساحر صكبر الشأن من الصناعات فتتخر عباب المحيط وتعبه سفن لها أجنحة من نار نزولأ على أمره، أو تأمل فوق كل شىء الاضطراب الذى شمل الأمم والفوضى التى أرخت سدولها وضربت بجرانها وكيف أن صوتاً رقيقاً ليناً ينبعث من أحد شهداء العبرانيين وأنبيائهم يحيلها نظاماً،

فتصحب الأرض المتأبدة بارة جميلة، وتغدو منازل القسوة المنكرة معبد سلام، وملك الدنيا الحقيقي الذى تراها فى يده كالشمعة طواعة ولياناً يصوغها كيف شاء هو من ينظر إلى الدنيا نظرة منطوية على الحب، وهو المفكر الملهم الذى نسميه فى عصرنا بالشاعر، والملك الصادق هو الرجل الحكيم.

وكما أن القمر الذى يستطيع أن يدفع بمياه الإطلاطيقى لا يرسل الأمواج الخاضعة لسلطانه دفعة واحدة، وإنما فى تدرج وتعاقب، والمد الذى يغشى شواطئنا اليوم وتغمر مياهه جميع الحركات العالية وهى عميقة بطبيعتها ولذا نراها صامئة هادئة وهى تنساب وتتدفق إلى الأمام فى تودة جليلة وأناة فحمة، فكذلك الدافع الذى يجىء به الرجل العظيم وتأثيره على غيره من الناس، وقد يطوى جيل أو جيلان قبل أن يظهر تأثيره السماوى فى الدنيا ويصيح «مثل عمل القمر» واضحاً يلمسه الناس وأن لم يفهموا طبيعته، وقد يمر جيل أو جيلان لينمو ويبسق، ويعم ويتشتر، ويشمل كل شيء قبل أن يبلغ القمة، ويوفى على الغاية، ثم يختلط بعد ذلك بحركات أخرى ودوافع مستحدثة، وفى النهاية يصبح فى غير حاجة إلى الملاحظة الخاصة، والدلالة المعينة، وسيطول أو يقصر هذا الأوان تبعاً لطبيعة الدافع نفسه والعناصر التى يعمل بها وهل هو - قبل كل شيء - واطد الأساس بعيد الإعراق، أو سطحي ذائع شائع ولكنه موقوت زائل؟ فإذا كان داود هيوم هو الآن الحبر الأعظم المسيطر على القلوب والمرشد لمعظم الألسنة «حتى اتك القلوب والألسنة التى تحاول جهدها التمرد عليه» فإنه يوجد برغم ذلك من العلامات ما يدل على أن عمله قد قارب التمام وشارف الختام، والآن يلوح من بعيد الذى سيخلفه، وقد رأينا من ناحية أخرى نابليون تنفجر قوته فجأة كما ينفجر البارود «وكان فى الواقع يعمل على نمطه» ويملاً الأفاق دويماً مدى خمس وعشرين سنة ثم يلوذ بالصمت، وذلك على حين أن الرجل ذا العظمة الوثيقة الأركان الذى يعمل بالوسائل الروحية ليس من غير المألوف أن يستمر تأثيره مدى قرنين، ولقد شاهدت أرضنا هذه رجالاً لم يكمل نمو تأثيرها إلا بعد انقضاء ألف وخمسمائة سنة وربما قد يستمر موجودا بعد ألفى سنة.

ولكن الأمر كما قد كتب مرة: «بالرغم من أن هناك ساعة كبيرة بقاقة تنق حين الانتقال من ساعة إلى أخرى، فليس ثمة مطرقة فى ساعة الزمن تدوى فى أرجاء العالم معلنة أن هناك انتقالاً من عصر إلى عصر»، والابتداء الحقيقى فى الأغلب غير ملحوظ وغير قابل للملاحظة، وهذا علة ما يركب الناس من الخطأ فى الحساب حتى تراهم يتحسسون هنا وهناك غير عالمين أين هم، وفى أى اتجاه يسير تاريخهم، فمثلاً فى خلال ذلك القرن الأخير الذى كان مليئاً بالشدائد وأفاعيل الهدم أى أمل قام على الحساب الخاطئ قد انتهى بالخيبة! وكم من الانتصارات الذائعة الشهرة ظفر بها وفقدت، وكم من الأسر ارتفع شأنها ثم سقطت، وكم من

ثورات قامت، وكم من نظم حلف لها يمين الولاء والإخلاص، وكان يتردد القول بأن العصر الجديد قد أقبل وإنه فى طريق المجئ، ولكنه مع ذلك لم يأت وظل الزمن معتلاً مريضاً! ولم يكن ذلك كله للأسف سوى انتفاضات للزمن وهو على فراش الموت، ولم يكن هناك ما يشير إلى اقتراب الموقف الحاسم فى علاج الزمن وتجديد قواه، ولقد جاء العصر الجديد حينما أقبل على العالم الرجل الحكيم ببصيرته النافذة وروحه العظيمة ليضطلع بين هذه العقبات الجديدة بتلك المهمة القديمة السامية، وهى أن يحيا حياة حكيمة، ومثل هذا الرجل قد صار بموجب الاختيار السماوى منقذ العصر ومنجيه، ألم يحتمل لعنة العصر؟ ولقد كظت شعاب نفسه شكوك العصر ومرارته، وألمته أكاذيبه ومتناقضاته حتى كاد قلبه ينفطر، ولكنه تغلب على ذلك كله ونهض منتصراً وأظهر لمن يجئ بعده بالقول وبالعمل كيف يصنع صنيعه ويحذو حذوه، فله در هذا الرجل الذمهد لنا الطريق حيث كنا لا نستطيع السير! وهذا عمل كل رجل عظيم، بل عمل كل رجل صالح فى أى ناحية من النواحي لأن الصلاح هو العظمة، والرجل الصالح سواء كان من نؤابة الإشراف أو من أبناء العامة هو دائماً الشهيد «والبطل الروحى الذى يتقدم إلى الهاوية لإنقاذنا» ولقد كانت الهاوية التى اجتراً على اقتحامها ذلکم الرجل، وأسس لكم قيادها، وأزال وحشتها، وجعلها صالحة للسكنى أعظم الهاويات وأحفظها بالأخطار، بل كانت الهاوية التى تكمن فيها المكارة جميعها، فإن أسباب التخطيط والاضطراب لا تتجاذب وجود الإنسان من كل ناحية إلا فى العصر الذى فقد فيه يقينه وعقيدته، والذى يعيش فى مثل ذلك الجو الأوهج الثائر ويبذل قصارى جهده ليحيا حياة حكيمة يعرف ويقدر ما يتطلبه مثل هذا العمل، ولرجل عصرنا المختار الذى قام بأعبائه أسمى الاحترام والتوقير، وهو جدير بأن نضفى عليه من حلل الثناء ما يضمن على غيره.

وسيفقد ويوزن فى الوقت المناسب مدى توفيقه وما احتمل من عناء وأنجز من أعمال، وتلك الكتب المسماة مؤلفات جيتى لن يتناولها منذ الآن أى تغيير ولن يضاف إليها جديد، وقد سجل فيها محاولته الروحية مفصلة كاملة، لو أن الرجال الذين أوتوا القدرة على قراءتها قراءة صحيحة متأهبون مستعدون وإنها لسجل باهر، وكل من حاول فهم نفسه وبيئته وجاهد فى الخروج من الظلمة إلى النور سيطلق قراءتها وهو يلهج بالحمد والشكر، ففيها تتراعى صورة ذلك العصر المضطرب المائج تامة بما عانى من الخطوب والشدائد وما بلغه وأبركه، وما عمل لتحقيقه وهدف إليه، وقد شرح ذلك كله وفسره، وهذب وسما به الإشراق الشعري فمن لواجع نفس ورتو وشجون وعبراته التى كانت كأنها منبعثة من قلب أوروبا إلى الأمام خلال ألحان فاوست المتأبدة غير الأرضية التى تشبه أغنية روح العوالم الهاوية إلى تلك الحكمة الهادئة الباسمة فى وليم ميستر والديوان الشرقى أى فترة وانتقال! وكلها منظومة فى موسيقى أثرية كأنها مقبلة من

عوالم خفية توحيدها وتلائم بين أجزائها، وإنها لفترة طويلة المدى ولكنها واسعة رحبة كما هي طويلة لأن هذا الرجل كان رجلاً عالمياً، فالتاريخ والعلم والفن والنشاط الإنساني في كل مظهر من مظاهره وقوانين الضوء في رسالته عن الألوان وقوانين الحياة الإيطالية المتأيدة في ترجمته لمذكرات بنفغو توشيليتي كل ذلك ميدانه ومجاله ولم يند عنه شيء، ولم يترك شيئاً دون أن ينظر فيه ويتعمقه، ثم تدبر سلامة كل ما يعمل من التكلف وطريقته الصحيحة الصائقة وجمعه بين البساطة والسمو، والخفة والرشاقة؛ فمن طرف فنية خالصة لها جودة صقل الطرف اليونانية القديمة، مثل رواية توركوواتو وافيجيني، إلى أمثال وحكم وأقوال مأثورة لا نجد لها نظيراً منذ تمت أسفار العبرانيين، وفي أعماقها الواضح مواد تكفي لوضع كتب ضخمة.

وكما أسلفنا القول لم يأن بعد أوان وزن ذلك كله وتقديره، وسيكون ذلك أوفق وأنسب بعد مضي قرن منذ هذه الآونة، والذي يبحثها أحسن بحث سيرى معناها أعظم، وسيكون أسبق الذين يعترفون بأنها قد سمت بهم، فلينفذ القارئ ببصره قبل أن يطل عليها ويشرف، وأنه لقارئ لا يحسن القراءة هذا القارئ الذي لا يتبين فيها مبادئ العصر الجديد الصائقة، ذلك العصر الذي طالما سمعنا عنه الإرهاصات والتحذير الكاذب، ومما يثير العجب والدهشة أن نرى بها بقايا الأشياء القديمة المحطة البائرة البالية من نظم وأديان وأمجاد منسية وقد نفخت فيها العبقورية روح الحياة فانتسقت في نسق جديد ووحدة ناشئة تسرى في نواحيها روح الفن الخالق وتلك الفوضى التي جرّها على القرن الثامن عشر حرب المنافقين والمتشككين المنكرة تبدأ تعود هنا عالمنا وكوننا، وأن أسمى ما يقال عن الكتب المكتوبة ليقال عن تلك الكتب، وهو أنها تحوى عصرًا جديداً، وبها التكهّن بالعصر الجديد ويشائره، وقد ألقى فيها الحجر الأساسي لبناء اجتماعي جديد للإنسانية، وهذا الأساس الركيبين - كما كان من قبل - على صخرة طبيعية، وأتينا لنشاهد هناك كذلك آثاراً بعيدة الامتداد عن خطة البناء تستطيع القرون المقبلة أن توسع نطاقها، وتصلح منها وتحققها، وستكون هذه الألفاظ غريبة الوقع في بعض الأذان، ولكنها برغم ذلك ليست مبالغات جوفاء ولكنها كلمات صادرة عن يقين ليس بالجديد، وربما عندما يدرس جيتي الجيل القادم ويطيل فيه التفكير تنحصر عنها الغرابة.

وأنه لقيم هذا الضوء الجديد من المعرفة الذي استنزله لنا أستاذنا، ولكن مع ذلك فإنه يصغر إلى جانب أشعة الحب الجديد التي استمددناها منه، وأهم عنصر في أعمال أي إنسان هو الحياة التي حياها، وتحت الاتفاق العقلي بين الرجل والرجل الذي يقوم على الأفكار اتفاق أسمى من العطف والحب يقوم على القدوة والمثل، وتأثيرات ذلك الاتفاق والتجاوب خفية غامضة، ولا يمكن عدّها وحصرها، لأن الحب هو بدء المعرفة كما أن النار هي بدء الضوء، وهو يعمل كما تعمل النيران، ولقد كان جيتي أستاذاً عظيماً، ومعنى ذلك أنه كان رجلاً فاضلاً، ولقد وعى هو

نفسه الدروس، وقد جاهد فى مدرسة التجارب حتى انتصر، وكم من السامعين الذين نال منهم الضنى وكاد يتركهم الموت فى غيايات سجن الإلحاد الذى لا يدخله الهواء «وهو خواء تام ولا شىء» سيقع من نفوسهم موقع الأخبار السارة نبأ وجود مثل هذا الرجل أو أن وجوده ما زال ممكناً! والذى يريد أن يجمع بين الإجلال والاحترام ووضوح التفكير واستقامة النظر، وأن ينكر الباطل ويتحدها ومع ذلك يؤمن بالحق ويعبده، والذى يريد أن يقف الموقف السليم ويسلك السبيل السوى بين الشيع الثائرة المتدبرة التى تنتفض انتفاضات عاصفة وتمزق من هنا ومن هناك نظاماً اجتماعياً أيلال للزوال، والذى يعمل فى الدنيا وللدنيا ويريد أن لا تعلق به أوضاعها- مثل هذا فليُنظر هنا وليتأمل، ويمكننا أن نقول إن هذا الرجل صار عظيماً من الناحية الأخلاقية لأنه كان فى عصره ما كان يمكن أن يكونه الكثيرون فى بعض العصور الأخرى، وذلك أنه كان رجلاً خالص الرجولة لا عوج فيه ولا أمت، وتفوقه العظيم كان فى تلك الرجولة الخالصة النقية، وكما كانت أولى مواهبه- والتى هى أساس سائر المواهب- موهبة العقل ويعد الغور ونفوذ النظر، فذلك كان العدل أو القدرة على أن يكون عادلاً أولى فضائله، ولقد كنا نعجب منه بقوته الجبارة، ولكنها كانت قوة يشرفها أرق اعتدال حتى لتشبه قوة الدنيا الصامنة المحفوفة بالصخور والتى تنمو الأزهار فوق صدرها المرتكز على الصوان، ولقد كان أعظم الناس قلباً كذلك أشجعهم، كان لا يعرف الخوف، ولا يمسسه اللغوب، ولا يقلبه فى هدونه ووداعته غالب، رجل مكتمل النواحي قد اجتمعت فيه الحساسية المرتجة الهفافة وحماسة منيون العارمة المضطربة بسخرية الشيطان «مفسطوفوليز» المتهافة، وكل جانب من جوانب هذه الحياة المتعددة الجوانب كان يلقي نصيبه المناسب.

ولقد كان جيتى بعد شلر سعيداً لأنه مات ملفوفاً فى أوراق الشباب فى أوج قوته، وريهان فتوته، وإننا سنتمتله فى شباب مخلص دائم، ولكنه قد ادخر له مصيراً مختلفاً عن ذلك وأسمى منه، وقدر له أن يجتاز مراحل الحياة جميعها إلى نهايتها، وأن يطوى تلك المراحل جميعها فى نبل، ففى إبان الشباب لم تقسده إغراءات الحظ المواتى، ولا العيشة الراغبة المتصلة، والعامل البصير الذى يتأمل ذلك يقول: «لا يستطيع إنسان سوى جيتى أن يصون أجنحته من الإحترق فى شمس السعادة الدنيوية» فى رجولته بين العلاقات المعقدة المشتبكة كشاعر ورجل بلاط وسياسى ورجل عمل ورجل تفكير، وفى بهرة الثورات الخارجية والروحية والحركات المقاومة لها، وبينما الدنيا مقبلة عليه فى ضجة أو بينما هى معرضة عنه فى صمت، وفى كل الظروف والمواقف كان يسير على نهج ثابت، ويلتزم خطة واحدة، والشيخوخة نفسها التى توصف بالضعف والظلمة قد أحالها جميلة محببة، فمن نظر إليه هناك فى جلاله وقواره وقد ازداد احترام الدنيا له وضوحاً وصفاء، واستطاع أن يمسك على نفسه تلك الأمنية، وهى أن يكون

شيخاً موقراً مثله، وما زالت السماء الرحيمة رحيمة بارة، فهي لا ترضى على مسيرة حياة جليلة كهذه الحياة بأشرف نهاية وأجل خاتمة.

وهكذا كانت حياة جيتي، وهكذا كان رحيله عنا: وهو الآن يرقد إلى جانب صديقه شلر وصديقه كارل أوجست دوق ويمار، وهكذا كانت مشيئة الأمير أن يكون مقره الأخير بين هذين الاثنين، ولقد كانوا في الحياة مجتمعى الشمل وفي الموت لم يتفرق شملهم، ويستريح الآن العامل الدؤوب الذى لم يعرف الكلل، وقد ترك ثمة أعماله نامية، ويستتمو وتيسق، ولقد كانت سنواته الأرضية معدودة، وقد انتهت، ولكن جهوده لا نهاية لها، لأن جنورها ضاربة في الأبدية، وكل ما نعتيه بقولنا الأدب الألمانى الأرقى والذى هو أسمى الآداب الأوروبية يدور حول اسم هذا الرجل، لأنه مبتدعه وخالقه، وأنه ليشرق على الدنيا التى لم تكن منه على ميعاد فى إبهام وغموض، فمن يستطيع أن يقيس تأثيره البعيد ومغزاه وقيمه؟ وأدب أوروبا سيزول ويمضى اسبيله، وأوروبا نفسها بل الأرض بحذاقيها ستزول ويخنى عليها الدهر، وهذه الأرض زورق الحياة الصغير بملاحيتها المرتفعى الأصوات من بنى الإنسان وتاريخهم المتعب ستختفى يوماً ما كما تختفى نرة السحاب من سماء « الكل » الصافية! فما الإنسان إذن؟ ما الإنسان إذن؟ إنه لا يلبث سوى ساعة ثم يسحقه الموت، ولكن برغم ذلك فإن فى وجود الرجل المؤمن وعمله « كما يؤكد لنا الإيمان من بينه » شيئاً لا يخضع لريب الدهر وعوادي الزمن، بل ينتصر على الزمن ويكون ويدوم، وسيبقى حين يقضى الزمن نحبه وينتهى أجله.

ولنعد الآن إلى الدنيا تاركين ذلك القبر الجديد الحفر، حيث يرقد الرجل الذى نحبه، ولكنه يرقد فى عظمة وفخار، ولاتزال روحه حية فى نفوسنا حياة صادقة، فهل يستطيع كل منا أن يعقد العزم على أن يقوم بعمله الصغير كما نهض ذلك الراحل بعمله الكبير، وكما يعمل الرجل الحق، لا لليوم ولكن للأبد! وهل يستطيع كل منا أن يعيش كما نصح لنا وأمر لا فى رحاب الشهرة وحب الثناء وحدود الناقص ولكن بعزيمة مصممة فى الكل والصالح والصادق.

تساؤل ميتزلنك

موريس ميتزلنك فى طليعة الكتاب العالميين، ومن المفكرين الأعلام، ومن أقدر مفسرى الروح الحديثة، وممثلى الأدب العصرى، وقد خفت صوته وقل إنتاجه فى السنوات الأخيرة، وربما كان لعلو السن وضعف الشيخوخة أثر فى ذلك، فهو يهدف الآن إلى منتصف العقد التاسع من عمره الحافل بحياته الخصبة.

وكتب ميتزلنك ملأى بالتأملات الجميلة، والخواطر الحسان، ولكنه لا يرمى بها إلى التحليق فى الأجواء العالية، والانتقال إلى العوالم الأخرى السامية، بل يريد أن يكشف لنا عن طرق السعادة فى هذه الأرض، وهو يحاول أن يستخلص لنا الحكمة العملية التى تعيننا على تلقى صدمات القدر، وعثرات الحظ، وتجعلنا ننتصر فى المعركة، أو على الأقل تهون علينا مرارة الهزيمة، وغمرة الألم.

وميتزلنك لا يزور علينا، ولا يخدعنا، فلا ينكر شقاء الحياة وهموم العيش، ولكنه يرى أننا إذا ارتفعنا وسمونا بأنفسنا إلى مستويات أعلى أبصرنا حقائق هامة لا تبدو لنا جلية واضحة ونحن فى الوهاد وسهل الأباطح، وأمثال هذه الحقائق هى التى يحاول ميتزلنك فى كتابه القيم عن «الحكمة والقدر» أن يذكرنا بها، ويعرضها على بصائرنا، حتى لا تذهلنا النوائب التى تنوينا، ولا تذهب بنفوسنا شعاعاً.

وقد ظهر هذا الكتاب فى عام ١٨٩٨ وحسن تقديره، وصادف رواجاً، واعتبره البعض خير ما كتبه ميتزلنك، والكتاب حافل بالآراء السديدة، والنظرات النافذة، وإن لم يحو مذهباً واضح الحدود، ولا تأكيداً جازماً، وبه صفحات مشرقة نيرة تترك أثراً قوياً فى النفس، وتغذى القلب، وهو يحجب إلينا الحياة، ويبصرنا بما فيها من جمال وإشراق، وبطولة وفضيلة، ويجعلنا نحرص عليها، ونعنى بها، ويحدثنا عن حكمة القدر والمصير، والشقاء والسعادة، والاستسلام والأمل حديث المجرب الحكيم، والشاعر الصادق الحس والرؤية.

وليس لميتزلنك غرض تعليمى أو غاية تريبوية، وهو يكتفى بأن يخلق حولنا جواً صافياً شفافاً كالجو الذى يخلقه للنفس الإيمان الصادق والتقوى الخالصة، وذلك دون أن يضطربنا إلى إلغاء عقولنا، والا يغال فى عالم الوهم والخرافة.

وربما كانت هذه السمة هي أجل سمات الكتاب، وخير مزاياه.

فهو روحية صافية نقية لا تشويها صرامة العقيدة، ولا جفوة التعصب، تلمح فيها تأثره بفلسفة الرواقين، وحكمة الأناجيل، ونظرات كبار الأخلاقيين من طراز اسبنوزا وغيره من أعيان الفكر، ودعائم الفلسفة.

وحكمة ميتزلتك حكمة باسمه تقبل الحياة، وتؤمن بالسعادة، وتعتقد بالخير، وهناك ألوان من السعادة يمكن أن تذلل لنا الحكمة قطوفها، وتيسر لنا نيلها، وليس من الحكمة أن نخدع أنفسنا، ونوهمها أننا نستطيع دفع غوائل الدهر وأحداثه المادية، فنحن لا نستطيع أن نسيطر على الحوادث، ونمنع فقد الأجزاء، ولكن علينا أن نفرق بين مصيرنا الخارجى ومصيرنا الأبدى الداخلى، فنحن إن كنا نعجز عن مقابلة الحوادث وبفع شرها فى وسعنا أن نؤثر فيما تصنعه بنا وما تخلفه فى نفوسنا، وقد تصيب الحوادث جسامنا وتؤلها ولكن إذا كانت الروح لا تهن ولا تستسلم ولا تستكين، أو إذا خرجت من المحنة والصهر أصفى وأنقى وأقوى وأصلب فمعنى ذلك أننا قد عرفنا كيف تلقى الحادثات، ونتغلب عليها ونطو فوقها، والكوارث فى مثل هذه الحالة كأنها غير موجودة بالقياس إلى الروح، وهكذا نستطيع أن نستمد من ظلمة الشقاء ضوءاً ينير جوانب النفس، ونستخرج من عدوان القدر علينا قوةً وصفاءً وهذوياً، ومن هذا القبيل تلك السعادة التى استمتع بها الحكماء، وظفر بها القديسون الأصفياء.

وقد يسوؤنا عسف الأقدار، وتؤلنا الكوارث التى تصيب الغير، وتتركنا منكسرى العزم، ولكن أليس ظلم القضاء هو الذى يجعل لعدالة الرجل الحكيم قيمة؟ وإذا كان يكفى أن يكون الإنسان صالحاً نقياً ليجتنب الكوارث والخطوب وإذا كان الرجل الشرير وحده هو الذى تلم بساحته الخطوب فما قيمة عمل الخير؟

ولا يشك ميتزلتك فى وجود الخير وإمكان بلوغه، وما دام الخير موجوداً فمن حقنا أن نستخلص أن العدالة كذلك موجودة، لأن الخير لا معنى له فى الحياة المنعزلة التى لا علاقة لها بالحيوات الأخرى، والخير لا يتجلى فى الفراغ والجمود والأثرة، وإنما يظهر فى مخالطة الناس وتأكيد الصلات بيننا وبينهم.

وليس ميتزلتك فى هذا الكتاب شاعراً ينشد الجمال، وإنما هو مفكر يطلب الحكمة، ويبحث عن الحق، فهو لا يكتفى بالأحلام الوضيئة، والخيالات اللامعة، وإنما يفتش فى أعماق النفس، ويكشف عن أحرانها وأفراحها، ولا يكتفى بالوقوف إلى جانب الجداول المترققة التى تتعكس فى صفحتها الأزاهير والشجيرات، وإنما يجترئ على الخوض فى بحر الحياة الزاخر المتدفق.

وهو لا يزعم أنه يبلغان رسالة، أو يحاول إثبات شيء ليرغمنا على قبوله، بل هو من نزاهة القصد وصدق الإخلاص بحيث لا يحجم عن مهاجمة فروضه وتعديلها، وعرض ما يوجه إليها من

نقد وتقنيد، وكتابه يشبه كتب الاعترافات فقد سجل فيه ما جال بنفسه، وخطر بfكره، وضمنه حكمته وفلسفته وشاعريته وتصوفه، وإلى القارئ بعض المختارات من هذا الكتاب القيم قد لا تكون من خير ما فيه، ولكنها تبين اتجاه تفكيره ولون أدبه:

لا أزعـم أن القدر عادل، وأنه يثيب الخير ويعاقب الشرير، وهل تستطيع النفس التي كانت واثقة من المثوية أن تدعى الصلاح؟ ولكننا أقل عدلا من القدر حتى حينما يكون القدر هو الذى نحكم عليه، فعيوننا لا تبصر سوى الكوارث التي تصيب الحكيم، وذلك لأننا جميعاً نعرف تلك الكوارث، ولكننا لا نرى سعادته، لأن تقدير سعادة الحكيم والعادل تقتضى أن يكون نصيبنا من الحكمة والعدل معادلا لنصيبهما، وحينما يحاول الرجل الصغير النفس أن يقدر سعادة الحكيم العظيم تلقى تلك السعادة تتساقط من بين أنامله انسكاب الماء، ولكنها مع ذلك فى زنة الذهب ولعانه فى يد ضريبه فى الحكمة، لأن كليهما قد أوتى السعادة التي يستطيع أن يفهمها على خير وجه، النائبة التي تتوب الحكيم قد تشبه النواثب التي تفرح مروءة غيره من الناس ولكن سعادته لا علاقة لها البتة بما يدعوه غير الحكماء سعادة، وفى السعادة نواح مجهولة أكثر مما فى الشقاء، وصوت الشقاء لا يتغير أبداً، أما السعادة فكلما تغلقلت إلى الأعماق كانت أخفت صوتاً وأكثر صمماً.

وحينما نضع مصائبنا وأحزاننا فى كفة يضع كل منا فى الكفة الأخرى كل ما يعتبره سعادة، فالمستوحش يضع فى كفة الميزان ريشاً ومسحوقاً وخمراً، والرجل المتحضر يضع بعض الذهب وعدة من أيام النشوات والصبوات، أما الحكيم فإنه يضع أشياء لا يأخذها العد تقيب عن أبصارنا وربما يضع روحه برمتها وحتى الشقاء الذى كابدته فهذه وصفاه.

إذا ذكرت لفظة القدر ارتسم فى عقول الناس صورة الحزن والخوف وطالعهـم شبح الموت، والذي يدور فى أخلادهم بدافع من الغريزة هو أنه الطريق المفضى مباشرة إلى القبر، وهو عند معظم الناس الاسم الذى يطلقونه على الموت حينما تكون يده بعيدة عن الأبصار، إنه الموت الذى يلـمـح فى ثنايا المستقبل وظل الموت الملتقى على الحياة، ونحن حينما نسمع بالموت الذى يترصد المسافرين فى منعطف الطريق نقول: «لا يستطيع إنسان أن يابق مما قبرله» ولكن لو لقي المسافر السعادة لما عزونا ذلك إلى القدر، ولو فعلنا ذلك لأصبح فى خاطرنـا إلهاً مختلفاً كل الاختلاف، ولكن ألا تلقى برغم ذلك فى طرق الحياة من الأفراح ما هو أجل وأعظم من أية كارثة وأكبر شأنًا من الموت نفسه؟ أما يمكن أن تلقى سعادة لا تستطيع العين أن تبصرها! أليس من طبيعة السعادة أن تكون أقل ظهوراً من الشقاء وأن تدق رؤيتها على الأبصار كلما توقلت فى المرتفعات الأسـمى؟ ولكننا نتجائف عن ذلك ونلـبى أن نعيـره التفاتنا، وقد يهرع أهل القرية برمتهم وسكان المدينة بأسرهم إلى المكان الذى وقعت فيه حادثة محزنة ولكن لم أر إنساناً يترى لحظة ليتأمل

قلبه أو يشاهد رؤية جمال ملا النفس حبوراً أو أشعة حب يضيئ القلب، وقد تدخل القبلية على نفوسنا من السرور ما لا يقل عظمة عن الألم الذى يحدثه الجرح، إننا قاسطون لأننا نفرق على الدوام بين القدر والسعادة، وإذا كنا لا نعتبر القدر غير متصل بالموت فما ذاك إلا لأننا نوثق الروابط بينه وبين كوارث أجل وأفدح من الموت نفسه.

من الخطأ أن لا نفكر فى القدر إلا متصلاً بالموت والكارثة، فمتى يحين الوقت الذى يبطل فيه اعتقادنا أن الموت - لا الحياة - هو المهم، وأن يصيبه أعظم من السعادة؟ ولماذا حينما نحاول أن نلخص مصير إنسان نظل عاقدي الطرف بالدموع التى أراقها ولا نفكر أبداً فى ابتسامات ابتهاجه؟ ومن أين تعلمنا أن الموت هو الذى يحدد قيمة الحياة لا أن الحياة هى التى تحدد قيمة الموت؟ ونحن نرثى لمصير سقراط وبنكان وأنتيجون وغيرهم ممن كانت حياتهم نبيلة، ويؤسفنا أن خاتمته كانت فجاعة وقاسية، ويميل بنا ذلك إلى التسليم بأن الكوارث تغشى الحكمة والفضيلة على السواء، ولكنك أنت نفسك - قبل كل شئ - لست عادلاً ولا حكيماً إذا كنت تلتمس فى الحكمة والعدل شيئاً آخر غير الحكمة والعدل، وفضلاً عن ذلك فبأنى حق تختصر وجودنا كاملاً فى ساعة موت واحدة؟ ولماذا نستخلص من حقيقة أن سقراط وأنتيجون لم يكن ختام حياتهما سعيداً، إن حكمتهما وفضيلتهما هما اللتان ساقتا إليهما الكارثة؟ وهل للموت مكان فى الحياة أوسع مدى مما للميلاد؟ إننا حين نفكر فى مصير الحكيم لا ندخل فى حسابنا ميلاده، والسعادة أو الشقاء إنما تنشأ من الأعمال التى تصدر عنا من يوم ميلادنا إلى يوم وفاتنا، فنحن لا نهتدى إلى سعادة الإنسان الحقيقية أو حزنه الصادق فى الموت وإنما فى الأيام والسنوات التى تسبقه، ويبدو أننا نخيل إلينا أن الحكيم الذى قد سطر التاريخ خاتمته المحزنة المفاجئة قضى حياته متوقفاً الخاتمة الأليمة التى أعدتها له حكمته، على حين أن الواقع هو أن فكرة الموت لا تشغل بال الحكيم كما تشغل بال الشرير، ولم يكن عند سقراط من الأسباب الكثيرة التى تدعو إلى الخوف من النهاية الرهيبة مثلما كان عند ماركبث، وموت سقراط وإن لم يكن سعيداً إلا أنه على الأقل لم يفسد حياته بالظلام، فهو لم يقض أيامه جميعاً فى ميات تهيبة كما فعل ثين الكودرى، ولكن من أشق الأمور علينا أن لا نعتقد أن الجرح الذى ينضج دماً ساعات قللاً لابد أن يقوض سعادة الحياة ويمحوها محواً.

لنذكر على الدوام أنه لا شئ يصيبنا إلا وهو من طبيعة نفسنا ومعناها، فكل محنة نستهدف لها تلبس لنفوسنا لبوس أفكارنا المادية المألوفة، وأعمال البطولة لا تتاح إلا لهؤلاء الذين كانوا لسنوات طويلة أبطالاً منعمورين صامتين، وسواء هبطت الوادى أو رقيت الجبل، وسواء قمت بسياحة إلى نهاية الدنيا أو اكتفيت بالطواف حول دارك، فإنك لا تقابل غير نفسك فى طريق القدر، وإذا انطلق يهوذا هذه الليلة سعت به قدمه نحو يهوذا، وإن تقلت منه فرصة الخيانة، ولكن

ليتمكن سقراط من فتح الباب فإنه لا محالة واجد سقراط راقداً بالمدخل إزاءه، وستتاح الفرصة لحكمة، وما نستهدف له من شتى المخاطر يتطايّر حولنا تطايّر النحل حول خليته حينما يكون على نية الاحتشاد، فهي تنتظر انبعاث الفكرة الرئيسية من نفوسنا فإذا لاحت هذه الفكرة تدفعت نحوها والتفت حولها، فكن كائناً مبطلاً تسرع إليك الأكاذيب والأباطيل، ولينبض بالحب قلبك فسرعان ما تستبِق إليك المخاطر خفاقة القلب بالحب، وهي جميعها على ما يبدو في موقف الانتظار تتقرب إشارة من طرف القلب، فإذا صارت الروح عند إقبال المساء أوفر حكمة، أمسى الحزن الذي صاغته الروح في الصباح كذلك أكثر حكمة.

لنتجنب المبالغة حينما نتحدث عن الحكمة، فنحن نعلم أن القوى الخارجية لا تعنو للرجل الصالح، ولكنه لا يزال السيد المطلق في عالم قواه الداخلية، وهذه القوى الداخلية هي التي تسدى وتلحم نسيج سعادتنا وشقائنا، ومجرد حضور الحكيم يكفي لاعتقال الكوارث التي تنشأ من الخطأ والشر، فهي لا تستطيع الدنو منه أو ممن حوله، وحول الرجل الصالح المستقيم دائرة من السلام واسعة المدى سرعان ما تمتنع عن السقوط فيها سهام الشر، وليس في مستطاع رفقائه أن يذيقوه الآلام المعنوية، لأننا في الواقع إذا كان كيد أعدائنا يسيل دموعنا فما ذاك إلا أننا كنا نود أن نبكيهم، وإذا كانت سهام الحسد تجرحنا وتجري دماغنا فما ذاك إلا لأننا عندنا سهام نريد أن نطلقها، وإذا كانت الخيانة تستثير الزفرات من حنايا ضلوعنا فما ذاك إلا أننا نحن أنفسنا خونة غير مخلصين، فهذه الأسلحة لا تستطيع أن تجرح إلا الروح التي لم تقدمها قربانا على هيكل الحب.

كلما تعمقنا في الحياة وضح لنا الكثير مما خفى علينا من أسرار الحزن واليأس، ورأينا أن الكثيرين حولنا يعيشون عيشة خاملة تافهة لاعتقادهم أنهم لا يصلحون لشيء، ولا يعنى بأمرهم أحد، ولا يحبهم إنسان لأنهم مجردون مما يستوجب الحب، ولكن الحكيم لا بد أن تتأوبه الساعة التي يرى فيها أن كل روح كائنة تستحق التقائه ورضاه وحبّه، ولو لم يكن ذلك إلا لأنها تملك هبة الوجود الغامضة الخفية، ولا بد أن تحين الساعة التي يرى فيها أن الزيف والضعف والرزيلة جميعها لا تتجاوز السطح، ويستشف بصره القوة والحق والفضيلة الكامنة وراء ذلك، وأنها لساعة مباركة سعيدة حينما يتكشف لنا الشر عن حير لم يجد هادياً، وتتجلى لنا الخيانة ولأه يضل أبداً طريق السعادة، وتستحيل الكراهة حباً قد حداه اليأس المرير على الحفر في القبور.

لنذهب حيث شئنا فإن نهر الحياة الزاخر يتدفق تحت قبة السماء، وهو ينساب بين حيطان السجون حيث لا تشرق أشعة على مياهه كما يجري إلى جانب درج القصر حيث الابتهاج والمجد، وليس يعيننا عمق ذلك النهر أو اتساعه أو قوة تياره في تدفقه الدائم، وإنما الذي نعنى به أعظم عناية هو حجم الكأس التي نغمرها في مياهه وصفائها، لأن كل ما نترشفه من الحياة

يأخذ شكل تلك الكأس، وهذه الكأس نفسها تأخذ شكل أفكارنا ومشاعرنا، ولكل إنسان كأس قد صاغها لتلائم ذوقه ومشربه، وهى فى أغلب الأوقات التى تعلمنا أن نطلبها، فإذا تذمّرنا من القدر فلنقصر شكوانا على أن القدر لم يفرس فى قلوبنا الرغبة فى كأس أوفى وأكمل، لأن الحقيقة أن عدم المساواة لا توجد إلا فى الرغبة، وعدم المساواة هذا يزول حينما ندركه، ففكرة أن رغبتنا كان يمكن أن تكون أنبل تسوق إلينا النبل فى التو واللحظة، والذي يعلم أن مشاعره ينقصها الحماسة الكريمة ليس من حقه أن يشكو، وإذا كنت أحسد حسداً شريفاً هؤلاء الذين استطاعوا أن يغمروا كأساً أوفى وألمع من كأسى حيث النهر على أتم ما يكون من إشراق الصفحة فإن لى- وإن كنت أجهل ذلك- نصيباً وافراً من كل ما استمدوه من النهر، وشفقتى تجاور شفاههم على حافة الكأس المؤثقة.

لنترك الماحكة فى عدم اكتراث الطبيعة بالحكيم، فعدم اكتراثها هذا يبدو لنا غريباً لأننا لم نصبح بعد حكماء، وأول واجبات الحكمة هو أن نظهر ضؤولة المكانة التى يشغلها الإنسان فى الكون.

والإنسان يبدو ذا شأن فى الكون.

والإنسان يبدو ذا شأن فى حيزه كالنحلة فى الخلية، ومن العبث التفكير فى أن زهرة واحدة فى الحقول ستفتح لأن ملكة النحل قد أثبتت بطولتها فى الخلية، ولا يذهبن بنا الظن بأننا ننتقص من قيمتنا إذا أكبرنا شأن الكون، وسواء عدنا الكون برمته عظيماً أو عدنا أنفسنا عظماء فإن حاسة اللانهاى ستنتبه فى نفوسنا، وهى دم الفاضل حتى ننتظر مثل هذا الجزاء الضخم؟ فتواب الفضيلة يتبغى أن يكون فى نفوسنا لأن قانون الجاذبية لا ينحرف ولا يحدد، والذين لا يفقهون معنى الخير هم أعلى الناس صوتاً فى الطلب المثوية لعمل الخير، وقبل كل شىء لنذكر على الدوام أن عمل الخير نفسه لون من السعادة، فهو ثمرة حياة داخلية طويلة فرحة قانعة، وهو يروى لنا عن ساعات وأيام هادئة وديعة فى أشرق أعالي روحنا، وليست هناك مكافأة تعادل هذه المتعة، وقد يكون هناك سرور فى عمل الخير ابتغاء غاية معلومة، ولكن الذين يعملون الخير ولا ينتظرون جزاء يستشعرون سروراً مقدساً، ونحن حينما نقارن الشر نعلم الأسباب الداعية إليه، ولكن أعمالنا الخيرة تصير أصفى وأنقى كلما جهلنا الدافع إليها، وإذا شئنا أن نقدر الرجل الصالح فما علينا إلا أن نسأله عن الأسباب التى تدعوه إلى الصلاح، بعض الناس أنه كلما اتسع العقل فقدت الروح الكثير من دوافع البطولة، ولكن ليكن نصب عيوننا أن العقل الأرحب يستصحب مثلاً أعلى للبطولة أسمى وأنزه، وفى الحق أن الذى يعتقد أن الفضيلة فى حاجة إلى تأييد القدر لا يملك حاسة الفضيلة الحقّة، ولكى نحسن الصنيع يجب أن نعمل الخير لثلهنا على عمله ولا ننتظر جزاءً سوى أن نكون أعرف بالخير وأدري.

ولا يخفى على الله الفرق الواضح بين روح الرجل الذى يعتقد أن أشعة العمل الخير سيقترامى ضوؤها إلى أقصى مكان، وروح الرجل الذى يعرف أن تلك الأشعة لا تثير سوى قلبه وحده، ولقد يكون للحق السرف فى الطموح قوة موقوته أعظم، ولكن القوة التى يجلبها الحق الإنسانى المتواضع أكثر حماسة وأوفر جلدًا، وهل الأجل بنا أن نكون مثل الجندى الذى يخيّل إليه أن كل ضربة من ضرباته تقرب النصر أو أن نكون مثل الجندى الذى يعرف قلة غنائه فى المعركة، ولكنه مع ذلك يستبسل فى الجهاد؟ والرجل المستقيم يترفع عن خديعة جاره، ولكنه يعلم أن القليل من خداع النفس لازم لمثل الأعلى.

وإذا كانت الفضيلة مغنماً فإن أنبل الناس سيضطرون إلى التماس السعادة فى مظان أخرى، ولو أكثر الله من مكافئتهم لقضى على غايتهم المثلّى فى الحياة ولا شئ ضرورى أو لا يمكن الاستغناء عنه، وإذا حرمت النفس من السرور فى عمل الخير للخير وحده فقد تجد مسرات أخرى أصفى، ولكن فى غضون ذلك سيظل السرور فى عمل الخير أجمل ما نعرف من ألوان السرور، فلنكبره من أجل ذلك، ولنخف من وطأة استنكارنا للكوارث التى تصيب الفضيلة فى بعض الأوقات خشية أن نكرر صفاء جوهر سعادتها الشفاف، والروح التى تنعم بتلك السعادة لا تحلم بعدها بالثوية أكثر مما يتوقع غيرها العقاب لما فيها من شر وسوء، وأرفع الناس صوتاً فى طلب العدالة هم الذين لا يعرفونها فى حياتهم.

لم لا نسلم بأنّه ليس من أسمى واجباتنا أن نيكى مع كل الذين ييكون، وأن نشاطر الحزن كل حزين، وأن نعرض قلبنا لكل عابر ليلمسه برفق أو ليطعنه، إننا لا نجد من الدموع والجروح والآلام أعواناً إلا إذا كانت لا تثبط حياتنا، ولا يعزين عن البأل أبداً أنه مهما كانت رسالتنا فى هذه الدنيا ومهما كان هدف جهودنا وآمالنا ونتيجة مسراتنا وأحزاننا فإننا فوق كل شئ، حراس الحياة المسخرون، وهذا هو أصدق الحقائق وأثبتها، بل هذا هو الأساس الذى تقوم عليه الآداب الإنسانية، لقد أعطينا الحياة لسبب نجهل، ولكن من المؤكد أنها لم توهب لنا لنحط من شأنها أو لنطرحها بغير مبالاة، وذلك لأننا نتمثل فى هذا الكوكب السيار صورة خاصة من صور الحياة، وهى حياة الشعور والفكر، ومن ثم فإن كل ما يضعف من شعورنا وتفكيرنا مخالف للآداب، وليكن فرضاً علينا أن نقوى تلك الحماسة وتتعهدها وتزيدها روعة وجمالا، ولنحاول دائماً تعميق إيماننا بعظمة الإنسان وقوته ومصيره، أو بضعفه وحزنه وشقائه، لأن الشقاء الرقيق ليس أقل ابتعاً للروح من السعادة السامية، ولسنا نبألى أكان الإنسان أو الكون هو الخلق بإعجابنا مادام هناك ما يثير إعجابنا ويقوى فينا حاسة اللانهاى، وكل نجم جدير يزهر السماء يرسل أشعته إلى عواطفنا وأفكارنا وشجاعتنا، وكل جمال نراه فيما حولنا سرعان ما ينعكس فى نفوسنا، وما نراه فى أنفسنا عظيماً وجديراً بالعبادة نراه كذلك فى نفوس الغير

ولا أستطيع أن أجعلك نبيلاً ما لم أكن قد أصبحت نبيلاً، وليس في وسعي أن أمنحك الإعجاب إذا لم يكن في نفسي شيء يستوجب الإعجاب.

إن السمو لا يأتي إلى الروح عن طريق التضحية بالنفس، وكلما تسامت الروح توارت التضحية عن البصر كما تغيب رؤية أزهار الوادي عن نظر المصعد في الجبل، والتضحية رمز جميل للقلق، ولكن يجب أن لا نغذى القلق في نفوسنا من أجل نفسه، والروح المستيقظة في تؤده يبو لها كل شيء تضحية، ولكن أشياء قليلة تبدو كذلك للروح التي صارت تحيا الحياة التي لم يصبح فيها إنكار النفس والرحمة والإخلاص والولاء جذوراً لا يستغنى عنها وإنما أصبحت أزهاراً خفية، والحقيقة أن الكثيرين يشعرون- بغير موجب بالحاجة إلى هدم سعادتهم وحبهم وأملهم لكي يستوضحوا صورة النفس في ضوء اللهب المضيئ، وكأنهم يحملون في أيديهم مصباحاً يجهلون طريقة استعماله فإذا زحف الظلام واحتاجوا إلى الضوء بددوا مادته في نار غيرهم، ونحزن من أن نعمل عمل الرجل في الخرافة الذي كان يحرس المنارة ثم تصدق على الفقراء في أكوأخهم بزيت المصابيح الضخمة التي كانت تضيئ البحر، وكل روح في حيزها منار قد وكل إليها أمره تتفاوت حاجتها إليه، وأكثر الأمهات تواضعاً- وهي التي تسمح بأن تحزنها الواجبات المنزلية القليلة الأهمية وتتقل عليها وتستغرق جهدها- تتصدق بزيتها على الفقراء، وسيلقى أبنائها الشقاء طوال حياتهم لأن الأشعة التي كان يمكن أن تقتبسها لم تضيئ نفسها، والقوة غير المادية التي تضيئ قلوبنا يلزم أن تضيئ قبل كل شيء لنفسها، وهي لا تضيئ للآخرين إلا على هذا الشرط، فاعمل على أن لا تتصدق بزيت مصباحك.

أضال فكرة تفرغ على القلب العزاء والسلوان في طيها قوة ليست موجودة في أبلغ شكوى وأبرع تعبير عن الحزن، والفكرة الواسعة العميقة التي لا تجلب سوى الحزن إنما هي قوة تحرق أجنحتها في الظلام لتلقى الضوء على حائط سجنها، وفكرة الأمل الحائر المتردد أو قبول القانون الذي لا مندوحة عنه ببشاشة وارتياح هي في نفسها قوة متحفزة للعمل.

فهرس

٧	مقدمة
٩	سخرية سالتيكوف
١١	أحاديث تولستوى
٢٧	أدب ترجنيف
٣٣	اللقاء الأخير
٤١	حكمة كريلوف (١)
٤٧	حكمة كريلوف (٢)
٥٣	وداع ترجنيف
٥٧	شك أناتول فرانس
٦٧	أو نامونو والعبقرية الأسبانية
٧٣	أحزان بابيني
٧٩	البطل المعلوم والبطل المجهول
٨٥	تشاؤم ليوياردى
٩٧	بين التردد والعزم
١٠٣	فلسفة مازاريك
١٠٩	سياسة فيلسوف
١١٥	بين متزيني ومستر كارلايل
١١٩	استشراق لا فاديوييرن
١٢٧	ولز ومصير العالم
١٣٣	بين كارلايل الشاب وجيتى الشيخ
١٣٩	رثاء كارلايل لجيتى
١٤٧	تفاوض مبيترلنك

• سرر من السلسله •

- ١- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الأول)
- ٢- المصريون المحدثون وعاداتهم (الجزء الثانى)
- ٣- الفصن الذهبى (الجزء الأول)
- ٤- الفصن الذهبى (الجزء الثانى)
- ٥- كليله ودمنه
- ٦- ابن جبير
- ٧- فى موكب الشمس
- ٨- هاملت
- ٩- قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور
- ١٠- الفنون الشعرية غير المعربة (المواليا)
- ١١- رمز الأفعى فى التراث العربى
- ١٢- التراث القصصى عند العرب
- ١٣- تاريخ العرب قبل الاسلام
- ١٤- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى
- ١٥- جماعة أبوللو (الجزء الأول)
- ١٦- جماعة أبوللو (الجزء الثانى)
- ١٧- الأساطير
- ١٨- ابراهيم الكاتب
- ١٩- ابراهيم الثانى
- ٢٠- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الأول
- ٢١- الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر- الجزء الثانى
- ٢٢- حديث السندباد القديم
- ٢٣- أرض كليوباترا
- ٢٤- زينات
- ٢٥- أعلام من الاسكندرية - الجزء الأول
- ٢٦- أعلام من الاسكندرية - الجزء الثانى

- ٢٧- شريعة الصحراء
- ٢٨- ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الأول
- ٢٩- ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الثاني
- ٣٠- القصة القصيرة فى مصر
- ٣١- رسالة الكلم الثمان
- ٣٢- نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال
- ٣٢- قصة الأدب فى العالم - الجزء الأول
- ٣٤- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى- القسم الأول
- ٣٥- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى- القسم الثانى
- ٣٦- قصة الأدب فى العالم - الجزء الثالث- القسم الأول
- ٣٧- حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى
- ٣٨- تولستوى - محمود الخفيف
- ٣٩- باريس
- ٤٠- الشوقيات المجهولة - الجزء الأول
- ٤١- الشوقيات المجهولة - الجزء الثانى
- ٤٢- شخصيات تاريخية
- ٤٣- أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الأول
- ٤٤- أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الثانى
- ٤٥- عصر ورجال - الجزء الأول
- ٤٦- عصر ورجال - الجزء الثانى
- ٤٧- المأسى التاريخية الكبرى
- ٤٨- المدائح النبوية فى الأدب العربى
- ٤٩- ديوان صالح الشرنوبى الجزء الأول
- ٥٠- ديوان صالح الشرنوبى الجزء الثانى
- ٥١- حياتنا التمثيلية
- ٥٢- التلميذة الخالدة
- ٥٣- أعلام الإسكندرية
- ٥٤- حياة الرافعى
- ٥٥- فيراتنا

- ٥٦- أجمل ما كاتب خليل مطران
٥٧- ألمع ساعات النحر في تاريخ الانسانية
٥٨ ، ٥٩- أحمد عرابي.. الزعيم المقتدى عليه.
٦٠- محمد الثائر الأعظم
٦١- حلية الطراز
٦٢ ، ٦٣- طلعت حرب.. بحث في العظمة
٦٤ ، ٦٥- ألوان من الحب
٦٦- المعارك في الصحافة والسياسة والفكر
٦٧- الذكر الحكيم (من وجهة عصرية)
٦٨- ديوان عزيز
٦٩- مذكرات الإمام محمد عبده
٧٠- ألوان من أدب الغرب

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

سلسلة ذاكرة الكتابة

من سخرية «سالتيكوف» شيخ الهجائين في الأدب الروسي، إلى إنسانية «تولستوى» ومثاليته، إلى غوص «تورجنيف» في أعمال النفس الإنسانية إذ تتجبر وتطغى، إلى حكمة «كريلوف» وهى تستلهم العادات والتقاليد والعواطف القومية للشعب عبر مستوياته الاجتماعية - خاصة فلاحيه، إلى «أناتول فرانس» وثقافة الشك، و«ليوباردى» وتشاؤميته، و«مترلينك» وتفاؤله، وآخرين من فلاسفة ومبدعين غربيين: يتحرك هذا الكتاب كجسر بين ثقافتين: ثقافتنا والغرب، مؤكداً أن تطور أية ثقافة مرهون بحراكها الجدلى وسط سائر الثقافات، إذ التلاقح والافتتاح وإذ - بالتالى - التجديد والتحديث وافتتاح الأفاق، وما من ثقافة على هذا الكوكب إلا وافادت واستفادت: حدث هذا عندما انفتح الأدب اليونانى على ذخائر المصريين القدامى، ولم يستكمل الأدب الرومانى نضجه إلا بعد احتكاكه بالأدب اليونانى، ولم ينهض الأدب العربى إلا بالتماس المعرفى العميق مع الأدب الفارسى والثقافة اليونانية الرومانية، وهكذا دون تفريط فى الخصوصية الحضارية لكل ثقافة، ودون الإفراط فى الخوف عليها، إذ أن الحقيقة الإبداعية والثقافية فى أقصى تجلٍ لها: تتطلب قدراً من التنازل عن بعض القديم والعتيق، لتتفتح شرايين الأمة لكل تحديث إنسانى فى الفكر والإبداع، بعيداً عن ضيق الأفق وجمود النقاء.

هذا الكتاب: دعوة إلى تكوين ثقافة قوية حاقلة بالحياة، مسائرة لحركة التقدم العالمى، تقوم على إنماء جذور الماضى، وتطعيمها بالحدثة العالمية، وتلك هى طريق الحضور الفاعل والمشارك فى تشكيل العقل والوجدان الإنسانى على ظهر هذا الكوكب..



المدينة
العامة
للقصور
للثقافة

السعر: ثلاثة جنيهات

